
من
الشتات
إلى
الاحتلال
إبراهيم محمد

من الشتات إلى الاحتلال

رحلة اليهود من الضحية إلى الجلاد

إبراهيم محمد

الطبعة: الأولى، 2025

من الشتات إلى الاحتلال

رحلة اليهود من الضحية إلى الجلاد

الطبعة: الأولى – 2025

الفهرس

مقدمة

"أولئك الذين لا يستطيعون تذكر الماضي محكوم عليهم بتكراره."

-- جورج سانتايانا

هذا الكتاب هو رحلة في قلب واحد من أكثر التناقضات إيلاماً في التاريخ الحديث: تحول الشعب اليهودي من ضحية للاضطهاد والتطهير العرقي، إلى مرتكب للاحتلال والتطهير العرقي. قصة مأساوية، لا تقتصر أهميتها على الشرق الأوسط، بل تمتد لتلامس أسئلة جوهرية حول الطبيعة البشرية، وحول العلاقة المعقدة بين الذاكرة والسلطة والأخلاق.

لمدة ألفي عام، كان اليهود هم الضحية الأبرز في التاريخ الغربي. لقد تعرضوا للتمييز، والنفي، والمذابح، وبلغت هذه المأساة ذروتها في الهولوكوست، حيث تم إبادة ستة ملايين يهودي بشكل منهجي على يد النظام النازي. لقد أصبحت معاناة اليهود رمزاً عالمياً للظلم، وأصبح شعار "لن يتكرر ذلك أبداً" صرخة ضمير إنسانية.

ولكن في غضون عقود قليلة بعد هذه المحرقة، قامت دولة إسرائيل، التي تأسست لتكون ملجأ لليهود وحلاً لمشكلة معاداة السامية، بتكرار العديد من الجرائم التي ارتُكبت بحق اليهود. لقد قامت بتطهير عرقي للفلسطينيين عام 1948، واحتلت أراضيهم عام 1967، وفرضت عليهم نظام فصل عنصري (أبارتهايد) وحصاراً وحشياً. حيث تحولت الضحية إلى جلاد.

كيف حدث هذا التحول الصادم؟ كيف يمكن لشعب عانى من العنصرية أن يمارسها؟ كيف يمكن لمن ذاق مرارة التهجير أن يهجّر شعباً آخر؟ كيف يمكن لمن حُبس في الجيتوهات أن يبني جيتوهات جديدة؟

هذا هو السؤال المركزي الذي يسعى هذا الكتاب إلى الإجابة عليه. إنه يحاول أن يفهم كيف يمكن للذاكرة الجماعية للمعاناة أن تتحول من مصدر للتعاطف إلى أداة للقمع. وكيف يمكن للأيديولوجية القومية، عندما تتحد مع القوة العسكرية والدعم الدولي، أن تعمي أمة بأكملها عن رؤية الظلم الذي تمارسه.

طبيعة هذا العمل ومنهجيته

هذا الكتاب ليس كتاب في التاريخ السياسي فقط، بل هو تحليل نفسي وثقافي لـ "عقلية الضحية - الجلاد". نحاول من خلاله أن نفهم كيف يمكن للذاكرة الجماعية للمعاناة أن تتحول من مصدر للتعاطف إلى أداة للقمع. وكيف يمكن للأيديولوجية القومية، عندما تتحد مع القوة العسكرية والدعم الدولي، أن تعمي أمة بأكملها عن رؤية الظلم الذي تمارسه.

ملاحظة منهجية أساسية حول المصادر

"يعتمد هذا الكتاب في سرده للتاريخ اليهودي على المصادر التوراتية والتاريخية الغربية، مع التأكيد على أن هناك اختلافات جوهرية بين هذه الروايات والروايات الإسلامية الصحيحة".

أمثلة على هذه الاختلافات:

الأنبياء والأحداث: الرواية الإسلامية تختلف في تفاصيل كثيرة عن الرواية التوراتية (مثل مسألة الذبيح: إسماعيل عليه السلام في الإسلام مقابل إسحاق في التوراة)

الأماكن المقدسة: العديد من الأحداث التي تنسبها التوراة للقدس، القرآن الكريم ينسبها لمكة المكرمة

طبيعة الأنبياء: الإسلام ينزه الأنبياء عليهم السلام عن كثير مما تنسبه إليهم التوراة

سبب اعتماد الرواية التوراتية: نحن نعرض هنا الروايات التوراتية والتاريخية الغربية كما يؤمن بها اليهود لفهم تفكيرهم وأيديولوجيتهم ودوافعهم النفسية، وليس لتأكيد صحتها التاريخية أو الدينية. فلفهم سلوك إسرائيل اليوم، يجب أن نفهم الأساطير والروايات التي تشكل وعي اليهود، حتى لو كانت هذه الروايات مختلفة عن الحقيقة التاريخية أو الدينية.

يعتمد هذا التحليل على مصادر متنوعة ومتوازنة، تشمل مؤرخين عرباً وإسرائيليين وغربيين، ووثائق رسمية، وشهادات من جميع الأطراف. يعتمد الكتاب على منهجية متعددة التخصصات، تجمع بين التحليل التاريخي، والنفسي، والسياسي، والأخلاقي . الهدف هو الوصول للحقيقة وليس تأكيد موقف مسبق.

هيكل الرحلة:

قسم هذا الكتاب إلى سبعة أجزاء رئيسية، يتتبع كل منها مرحلة من مراحل هذا التحول المأساوي:

الجزء الأول: الأساسات التاريخية (الفصول 1-3): يبحث في الجذور التاريخية للمسألة اليهودية في أوروبا، وظهور معاداة السامية الحديثة، ونشأة الفكرة الصهيونية كرد فعل عليها.

الجزء الثاني: دورات الاضطهاد (الفصول 4-6): يحلل ذروة المعاناة اليهودية في الهولوكوست، وكيف شكلت هذه الصدمة الوعي اليهودي والإسرائيلي الحديث.

الجزء الثالث: ولادة المشروع الصهيوني (الفصول 7-9): يتتبع تطور الحركة الصهيونية من حلم مستحيل إلى واقع سياسي، وكيف نجحت في الحصول على دعم القوى العظمى، وتأسيس دولة إسرائيل على أنقاض فلسطين.

الجزء الرابع: التحول النفسي (الفصول 10-12): يغوص في أعماق النفسية الإسرائيلية، ويحلل "عقلية الضحية-المنتصرة"، والتحالف بين الدين والسياسة، وأسطورة التفوق الأخلاقي والعسكري.

الجزء الخامس: بناء الإمبراطورية (الفصول 13-15): يوثق كيف بنت إسرائيل إمبراطوريتها الإقليمية من خلال التحالفات مع القوى الغربية، وخاصة الولايات المتحدة، وكيف تمكنت من تحييد التهديد العربي.

الجزء السادس: الممارسة على الأرض (الفصول 16-18): يفحص التطبيقات العملية للتحول من ضحية إلى جلاد، من خلال دراسة حالة غزة كمختبر للقمع، والضفة الغربية كنموذج للاستعمار الزاحف، والقدس كساحة للمعركة الدينية.

الجزء السابع: المساءلة الأخلاقية (الفصول 19-21): يتناول المفارقة الأخلاقية الكبرى التي تطرحها هذه القصة، والأصوات اليهودية الناقدة التي رفضت الصمت، والانقسام المتزايد داخل الجالية اليهودية، ويختتم بدروس عالمية حول إمكانية كسر دائرة العنف وبناء مستقبل قائم على العدالة والمصالحة.

رسالة الكتاب:

هذا الكتاب ليس موجهاً ضد اليهود أو اليهودية. بل على العكس، هو نابع من احترام عميق للتقاليد الأخلاقية والإنسانية في اليهودية، التي تم خيانتها من قبل الصهيونية. فهو

دعوة لليهود، قبل غيرهم، لاستعادة هذه التقاليد، ورفض استخدام تاريخ معاناتهم كذريعة لاضطهاد شعب آخر.

وهو أيضاً دعوة للعرب والفلسطينيين، لكي يفهموا عدوهم بشكل أعمق، لكي يدركوا أنهم لا يواجهون مجرد قوة استعمارية، بل يواجهون أيضاً شعباً يحمل جروحاً تاريخية عميقة، ويتحرك بمنطق الخوف والقلق الوجودي. إن فهم هذه النفسية هو شرط أساسي لتطوير استراتيجيات مقاومة فعالة.

وأخيراً، هو دعوة للعالم، لكي يتوقف عن التعامل مع إسرائيل كحالة استثنائية، ولكي يطبق عليها نفس معايير القانون الدولي وحقوق الإنسان التي يطبقها على أي دولة أخرى. إن الصمت عن جرائم إسرائيل، بحجة التعاطف مع تاريخها، هو خيانة للضحايا الفلسطينيين، وخيانة للدروس الحقيقية للهولوكوست.

رحلة هذا الكتاب قد تكون مزعجة ومؤلمة، لأنها تجبرنا على النظر في أعماق الطبيعة البشرية، وعلى مواجهة حقائق غير مريحة. ولكنها رحلة ضرورية. فكما قال الفيلسوف

جورج سانتايانا، "أولئك الذين لا يستطيعون تذكر الماضي محكوم عليهم بتكراره". ولكي لا نكرر مآسي الماضي، يجب أن نجرؤ على تذكرها، وفهمها، واستخلاص الدروس منها، مهما كانت قاسية.

(١)

البدايات والهوية الأولى

قصة الانفصال الأول

في قلب حضارة كانت تموج بالحياة، في مدينة أور الكلدانية التي عَجَّت أسواقها بالبضائع وزقوراتها الشاهقة تناطح السماء، وقف رجل في السبعين من عمره، يُدعى أبرام، على شفا قرار سيغير وجه التاريخ. لم يكن قراره بالرحيل مجرد هجرة بحثاً عن مرعى أفضل لماشيته، بل كان انفصالاً حضارياً ودينياً كاملاً. كان قطيعة مع كل ما هو مألوف، وثورة صامتة على عالم الآلهة المتعددة التي عبدها قومه لقرون. [1]

تخيل المشهد: رجل يجمع متاعه البسيط، تاركاً وراءه بيوتاً من الآجر المشوي، وشبكات ري متطورة، ومعابد عظيمة كانت تُقام فيها طقوس معقدة لآلهة القمر "نانا". تركه لم يكن مجرد انتقال جغرافي، بل كان قفزة في المجهول، مدفوعاً بصوت داخلي، بوعد إلهي

غامض يهمس له بأرض لم يرها ونسل لم يأتِ بعد. كانت تلك اللحظة، سواء أكانت حقيقة تاريخية موثقة أم رمزاً دينياً مكثفاً، هي الشرارة الأولى لقصة شعب سيجعل من الانفصال عن الآخرين جوهر هويته.

هنا، في تلك البقعة من بلاد الرافدين، وُضعت البذرة الأولى لشعب سيرفض الذوبان في الآخرين على مدى أربعة آلاف عام. شعبٌ سيحول محنه إلى مصدر قوة، ويجعل من ذاكرة الاضطهاد وقوداً لمسيرته. هذه الرحلة التي بدأت بانفصال فرد عن عشيرته، ستنتهي بعد أربعة آلاف عام بانفصال شعب كامل عن محيطه، ليس بالاختيار هذه المرة، بل بالقوة والجدران والأسلاك الشائكة. إنها بداية رحلة التحول الطويلة من الضحية التي تبحث عن ملاذ آمن، إلى الجلاد الذي يفرض هيمنته على الآخرين. ففي البدء، كان الانفصال.

بين النص والرواية المضادة

لفهم أعماق الهوية اليهودية، لا بد من الغوص في طبقات متراكمة من الأسطورة والتاريخ، حيث يمتزج النص الديني المقدس بالاكتشافات الأثرية التي تدعمه حيناً

وتناقضه أحياناً. القصة التي ترويها التوراة هي حجر الزاوية في فهم اليهود لأنفسهم، بينما يقدم علم الآثار والتاريخ النقدي رواية أكثر تعقيداً وحيادية.

أ. القصة التوراتية: سردية التأسيس والانفصال

ترسم الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (التوراة) مساراً واضحاً لتشكل الهوية اليهودية، وهي قصة محورية في وعي كل يهودي. تبدأ مع الآباء المؤسسين: إبراهيم، الذي قطع العهد الأول مع الله، ووُعد بالأرض والنسل؛ وابنه إسحاق، الذي كاد أن يُقدم قرباناً في اختبار إيماني قاسٍ؛ وحفيده يعقوب (الذي أُطلق عليه اسم إسرائيل)، الذي أنجب الأسباط الاثني عشر، نواة الشعب الإسرائيلي. هذه السلسلة من الآباء لا تؤسس لنسبٍ بيولوجي فحسب، بل تؤسس لفكرة "الاختيار" و"العهد"، وهي علاقة خاصة واستثنائية بين هذا الشعب وإلهه. [2]

تستمر السردية مع قصة يوسف الذي باعه إخوته إلى مصر، ليصعد فيها إلى أعلى مراتب السلطة، مما يمهد لنزول بني إسرائيل إلى مصر هرباً من المجاعة. لكن هذا الملجأ سرعان ما يتحول إلى أرض عبودية، لتبدأ مرحلة جديدة ومهمة في تشكيل الوعي الجماعي:

الخروج. بقيادة موسى، النبي والمشرّع، يهرب بنو إسرائيل من بطش فرعون في حدث درامي يُعرف بـ"شق البحر"، ليتيهوا في صحراء سيناء أربعين عاماً. في سيناء، يتلقى موسى الوصايا العشر وألواح الشريعة، ويتجدد العهد بين الله والشعب. هذه التجربة المزدوجة - مرارة العبودية وحلاوة التحرر - ستصبح نموذجاً متكرراً في التاريخ اليهودي، وستُستخدم لاحقاً لتبرير الكثير من المواقف السياسية.

تُختتم الملحمة بدخول بني إسرائيل إلى أرض كنعان (فلسطين) بقيادة يوشع بن نون. تصف التوراة هذا الدخول بأنه غزو عسكري عنيف، حيث تم تدمير مدن كنعانية بأمر إلهي. هذه الرواية، التي تُعرف بـ"سفر يوشع"، تقدم نموذجاً أولياً لفكرة "الاستحقاق الإلهي" للأرض، حتى لو تطلب ذلك إبادة سكانها الأصليين. وهي فكرة ستعاود الظهور بقوة في الفكر الصهيوني الحديث. [3]

ب. النظرة التاريخية النقدية: تفكيك السردية

في المقابل، يقدم علم الآثار والتاريخ النقدي صورة مختلفة تماماً. فبينما كانت القصة التوراتية تُعتبر تاريخاً موثوقاً لقرون، بدأت الاكتشافات الأثرية منذ القرن التاسع عشر

في طرح أسئلة جدية حول دقتها. يشير مؤرخون بارزون مثل إسرائيل فنكلشتاين ونيل آشر سيلبرمان في كتابهما "التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها" إلى غياب أي دليل أثري يدعم قصة الآباء، أو العبودية في مصر، أو الخروج الجماعي، أو حتى الغزو العسكري لكنعان. [4]

بدلاً من ذلك، تقترح النظريات الحديثة سيناريوهات بديلة. "نظرية التسلل السلمي" تقترح أن بني إسرائيل كانوا مجموعات من البدو الرحل الذين استقروا تدريجياً في المناطق الأقل كثافة سكانية في كنعان. أما "نظرية الثورة الفلاحية"، التي طرحها نورمان جوتفالد، فترى أن "إسرائيل" لم تكن مجموعة عرقية قادمة من الخارج، بل كانت تحالفاً من الفلاحين والعبيد الكنعانيين الذين ثاروا على أسيادهم في المدن الساحلية، وتبنوا "يهوه" إلهاً محرراً لهم. [5] أما النظرية الأكثر قبولاً اليوم، فهي "نظرية التطور التدريجي"، التي ترى أن الشعب الإسرائيلي نشأ وتطور من داخل المجتمع الكنعاني نفسه، وأن التمايز بينهم كان ثقافياً ودينياً في البداية، وليس عرقياً.

هذا التباين بين النص الديني والاكتشاف الأثري ليس مجرد نقاش أكاديمي، بل يضرب في صميم ادعاءات الحق التاريخي. فإذا لم يكن هناك خروج من مصر، ولا غزو لكنعان، فإن فكرة "العودة" إلى أرض الميعاد تفقد الكثير من أساسها التاريخي، وتتحول إلى بناء أيديولوجي لاحق. وهذا بالضبط ما يجادل به مؤرخون إسرائيليون جدد مثل شلومو ساند في كتابه المثير للجدل "اختراع الشعب اليهودي"، حيث يرى أن فكرة وجود شعب يهودي عاش في المنفى لآلاف السنين ثم عاد إلى وطنه هي أسطورة حديثة اخترعتها الصهيونية لتبرير مشروعها الاستعماري. [6]

انفصال عن عالم الآلهة

لم يكن الانفصال الذي شكل الهوية اليهودية مجرد انفصال جغرافي أو سياسي، بل كان في جوهره ثورة دينية وفكرية غيّرت مسار التاريخ الإنساني. في عالم كانت تسوده آلهة محلية متقلبة، مرتبطة بمدينة أو ظاهرة طبيعية، جاءت فكرة الإله الواحد، المتعالي عن الطبيعة، لتكون بمثابة قطيعة جذرية مع الفكر الديني السائد في الشرق الأدنى القديم.

أ. من تعدد الآلهة إلى الواحد الأحد

لم تظهر فكرة التوحيد الخالص دفعة واحدة، بل كانت على الأرجح نتاج تطور تدريجي استمر لقرون. في البداية، ربما آمن بنو إسرائيل الأوائل بوجود آلهة أخرى، لكنهم اختاروا عبادة إله واحد خاص بهم، وهو ما يُعرف بال"هينوثية" (Henotheism). كان "يهوه" إلههم القبلي، إله الحرب الذي يقودهم في معاركهم، شبيهاً بآلهة الشعوب المجاورة مثل "كموش" إله الموآبيين. [7]

لكن نقطة التحول الحقيقية جاءت مع الأنبياء الثوريين مثل إيليا، الذي تحدى كهنة الإله "بعل"، وإشعياء، الذي قدم رؤية لإله عالمي وليس فقط إله قبلي، وإرميا، الذي أكد على أن العلاقة مع الله هي علاقة قلبية داخلية وليست مجرد طقوس في الهيكل. هؤلاء الأنبياء، الذين ظهروا في فترات الأزمات السياسية والاجتماعية، هم الذين صقلوا فكرة التوحيد الخالص، مؤكدين أن "يهوه" ليس فقط إله إسرائيل، بل هو الإله الوحيد للكون بأسره، وأن كل الآلهة الأخرى ليست سوى أصنام من صنع البشر.

هذه الفكرة، التي تبدو بديهية اليوم، كانت ثورية وصادمة في عصرها. لقد نزعت القداسة عن الطبيعة، وفصلت الإلهي عن المادي، ووضعت الإنسان في علاقة مباشرة مع خالق الكون. هذا الانفصال عن آلهة الجيران لم يكن مجرد اختلاف لاهوتي، بل كان إعلاناً عن هوية متفردة ومستقلة، ترفض الخضوع للمنظومات الدينية والثقافية للإمبراطوريات الكبرى المحيطة بها، سواء في مصر أو بلاد الرافدين.

ب. التأثير الحضاري وبذرة التفوق

كان لهذه الثورة التوحيدية آثار عميقة تجاوزت حدود الشعب اليهودي. ففكرة الإله الواحد، أصبحت الأساس الذي قامت عليه الديانتان العالميتان الأخريان، المسيحية والإسلام. كما أن تركيز الأنبياء على العدالة الاجتماعية والدفاع عن الفقراء والمظلومين قدّم للعالم مفهوماً جديداً للأخلاق، يربط بين العبادة والسلوك القويم. حتى مفهوم الزمن الخطي - الذي له بداية ونهاية وهدف - يعود في جذوره إلى الفكر النبوي العبراني، في مقابل الزمن الدائري الذي ساد في معظم الحضارات القديمة والذي يرى التاريخ مجرد تكرار لا نهائي لنفس الدورات.

لكن هذه الثورة حملت في طياتها بذرة إشكالية ستنمو وتتضخم عبر التاريخ: بذرة التفوق. فالإيمان بامتلاك الحقيقة الدينية الكاملة، وأن "إلهنا هو الإله الحقيقي الوحيد"، يمكن أن يتحول بسهولة إلى شعور بالاستعلاء على الآخرين الذين يعيشون في "ظلام" الوثنية. هذا الشعور، ممزوجاً بفكرة "الشعب المختار"، سيخلق إحساساً بالتميز والاستحقاق، وهو إحساس سيلعب دوراً محورياً في تبرير العزلة حيناً، وتبرير الهيمنة حيناً آخر. لقد كان التوحيد سلاحاً ذا حدين: منح اليهود قوة فكرية وروحية هائلة مكنتهم من البقاء في وجه كل التحديات، لكنه زرع فيهم أيضاً شعوراً بالانفصال والتفوق سيضعهم في صدام مستمر مع العالم من حولهم.

مفهوم الشعب المختار

لا يمكن فهم الهوية اليهودية، والتحولات التي مرت بها، دون التوقف عند فكرة "الاختيار" (Chosenness)، وهي واحدة من أكثر المفاهيم الدينية إثارة للجدل في التاريخ. هذه الفكرة، التي تنص على أن الله قد اختار بني إسرائيل من بين جميع شعوب الأرض ليكونوا شعبه الخاص، كانت مصدراً للفخر والصمود في وجه الاضطهاد، لكنها كانت أيضاً مصدراً للشعور بالاستعلاء ومبرراً للعنصرية في بعض تفسيراتها المتطرفة.

أ. النشأة التاريخية والتفسير الأصلي

ظهرت فكرة الاختيار بوضوح في سفر الخروج، في سياق العهد الذي قطعه الله مع بني إسرائيل عند جبل سيناء: "فَالآنَ إِن سَمِعتُم لِصَوتِي، وَحَفِظتُم عَهدِي، تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِن بَينِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. فَإِنَّ لِي كُلَّ الأَرضِ. وَأَنتم تَكُونُونَ لِي مَملَكَةَ كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً" (الخروج 19: 5-6). في تفسيرها الأصلي، لم تكن فكرة الاختيار تعني تفوقاً عرقياً أو امتيازاً خاصاً، بل كانت تعني مسؤولية إضافية. لقد تم اختيارهم ليكونوا "مملكة كهنة"، أي وسطاء بين الله والبشرية، وليحملوا رسالة التوحيد والأخلاق إلى العالم. كان اختياراً لخدمة، لا لسيادة. [8]

هذا الفهم للاختيار كمسؤولية ظل هو السائد لدى العديد من المفكرين اليهود عبر العصور. فالاختيار لا يعني أن اليهود أفضل من غيرهم، بل يعني أن عليهم التزامات أكثر من غيرهم (الـ 613 وصية في الشريعة اليهودية)، وأن الله سيحاسبهم بقسوة أكبر إذا فشلوا في حمل هذه الأمانة. كان الاختيار عبئاً مقدساً، وليس شهادة تفوق.

ب. التطور نحو الامتياز والاستعلاء

لكن مع مرور الزمن، وفي سياق الشتات والاضطهاد، بدأ معنى "الاختيار" يتحول تدريجياً. ففي مواجهة شعوب تضطهدهم وترفضهم، تحول الشعور بالمسؤولية إلى شعور بالتميز. أصبح الاختيار دليلاً على أنهم، رغم ضعفهم الظاهري، هم الأقرب إلى الله، وأن معاناتهم هي علامة على مكانتهم الخاصة. بدأ التفسير القومي يطغى على التفسير الروحي. لم يعودوا مجرد حملة رسالة، بل أصبحوا "شعب الله" المتميز عن "الأغيار" (Goyim)، وهو مصطلح عبري كان يعني "الأمم"، لكنه اكتسب دلالة سلبية مع مرور الوقت، ليصبح مرادفاً للغريب أو الأجنبي الذي هو أدنى مرتبة.

وصل هذا التحول إلى ذروته مع بعض التفسيرات في الفكر الصهيوني الحديث، وخاصة في التيار الديني المتطرف. ففي هذا الفكر، تم تفسير "الاختيار" على أنه تفوق عرقي وروحي، وأن "الشعب المختار" له حقوق إلهية خاصة، وعلى رأسها الحق في "أرض الميعاد". أصبح الاختيار مبرراً سياسياً للاستيطان والاحتلال. يرى مفكرون مثل الحاخام أبراهام إسحاق كوك، الأب الروحي للصهيونية الدينية، أن روح إسرائيل تختلف جوهرياً عن روح البشرية، وأن هناك تدرجاً في الأرواح، تأتي فيه أرواح اليهود في

القمة. [9] هذا التفسير العنصري، الذي يمثل تياراً متطرفاً ولكنه مؤثر، هو الذي يغذي اليوم أيديولوجية المستوطنين الأكثر عنفاً في الضفة الغربية.

من المهم التأكيد على أن هذا التفسير المتطرف ليس هو التفسير الوحيد أو حتى السائد في اليهودية. فهناك أصوات يهودية قوية، من الماضي والحاضر، انتقدت هذا الفهم المتعالي للاختيار، ودعت إلى العودة إلى المفهوم الأصلي للاختيار كمسؤولية أخلاقية تجاه الإنسانية جمعاء. لكن لا يمكن إنكار أن فكرة "الشعب المختار"، في تحولاتها وتفسيراتها المختلفة، قد لعبت دوراً أساسياً في بناء جدار نفسي من الانفصال بين اليهود وغيرهم، وهو جدار سيتحول لاحقاً إلى جدران حقيقية من الخرسانة والأسلاك الشائكة.

التكوين القانوني والاجتماعي

إذا كانت فكرة التوحيد والاختيار قد شكلت الأساس النظري للهوية اليهودية، فإن الشريعة (الهالاخا) والتنظيم الاجتماعي هما اللذان بنيا الأسوار العملية التي حمت هذه الهوية من الذوبان عبر آلاف السنين. لقد أدرك قادة بني إسرائيل الأوائل أن الأفكار

وحدها لا تكفي، وأنه لا بد من نظام حياة يومي شامل يحول هذه الأفكار إلى ممارسة حية، ويرسخ الشعور بالانتماء والانفصال في كل تفاصيل الحياة.

أ. الشريعة: دستور الانفصال اليومي

تُعد الشريعة اليهودية، أو "الهالاخا" (وتعني "الطريق الذي يُسلك")، نظاماً قانونياً ودينياً شاملاً يهدف إلى تنظيم حياة اليهودي من المهد إلى اللحد. وهي لا تقتصر على العبادات، بل تشمل الطعام واللباس والزراعة والتجارة والزواج والطلاق وكل مناحي الحياة. هذا النظام المعقد، الذي يضم 613 وصية (248 أمراً و365 نهياً) مستنبطة من التوراة، لم يكن مجرد مجموعة من القوانين، بل كان أداة فعالة لخلق مجتمع متمايز ومنفصل. [10]

فقوانين الطعام الحلال (الكوشر)، التي تمنع أكل أنواع معينة من الحيوانات وتفصل بين اللحوم والألبان، جعلت من الصعب على اليهودي أن يشارك غيره في مائدة طعام. وقوانين الطهارة والنجاسة، التي تتطلب طقوس اغتسال معقدة، خلقت حاجزاً إضافياً. كما أن قدسية يوم السبت، الذي يُمنع فيه العمل بشكل شبه كامل، فصلت إيقاع الحياة اليهودية عن إيقاع حياة المجتمعات المحيطة. هذه القوانين، التي قد تبدو تفصيلية أو غريبة

للوهلة الأولى، كانت في الواقع بمثابة "سياج حول التوراة"، كما يسميها الحاخامات، هدفها حماية الهوية اليهودية من أي تأثير خارجي، وضمان عدم اختلاط اليهود بغيرهم إلى درجة الذوبان.

ب. التنظيم الاجتماعي: مؤسسات التميز

إلى جانب الشريعة، تطورت مؤسسات اجتماعية عززت هذا الانفصال. في البداية، كان نظام القبائل الاثنتي عشرة، التي تنتسب جميعها إلى أبناء يعقوب، هو أساس التنظيم الاجتماعي، مما خلق شعوراً قوياً بالوحدة العائلية والانتماء المشترك. وبعد بناء الهيكل الأول في القدس على يد الملك سليمان، أصبح الهيكل هو المركز الروحي والسياسي للأمة، ومحور الحياة الدينية الذي لا يمكن أن تكتمل العبادة إلا فيه. هذا التركيز على مكان واحد مقدس عزز من ارتباط الشعب بالأرض، وجعل من القدس عاصمة أبدية في وعيهم الجماعي.

كما ظهرت طبقة دينية متخصصة، مكونة من الكهنة واللاويين، الذين كانوا مسؤولين عن خدمة الهيكل وتقديم القرابين وتعليم الشريعة. هذه النخبة الدينية، التي كانت

تتوارث مناصبها، أصبحت حارسة للنقاء العقائدي والعرقي للشعب. وبعد تدمير الهيكل الأول والسبي إلى بابل، ظهرت طبقة جديدة من القادة الدينيين: الحاخامات، وهم علماء وفقهاء كرسوا حياتهم لدراسة التوراة وتفسيرها. هؤلاء الحاخامات هم الذين سيقودون عملية إعادة بناء الهوية اليهودية في المنفى، وسيطورون "التوراة الشفوية" (التي ستُعرف لاحقاً بالتلمود)، لتصبح هي الوطن البديل والمحمول للشعب اليهودي في شتاته الطويل.

الممالك الأولى والانقسام

لم تدم فترة الوحدة والقوة طويلاً. فبعد قرون من التشتت القبلي، نجح بنو إسرائيل في تأسيس مملكة موحدة في كنعان، لتمثل هذه الفترة ذروة مجدهم السياسي والعسكري، وستبقى في ذاكرتهم الجماعية كنموذج للدولة المثالية التي يحلمون باستعادتها. لكن هذه التجربة القصيرة مع القوة سرعان ما أدت إلى الانقسام والضعف، لتبدأ أولى حلقات مسلسل السقوط والشتات.

أ. المملكة الموحدة: قمة المجد والقوة

بدأت قصة المملكة مع شاول، الذي تم اختياره كأول ملك لتوحيد القبائل في مواجهة الخطر الفلسطيني (وهم شعب بحري قديم لا علاقة له بالفلسطينيين الحاليين). ورغم نجاحاته الأولية، انتهى حكم شاول نهاية مأساوية. ليأتي بعده الملك داود، الذي يُعتبر أعظم ملوك إسرائيل. كان داود محارباً شجاعاً وشاعراً مرهفاً، نجح في هزيمة أعدائه، وتوسيع حدود مملكته، واتخاذ القدس (التي كانت مدينة يبوسية) عاصمة سياسية ودينية له. في عهد داود، تحولت إسرائيل من مجرد اتحاد قبلي إلى قوة إقليمية يُحسب لها حساب. [11]

وصلت المملكة إلى أوج عظمتها في عهد ابن داود، الملك سليمان. عُرف سليمان بحكمته وثروته وعلاقاته الدبلوماسية الواسعة. وهو الذي بنى الهيكل الأول في القدس، ليكون صرحاً دينياً عظيماً ورمزاً لوحدة الشعب وحضور الله في وسطه. في هذه الفترة، التي لا تتجاوز القرن، ذاق بنو إسرائيل طعم القوة والهيمنة، وهي تجربة ستترك أثراً عميقاً في ذاكرتهم، وستغذي حلم "استعادة ملك داود" لآلاف السنين.

ب. الانقسام والسقوط: بذور الضحية

لكن هذا المجد لم يكن بلا ثمن. فمشاريع البناء الضخمة والضرائب الباهظة التي فرضها سليمان أثقلت كاهل الشعب، وأدت إلى تذمر واسع، خاصة بين القبائل الشمالية. وبعد وفاة سليمان مباشرة، انفجرت التوترات، وانقسمت المملكة إلى قسمين: مملكة إسرائيل في الشمال (وتضم عشر قبائل)، ومملكة يهوذا في الجنوب (وتضم قبيلتي يهوذا وبنيامين)، وعاصمتها القدس. [12]

هذا الانقسام السياسي كان بداية النهاية. فالمملكتان المتنافستان، اللتان أنهكتهما الحروب الداخلية والمؤامرات، أصبحتا فريسة سهلة للإمبراطوريات الكبرى الصاعدة في المنطقة. في عام 722 ق.م، قضت الإمبراطورية الآشورية على مملكة إسرائيل الشمالية، وقامت بتهجير سكانها وتشتيتهم في أنحاء الإمبراطورية، ليختفي أثر "القبائل العشر المفقودة" من التاريخ. وبعد أقل من قرن ونصف، جاء الدور على مملكة يهوذا. ففي عام 586 ق.م، اجتاح الملك البابلي نبوخذنصر القدس، ودمر الهيكل الأول تدميراً كاملاً، وسبى معظم سكانها، وخاصة النخبة الدينية والسياسية، إلى بابل.

كان السبي البابلي بمثابة صدمة وجودية كبرى. لقد فقدوا أرضهم، وعاصمتهم، ورمز وحدتهم الدينية (الهيكل). لأول مرة، وجدوا أنفسهم شعباً بلا أرض، وجيشاً بلا سلاح، ودولة بلا سيادة. هنا، في هذه اللحظة من الهزيمة الكاملة، بدأت تتشكل الملامح الأولى لـ"عقلية الضحية". لكن هذه المحنة، التي كانت لتقضي على أي شعب آخر، سيحولها اليهود إلى نقطة انطلاق جديدة، حيث سيتعلمون في المنفى كيف يعيشون بلا أرض، وكيف يجعلون من الكتاب وطناً، ومن الشريعة حصناً. لقد كانت بداية الشتات الحقيقي، وبداية اختراع استراتيجيات البقاء التي ستضمن استمرارهم لآلاف السنين.

الصدمة التأسيسية وبذور التحول

السقوط المريع لمملكة يهوذا وتدمير الهيكل لم يكن مجرد هزيمة عسكرية، بل كان صدمة نفسية جماعية حفرت عميقاً في الوعي اليهودي. هذا الحدث، الذي يُعرف بـ"السبي البابلي"، شكل نقطة تحول جذرية، ليس فقط في تاريخ الشعب اليهودي، بل في سيكولوجيته الجماعية. ففي خضم الهزيمة والمنفى، وُلدت آليات البقاء النفسية التي ستضمن استمرارية هذا الشعب، وفي الوقت نفسه، زُرعت بذور التحول المستقبلي من ضحية إلى جلاد.

كان أول رد فعل على الصدمة هو إعادة تعريف الهوية. فبعد أن كانت الهوية مرتبطة بالأرض والمكان (الهيكل)، كان لا بد من إيجاد أساس جديد لها في المنفى. هنا برزت عبقرية الحاخامات الذين حولوا اليهودية من "دين أرض" إلى "دين نص". أصبح الكتاب (التوراة) هو الوطن البديل، وأصبحت الشريعة هي الحصن الذي يحمي الهوية. لم يعد الانتماء يتطلب وجوداً جغرافياً، بل أصبح يتطلب التزاماً بنص وممارسة. هذه "اليهودية المحمولة" هي التي مكنت الشعب من البقاء متماسكاً في شتاته الطويل. [13]

لكن هذه الاستراتيجية الناجحة حملت معها أثراً جانبياً خطيراً: ترسيخ عقلية المحاصر. فالتمسك بالتميز والانفصال كآلية للبقاء في وجه إمبراطوريات عظمى خلق شعوراً دائماً بأن "العالم كله ضدنا". هذا الشعور، الذي تغذى على قرون من الاضطهاد اللاحق، سيتحول إلى جزء أساسي من الشخصية اليهودية الجماعية، وسيُستخدم لاحقاً لتبرير العدوانية الاستباقية تحت شعار "الدفاع عن النفس".

في الوقت نفسه، لم تُمحَ ذاكرة المجد والقوة. فقصص مملكة داود وسليمان، التي تم تدوينها وتجميلها خلال فترة السبي والضعف، أصبحت بمثابة "الفردوس المفقود" الذي يجب استعادته. نشأ حلم العودة، ليس فقط كأمل ديني، بل كطموح سياسي. عبارة "العام القادم في أورشليم"، التي أصبحت تُردد في نهاية كل صلاة، لم تكن مجرد دعاء، بل كانت برنامجاً سياسياً طويل الأمد. هذا التوق الدائم إلى استعادة القوة المفقودة، ممزوجاً بالشعور بالظلم التاريخي، خلق مزيجاً نفسياً متفجراً. لقد تعلمت الضحية أن تحلم بيوم تصبح فيه قوية، وأن معاناتها تمنحها الحق في فعل أي شيء لتحقيق هذا الحلم. هنا، في رماد الهيكل الأول، وُلدت الازدواجية التي ستطبع التاريخ اليهودي: ازدواجية الضحية الحالمة بالقوة، والمظلوم الذي يرى في ظلمه مبرراً لظلم الآخرين في المستقبل.

بذور التحول الأولى

لقد استعرض هذا الفصل البدايات التاريخية والفكرية للشعب اليهودي، وكشف عن الجذور العميقة التي مهدت لرحلة التحول الطويلة من ضحية إلى جلاد. يمكن تلخيص هذه البذور في أربع نقاط رئيسية:

الانفصال كاستراتيجية بقاء: منذ اللحظة الأولى، اختار اليهود، أو بالأحرى تم توجيههم، نحو الانفصال عن محيطهم الحضاري والديني. هذا الانفصال، الذي بدأ كخيار ديني، تحول مع الزمن إلى استراتيجية بقاء أساسية في وجه محاولات الصهر والاضطهاد.

التفوق كعقيدة أساسية: إن فكرتي التوحيد الثوري و"الشعب المختار"، رغم عمقهما الروحي، حملتا في طياتهما بذرة الشعور بالتفوق على الآخرين. هذا الشعور، الذي تعزز في فترات الضعف، سيتحول لاحقاً إلى مبرر أيديولوجي للهيمنة.

ذاكرة المجد المفقود: إن التجربة القصيرة مع القوة والمجد في عهد المملكة الموحدة خلقت حلماً دائماً باستعادة هذه القوة. هذه الذاكرة، التي تم تجميلها والمبالغة فيها عبر القرون، أصبحت وقوداً للطموح السياسي الذي لا يهدأ.

استثمار المعاناة: كانت صدمة السبي البابلي هي التجربة الأولى التي تعلم فيها اليهود كيف يحولون الهزيمة إلى فرصة، والضعف إلى قوة. لقد اخترعوا في المنفى "اليهودية المحمولة"،

وتعلموا كيف يستثمرون شعور المظلومية للحفاظ على تماسكهم. وهي استراتيجية سيتقنونها إلى حد الكمال في القرون اللاحقة.

السؤال المحوري الذي يطرح نفسه هو: إذا كان السبي البابلي قد دمر المملكة والهيكل، فكيف استطاع اليهود، وهم قلة قليلة ومنفية، أن يحافظوا على هويتهم وسط إمبراطوريات عظمى؟ وكيف مهدت استراتيجيات البقاء التي طوروها في المنفى الطريق لتحولهم المستقبلي؟

في بابل، بعيداً عن أرضهم، سيضع اليهود أسس استراتيجية بقاء ستستمر لألفي عام. سيتعلمون كيف يكون الكتاب وطناً، وكيف تكون الشريعة حصناً. الفصل التالي سيغوص في تفاصيل هذه الاستراتيجية العبقرية، وكيف أنها، رغم نجاحها في الحفاظ على الهوية، قد عمقت من عزلتهم وزرعت بذور الصدام القادم مع العالم.

مراجع الفصل الأول:

- [1] Johnson, Paul. *A History of the Jews*. Weidenfeld & Nicolson, 1987.
- [2] Schama, Simon. *The Story of the Jews, Volume* 1: *Finding the Words*, 1000 *BCE*-1492 *CE*. Ecco, 2013.
- [3] Whitelam, Keith W. *The Invention of Ancient Israel*: *The Silencing of Palestinian History*. Routledge, 1996.
- [4] Finkelstein, Israel, and Neil Asher Silberman. *The Bible Unearthed*: *Archaeology's New Vision of Ancient Israel and the Origin of Its Sacred Texts*. Free Press, 2001.
- [5] Gottwald, Norman K. *The Tribes of Yahweh*: *A Sociology of the Religion of Liberated Israel*, 1250-1050 *B.C.E.*. Orbis Books, 1979.
- [6] Sand, Shlomo. *The Invention of the Jewish People*. Verso Books, 2009.
- [7] Smith, Mark S. *The Early History of God*: *Yahweh and the Other Deities in Ancient Israel*. Eerdmans, 2002.

- [8] Goodman, Martin. *A History of Judaism*. Princeton University Press, 2018.
- [9] Ravitzky, Aviezer. *Messianism, Zionism, and Jewish Religious Radicalism*. University of Chicago Press, 1996.
- [10] Telushkin, Joseph. *Jewish Literacy*: *The Most Important Things to Know About the Jewish Religion, Its People, and Its History*. William Morrow, 2008.
- [11] Kirsch, Jonathan. *King David*: *The Real Life of the Man Who Ruled Israel*. Ballantine Books, 2000.
- [12] Knoppers, Gary N. *Jews and Samaritans*: *The Origins and History of Their Early Relations*. Oxford University Press, 2013.
- [13] Armstrong, Karen. *A History of God*: *The* 4,000-*Year Quest of Judaism, Christianity and Islam*. Ballantine Books, 1993.

(٢)

بابل - اختراع استراتيجية البقاء

حَبرٌ على ورق البردي يُعيد بناء أمة

على ضفاف نهر خابور، أحد روافد الفرات العظيمة، جلس رجلٌ مُسِنٌّ يدعى حزقيال، والكآبة تعتصر قلبه. كان كاهناً من نسل صادوق، نشأ في ظل الهيكل العظيم في القدس، وكانت حياته كلها تدور حول طقوسه وقرابينه. والآن، لم يبقَ من كل ذلك شيء. الهيكل كومة من الحجارة المحترقة، والقدس خراب، وهو مجرد أسير في أرض غريبة، بين قوم يعبدون آلهة ضخمة من الحجر، ويتكلمون لغة لا يفهمها. كان الشعور بالضياع كاملاً، وبدا أن نهاية شعب يهوذا قد حانت. [1]

لكن في وسط هذا اليأس، بدلاً من النحيب على الأطلال، بدأ حزقيال وغيره من الكهنة والكتبة المنفيين في مشروع ثوري: إعادة بناء الأمة، ليس بالحجارة والطين، بل

بالحبر والذاكرة. في المنفى، بعيداً عن أرض الميعاد، اخترعوا مفهوماً جديداً للبقاء: "الوطن المحمول". إذا كان الهيكل قد دُمر، فستصبح التوراة هي الهيكل الجديد. وإذا كانت الأرض قد ضاعت، فسيصبح الكتاب هو الأرض الجديدة. بدأوا في جمع التقاليد الشفوية، وتدوين قصص الآباء، وتحرير أسفار الأنبياء، وصياغة الشرائع التي ستحكم حياة الشعب في المنفى.

لم تكن هذه مجرد عملية تدوين، بل كانت عملية اختراع وإعادة بناء للهوية. في بابل، تحولت اليهودية من دين مرتبط بمكان مقدس (الهيكل) إلى دين مرتبط بنص مقدس (التوراة). هذا التحول هو الذي سمح لليهود بالحفاظ على هويتهم لآلاف السنين في الشتات. لكنه أيضاً عمّق من عزلتهم، ورسّخ في وعيهم فكرة أنهم شعب مختلف، يعيش بين الأمم ولكن ليس جزءاً منها. هنا، على أنهار بابل، لم تُكتب فصول من التوراة فحسب، بل كُتبت الصفحة الأولى في استراتيجية البقاء التي ستحمل في طياتها بذور القوة المستقبلية، وبذور الصدام الحتمي مع العالم.

السبي كنعمة

للوهلة الأولى، بدا السبي البابلي كارثة ونهاية تاريخ شعب يهوذا. لقد فقدوا كل رموز سيادتهم: الأرض، الملك، العاصمة، والهيكل. تم اقتلاع النخبة السياسية والدينية والفكرية من جذورها وزرعها في قلب الإمبراطورية البابلية الجبارة. كان من المتوقع أن يذوب هؤلاء المنفيون في بحر الثقافة البابلية الغنية والمتطورة، كما ذابت قبلهم القبائل العشر لمملكة إسرائيل في الإمبراطورية الآشورية. لكن ما حدث كان العكس تماماً. تحولت هذه الكارثة إلى ما يمكن تسميته "نعمة مقنعة" بالنسبة لهم، حيث تعلم اليهود في المنفى دروساً أساسية في فن البقاء، وهي دروس لم يكن من الممكن تعلمها في ظل السيادة والقوة.

أ. صدمة المنفى والبحث عن إجابات

كان السؤال الأول الذي واجه المنفيين سؤالاً لاهوتياً عميقاً: كيف سمح "يهوه" الإله، بهذه الهزيمة المذلة؟ هل هو أضعف من آلهة البابليين؟ أم أنه تخلى عن شعبه؟ كانت الإجابة التي توصل إليها الكهنة في المنفى، مثل حزقيال وإشعياء الثاني، غير متوقعة. لقد أكدوا أن السبي لم يكن علامة على ضعف "يهوه"، بل على العكس، كان دليلاً على

قوته وعدالته. لقد استخدم الإمبراطورية البابلية كأداة لتأديب شعبه على خطاياه، وخاصة عبادة الأصنام والظلم الاجتماعي. [2]

هذا التفسير اللاهوتي كان له أثر نفسي عميق. لقد حوّل الهزيمة من إذلال خارجي إلى تجربة داخلية ذات معنى. لم يعودوا ضحايا لبطش إمبراطورية، بل أصبحوا شركاء في خطة إلهية كبرى. هذا الشعور بأن معاناتهم لها هدف ومعنى هو الذي منحهم القوة النفسية لتحمل قسوة المنفى، وحماهم من اليأس والانهيار. لقد تعلموا الدرس الأول في استراتيجية البقاء: إعادة تأطير الكارثة لتصبح جزءاً من سردية أكبر تمنحها المعنى.

ب. من دين الهيكل إلى دين الكتّاب

كان التحدي الأكبر الذي واجه المنفيين هو كيفية ممارسة دينهم دون وجود الهيكل، الذي كان محور العبادة اليهودية لقرون. كانت القرابين والطقوس الكهنوتية مستحيلة في أرض غريبة. هنا حدث التحول الجذري الثاني: الانتقال من دين يعتمد على المكان (الهيكل) إلى دين يعتمد على النص (التوراة). بدأ الكهنة والكتبة في جمع وتحرير

وتدوين التقاليد الدينية والقانونية والتاريخية للشعب. أصبحت دراسة النصوص المقدسة والصلوات الجماعية بديلاً عن تقديم القرابين. [3]

في هذا السياق، ظهرت مؤسسة جديدة ستلعب دوراً محورياً في التاريخ اليهودي: المجمع (Synagogue). كان المجمع في البداية مجرد مكان للاجتماع والقراءة المشتركة للنصوص، لكنه تطور ليصبح مركز الحياة الدينية والاجتماعية للجالية اليهودية في الشتات. على عكس الهيكل الذي كان فريداً ومركزياً، يمكن بناء مجامع في أي مكان في العالم. لقد تم "دمقرطة" العبادة، ولم تعد حكراً على طبقة الكهنة في القدس. هذه "اليهودية المحمولة"، التي يمكن ممارستها في أي زمان ومكان، هي التي ضمنت بقاء اليهودية كديانة.

ج. تعلم فن الحياة كأقلية

في بابل، اضطر اليهود لأول مرة إلى تعلم كيفية العيش كأقلية صغيرة داخل إمبراطورية ضخمة. لم يكن لديهم جيش أو شرطة أو سلطة سياسية. كانت أسلحتهم الوحيدة هي ذكاؤهم وتماسكهم الاجتماعي وقدرتهم على التكيف. سمح لهم البابليون بالعيش في مجتمعات خاصة بهم، وممارسة شعائرهم، وإدارة شؤونهم الداخلية. وقد نجح الكثير

منهم في الاندماج في الحياة الاقتصادية البابلية، وعملوا في التجارة والزراعة وحتى في الإدارة الإمبراطورية، مع الحفاظ في الوقت نفسه على هويتهم الدينية والثقافية المنفصلة. [4]

هذا النموذج من "الاندماج دون الذوبان" سيصبح هو النموذج المعتمد للجاليات اليهودية في الشتات لآلاف السنين. لقد أتقنوا فن الموازنة الصعبة بين الانفتاح على المجتمع المضيف للاستفادة من فرصه الاقتصادية، والانغلاق على الذات للحفاظ على الهوية. تعلموا كيف يكونون "مواطنين" في بلاد إقامتهم، و"أعضاء" في أمة يهودية عالمية في الوقت نفسه. هذه الازدواجية، التي كانت ضرورية للبقاء، ستكون أيضاً مصدراً دائماً للشك والريبة من قبل المجتمعات المضيفة، وستغذي الاتهامات بـ"الولاء المزدوج" التي ستلاحقهم عبر التاريخ.

تطوير الشريعة الشفوية

إذا كان تدوين التوراة المكتوبة هو الأساس الذي بنيت عليه الهوية اليهودية في المنفى، فإن تطوير الشريعة الشفوية (التي ستُعرف لاحقاً بالتلمود) كان بمثابة السياج الذي حمى هذه الهوية من أي اختراق. أدرك القادة الدينيون في بابل أن نصوص التوراة، رغم

أهميتها، كانت عامة في كثير من الأحيان، وتحتاج إلى تفسير وتفصيل لتكون قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان. من هنا، بدأت عملية ضخمة من التفسير والاجتهاد الفقهي، استمرت لقرون، وهدفت إلى جعل الشريعة نظام حياة شاملاً يحيط باليهودي من كل جانب.

أ. من النص المكتوب إلى القانون الحي

كان الحاخامات والكتبة في بابل، ومن بعدهم في فلسطين، يواجهون تحدياً كبيراً: كيف يمكن تطبيق وصايا التوراة، التي نزلت في سياق مجتمع زراعي قديم، على واقع الحياة المتغير في الشتات؟ على سبيل المثال، تقول التوراة "اذكر يوم السبت لتقدسه"، لكنها لا تحدد ما هو العمل الممنوع في يوم السبت. هنا جاء دور الشريعة الشفوية لتضع قوائم مفصلة ودقيقة بكل الأعمال الممنوعة، من إشعال النار إلى الكتابة، ومن الزراعة إلى البناء. [5]

هذه العملية من التفسير لم تكن مجرد اجتهاد فقهي، بل كانت تحمل رؤية أيديولوجية واضحة: بناء جدار من القوانين والتفاصيل الدقيقة يفصل بين اليهود وغيرهم. كلما زادت

القوانين التي تميز حياة اليهودي اليومية، قلّت فرصته للاختلاط بغيره والذوبان في ثقافته. أصبحت الشريعة الشفوية بمثابة "علامة تجارية" تميز اليهودي عن جاره، وتذكره في كل لحظة بهويته الخاصة. من قوانين الطعام (الكوشر) التي تمنعه من مشاركة الآخرين في موائدهم، إلى قوانين الطهارة التي تنظم أدق تفاصيل حياته الشخصية، أصبحت الهوية اليهودية تُبنى وتُعزز من خلال الممارسة اليومية للشريعة.

ب. التلمود: محيط من النقاشات

بلغت عملية تطوير الشريعة الشفوية ذروتها في تدوين التلمود، وهو عمل موسوعي ضخم يُعتبر النص المركزي الثاني في اليهودية بعد التوراة. التلمود ليس مجرد كتاب قوانين، بل هو سجل هائل لآلاف النقاشات الفقهية والقانونية والأخلاقية التي دارت بين الحاخامات على مدى سبعة قرون (من 200 ق.م إلى 500 م). وهو يتكون من جزأين رئيسيين: المشنا (نص القوانين الأساسي الذي دُوّن حوالي عام 200 م)، والجمارا (وهي شروحات ونقاشات مطولة حول المشنا). [6]

إن بنية التلمود، التي تقوم على عرض الآراء المختلفة والمتناقضة جنباً إلى جنب دون حسم نهائي في كثير من الأحيان، قد شكلت العقلية اليهودية بشكل عميق. لقد علّمت اليهود فن الجدل، وتقديس النقاش، والبحث عن المعاني المتعددة في النص الواحد. أصبح "دراسة التلمود" هو النشاط الفكري الأسمى في اليهودية، وهو تدريب عقلي صارم على التحليل المنطقي والاستدلال القانوني. هذه المهارات الفكرية، التي صُقلت عبر قرون من دراسة التلمود، ستمنح اليهود تفوقاً في مجالات معينة مثل التجارة والمال والقانون والطب في العصور اللاحقة.

لكن هذا الانغماس في دراسة الشريعة كان له جانب سلبي أيضاً. لقد خلق عالماً فكرياً مغلقاً على ذاته، يركز على التفاصيل الدقيقة للقانون الديني، ويهمل في كثير من الأحيان العلوم والفنون والفلسفات الأخرى. أصبح "العالم" الحقيقي هو عالم النص، وأصبحت المشاكل الحقيقية هي المشاكل الفقهية. هذا الانفصال عن العالم الخارجي، رغم أنه ساهم في الحفاظ على الهوية، إلا أنه عمّق من الشعور بالغربة والعزلة، وجعل اليهود يبدون كجماعة غامضة ومنغلقة في عيون جيرانهم، مما أدى إلى سوء الفهم والعداء المتبادل.

بناء الهوية المتنقلة والعودة الجزئية

إن أعظم إنجاز فكري لليهودية في فترة السبي لم يكن مجرد تدوين القوانين، بل كان اختراع مفهوم ثوري: الهوية المتنقلة أو الوطن المحمول. في عالم كانت فيه هوية كل شعب مرتبطة بأرضه وآلهته المحلية، نجح اليهود في بناء هوية يمكن حملها في العقل والقلب، هوية لا تحتاج إلى جغرافيا لتبقى على قيد الحياة. لكن هذه الهوية المتنقلة كانت دائماً مرتبطة بحلم العودة إلى الوطن الجغرافي، وهو حلم سيتحقق جزئياً، وبشكل إشكالي، بعد نهاية السبي البابلي.

أ. الكتاب كوطن بديل

كما رأينا، أصبح الكتاب المقدس (التوراة) هو المركز الجديد للهوية اليهودية. لم يعد الله يسكن في مبنى من حجر في القدس، بل أصبح "يسكن" في كلمات الكتاب. أينما وُجدت نسخة من التوراة، وأينما اجتمع عشرة رجال لدراستها (وهو النصاب القانوني لصلاة الجماعة)، فهناك "شعب إسرائيل". هذا المفهوم حرر اليهودية من قيود المكان، وجعلها ديانة قادرة على البقاء والازدهار في أي بقعة من بقاع الأرض. [7]

أصبحت العلاقة مع النص هي جوهر الانتماء. فاليهودي ليس بالضرورة من يسكن في أرض يهوذا، بل هو من يدرس التوراة ويلتزم بشريعتها. هذا التحول خلق "أمة من العلماء"، حيث أصبحت المكانة الاجتماعية لا تعتمد على الثروة أو النسب بقدر ما تعتمد على المعرفة بالنصوص الدينية. أصبح الحاخام، أو "العالم بالتوراة"، هو الشخصية الأكثر احتراماً في المجتمع، وحل محل الكاهن والملك كقائد للجالية. هذه السلطة المعرفية، التي لا تحتاج إلى قوة عسكرية أو سياسية، كانت السلاح السري الذي مكن اليهود من قيادة مجتمعاتهم والحفاظ على تماسكها في أصعب الظروف.

ب. العودة الأولى: حلم يتحقق جزئياً

بعد حوالي سبعين عاماً من السبي، حدث تحول سياسي كبير في المنطقة. فقد تمكن الإمبراطور الفارسي كورش الكبير من هزيمة الإمبراطورية البابلية عام 539 ق.م. وفي خطوة سياسية ذكية، أصدر كورش إعلانه الشهير (المسجل في أسطوانة كورش)، الذي سمح فيه للشعوب التي سباها البابليون بالعودة إلى أوطانها وإعادة بناء معابدها. كان هذا الإعلان بمثابة تحقيق مفاجئ وغير متوقع لحلم العودة الذي راود المنفيين اليهود لعقود. [8]

لكن الواقع كان أكثر تعقيداً من الحلم. فالغالبية العظمى من اليهود الذين ولدوا ونشأوا في بابل، والذين كانوا قد أسسوا حياة مستقرة ومزدهرة، لم يرغبوا في العودة. لقد أصبحت بابل وطنهم، وكانت فكرة العودة إلى أرض يهوذا الفقيرة والمدمرة تبدو مغامرة غير محسوبة. فقط أقلية صغيرة، مدفوعة بالحماس الديني، هي التي استجابت للنداء وعادت إلى القدس.

عندما وصل العائدون، وجدوا واقعاً صادماً. فالأرض لم تكن فارغة في انتظارهم، بل كانت مسكونة بأقوام أخرى، بما في ذلك بقايا اليهود الذين لم يتم سبيهم، والذين كانوا قد اختلطوا بالشعوب المجاورة. نشأ صراع فوري بين العائدين، الذين كانوا يحملون رؤية نقائية ومتشددة لليهودية، والسكان المحليين، الذين كانوا يرون في هؤلاء القادمين الجدد تهديداً لمصالحهم. تمكن العائدون، بدعم من الإمبراطورية الفارسية، من إعادة بناء الهيكل الثاني حوالي عام 516 ق.م، لكنه كان هيكلاً متواضعاً لا يقارن بعظمة هيكل سليمان. [9]

جاءت الموجة الثانية من الإصلاحات على يد عزرا الكاتب ونحميا الحاكم في منتصف القرن الخامس ق.م. كان عزرا فقيهاً متشدداً، صُدم بحالة التراخي الديني والاختلاط بالشعوب الأخرى التي وجدها في القدس. فقام بفرض تطبيق صارم للشريعة، وأجبر الرجال اليهود على تطليق زوجاتهم الأجنبيات (غير اليهوديات) وطرد أبنائهم منهن، في خطوة عنصرية تهدف إلى "تنقية النسل المقدس". [10] بينما قام نحميا بإعادة بناء أسوار القدس، ليس فقط لحمايتها عسكرياً، بل لخلق فصل مادي واضح بين الجالية اليهودية "النقية" والشعوب المحيطة بها. لقد كانت العودة الأولى بمثابة إعادة تأسيس للهوية على أساس من الانغلاق والنقاء العرقي، وهو ما سيزرع بذور الصراع المستقبلي مع "الآخر".

استثمار الضعف كاستراتيجية طويلة المدى

تُعتبر تجربة السبي البابلي بمثابة مختبر نفسي وسياسي تشكلت فيه ملامح استراتيجية البقاء اليهودية طويلة المدى. في هذا المختبر، تم تحويل الضعف العسكري والسياسي إلى مصدر قوة ثقافية واجتماعية. لقد كانت استراتيجية عبقرية للتكيف، لكنها حملت في طياتها

بذور الانعزال والصدام المستقبلي. يمكن تحليل هذه الاستراتيجية من خلال ثلاثة مفاهيم رئيسية:

المركزية المحمولة (Portable Centrality): قبل السبي، كانت مركزية الهوية اليهودية مادية ومكانية (الهيكل في القدس). لكن في المنفى، تم اختراع مركزية جديدة، رمزية وغير مكانية: النص المقدس. أصبحت التوراة هي "المركز المحمول" الذي يدور حوله الشعب أينما ذهب. هذا التحول منح اليهود مرونة هائلة وقدرة على التكيف، لكنه في الوقت نفسه خلق جداراً غير مرئي بينهم وبين الثقافات الأخرى. فبينما كانت ثقافات العالم القديم منفتحة على تبادل الآلهة والأفكار، أصبحت الثقافة اليهودية تتمحور حول نص مغلق، لا يمكن الدخول إلى عالمه إلا من خلال تعلم لغته وقوانينه المعقدة. هذا الانغلاق النصي هو الذي حمى الهوية، ولكنه أيضاً رسخ صورة اليهودي كـ"آخر".

النخبوية المعرفية (Intellectual Elitism): مع تحول الهوية من الانتماء للأرض إلى الانتماء للنص، تغيرت معايير النخبة في المجتمع. لم يعد المحارب أو مالك الأرض هو الشخص الأكثر أهمية، بل أصبح الحاخام العالم بالنص هو القائد الحقيقي. هذه

"النخبوية المعرفية" منحت اليهود أداة قوية للبقاء، وهي السلطة التي لا يمكن لأي إمبراطورية أن تسلبها منهم. لكنها أيضاً خلقت شعوراً بالتفوق الفكري على "الأغيار" (Goyim) الذين لا يملكون "حكمة التوراة". هذا الشعور بالتفوق الفكري، ممزوجاً بفكرة "الشعب المختار"، سيتحول لاحقاً إلى أحد مكونات الأيديولوجية الصهيونية التي ترى في اليهود شعباً متفوقاً حضارياً، له الحق في السيطرة على شعوب "أقل تحضراً".

الانفصالية كآلية دفاع (Separatism as a Defense Mechanism): كانت إصلاحات عزرا ونحميا، التي فرضت الانفصال التام عن الشعوب الأخرى ومنعت الزواج المختلط، بمثابة رد فعل صادم على خطر الذوبان. لقد كانت آلية دفاع نفسية لجماعة تشعر بالتهديد الوجودي. لكن هذه الآلية الدفاعية تحولت مع الزمن إلى جزء أساسي من الهوية. أصبح الحفاظ على "نقاء الدم" و"قدسية النسل" هاجساً مركزياً. هذا الهاجس، الذي ولد من رحم الضعف والخوف، سيُستخدم في عصر القوة لتبرير سياسات الفصل العنصري والتمييز ضد غير اليهود في دولة إسرائيل. إن الجدران التي بناها نحميا حول القدس لم تكن مجرد حجارة، بل كانت رمزاً لبناء جدران نفسية واجتماعية ستستمر لآلاف السنين.

باختصار، في بابل، تعلمت الضحية كيف تستثمر ضعفها. تعلمت كيف تبني حصوناً من الكلمات والقوانين بدلاً من الحجارة. لكن هذه الحصون، التي حمتها من العالم الخارجي، سجنتها أيضاً في عزلة نفسية، وخلقت لديها قناعة راسخة بأن البقاء لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال الانفصال والتفوق على الآخر. وهي القناعة التي ستمهد الطريق لتحولها من ضحية منعزلة وإلى جلاد منعزل.

اختراع أمة محمولة

لقد كانت تجربة السبي البابلي بمثابة ولادة جديدة للشعب اليهودي، ولادة تمت في خضم الألم والفقدان. في هذه الفترة المهمة، تم تطوير استراتيجية بقاء عبقرية، حولت الهزيمة الساحقة إلى فرصة لإعادة بناء الهوية على أسس أكثر صلابة ومرونة. يمكن تلخيص إنجازات هذه الفترة في النقاط التالية:

تحويل الكارثة إلى معنى: من خلال تفسير السبي على أنه تأديب إلهي وليس هزيمة، تمكن اليهود من الحفاظ على إيمانهم وإحساسهم بالغاية، وحولوا أنفسهم من ضحايا سلبيين إلى شركاء في خطة إلهية.

اختراع الوطن المحمول: بالانتقال من عبادة مرتبطة بالمكان (الهيكل) إلى عبادة مرتبطة بالنص (التوراة)، تم تحرير اليهودية من قيود الجغرافيا، وتأسيس "وطن محمول" يمكن أن يوجد في أي مكان في العالم.

بناء سياج من القوانين: كان تطوير الشريعة الشفوية (التلمود) بمثابة بناء سياج من الممارسات اليومية التي عززت الهوية المنفصلة وحمتها من الذوبان في الثقافات المحيطة.

تأسيس الانفصالية كعقيدة: مع العودة الجزئية إلى القدس، تم ترسيخ مبدأ النقاء العرقي والديني، ورفض الاختلاط بالشعوب الأخرى، كآلية دفاعية أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الهوية اليهودية.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: كيف أثرت استراتيجية البقاء هذه، التي تم تطويرها في المنفى، على علاقة اليهود بالعالم على المدى الطويل؟ وهل كانت هذه الاستراتيجية، التي ضمنت بقاءهم، هي نفسها التي زرعت بذور الصدام المستقبلي؟

بعد العودة الجزئية، بقيت غالبية اليهود في الشتات، منتشرين في جميع أنحاء الإمبراطوريات الفارسية واليونانية والرومانية. الفصل التالي، "الشتات الطويل"، سيستكشف كيف أتقن اليهود فن البقاء كأقلية عالمية، وكيف بنوا شبكات اقتصادية واجتماعية عابرة للحدود، محولين الشتات من محنة إلى مصدر قوة خفية، ومهيئين المسرح لعودتهم النهائية، ليس كضحايا، بل كقوة منظمة تطالب بحقها في الهيمنة.

مراجع الفصل الثاني:

- [1] Smith-Christopher, Daniel L. *A Biblical Theology of Exile*. Fortress Press, 2002.
- [2] Boadt, Lawrence. *Reading the Old Testament: An Introduction*. Paulist Press, 1984.
- [3] Levenson, Jon D. *Theology of the Program of Restoration of Ezekiel* 40-48. Scholars Press, 1976.
- [4] Moore, Megan Bishop, and Brad E. Kelle. *Biblical History and Israel's Past: The Changing Study of the Bible and the Ancient Near East*. Eerdmans, 2011.
- [5] Neusner, Jacob. *The Talmud: A Close-Up*. Koren Publishers, 2013.
- [6] Steinsaltz, Adin. *The Essential Talmud*. Basic Books, 2006.
- [7] Carr, David M. *The Formation of the Hebrew Bible: A New Reconstruction*. Oxford University Press, 2011.

- [8] Grabbe, Lester L. *A History of the Jews and Judaism in the Second Temple Period, Volume* 1: *Yehud*: *A History of the Persian Province of Judah*. T&T Clark, 2004.
- [9] Berquist, Jon L. *Judaism in Persia's Shadow*: *A Social and Historical Approach*. Fortress Press, 1995.
- [10] Eskenazi, Tamara Cohn. *In an Age of Prose*: *A Literary Approach to Ezra-Nehemiah*. Scholars Press, 1988.

(٣)

الشتات الطويل - إتقان فن البقاء

تاجر يهودي على طريق الحرير

في عام 750 ميلادية، في سوق سمرقند الصاخب، حيث تمتزج روائح التوابل الهندية بالحرير الصيني، جلس رجلٌ ملتحٍ يدعى إسحاق بن بنيامين في متجره الصغير. كان يتحدث الفارسية مع التجار المحليين، واليونانية مع المشترين البيزنطيين، ويكتب حساباته بلغة غريبة، بأحرف عبرية قديمة. لم يكن إسحاق مجرد تاجر، بل كان حلقة في شبكة عالمية غير مرئية، شبكة من التجار اليهود تمتد من قرطبة في الأندلس غرباً إلى كايفنغ في الصين شرقاً. كانوا يتبادلون البضائع، ولكن الأهم من ذلك، كانوا يتبادلون المعلومات والرسائل والأموال، ويدعمون بعضهم البعض في عالم معادٍ في كثير من الأحيان. [1]

لم يكن لدى إسحاق وطن سياسي، ولم يكن يدين بالولاء لأي ملك أو إمبراطور. كان وطنه هو "الأمة اليهودية" المشتتة، وكانت حكومته هي شبكة الحاخامات التي كانت تصدر فتاواها من بغداد، وكانت عاصمته الروحية هي القدس التي لم يرها قط. كان مثالاً حياً على الاستراتيجية التي أتقنها اليهود على مدى ألفي عام من الشتات: تحويل الضعف إلى قوة، والمحنة إلى فرصة. لقد حولوا الشتات، الذي كان في الأصل عقاباً، إلى شبكة عالمية منحتهم مرونة وقوة اقتصادية لا مثيل لها.

هذه الصورة للتاجر اليهودي العالمي، الذي يشعر بالراحة في كل مكان ولا ينتمي إلى أي مكان، هي التي ستشكل الصورة النمطية لليهودي في العصور الوسطى. صورة ستثير الإعجاب والحسد، ولكنها ستثير أيضاً الشك والعداء. ففي نظر جيرانه، كان إسحاق "آخر" غامضاً، جزءاً من مؤامرة عالمية، ولائه ليس للبلد الذي يعيش فيه، بل لأبناء دينه المنتشرين في أصقاع الأرض. هنا، في قلب طريق الحرير، كان اليهود يتقنون فن البقاء، لكنهم كانوا أيضاً يزرعون بذور سوء الفهم الذي سيطاردهم لقرون، ويمهد الطريق لدورات جديدة من الاضطهاد، ولحلم أكثر إلحاحاً بالعودة إلى وطن خاص بهم، وطن لا يكونون فيه مجرد ضيوف، مهما كانوا أثرياء.

من يهودية الهيكل إلى يهودية الشتات

بعد تدمير الهيكل الثاني على يد الرومان عام 70 ميلادية، واجه الشعب اليهودي أكبر كارثة في تاريخه منذ السبي البابلي. لكن هذه المرة، كانت الصدمة أعمق. فالهيكل الثاني، الذي استمر لستة قرون، كان قد أصبح مرة أخرى المركز المطلق للحياة اليهودية. وتدميره لم يكن مجرد خسارة لمبنى، بل كان انهياراً لكون ديني واجتماعي وسياسي بأكمله. لقد انتهت دولة يهوذا بشكل كامل، وبدأ "الشتات الطويل" الذي سيستمر لألفي عام. في مواجهة هذا الفراغ، كان على اليهودية أن تعيد اختراع نفسها مرة أخرى، لتتأقلم مع واقع جديد لا دولة فيه ولا هيكل.

أ. ثورة الحاخامات: من الكاهن إلى الفقيه

في خضم الفوضى التي أعقبت تدمير الهيكل، ظهرت مجموعة من القادة الدينيين الذين أنقذوا اليهودية من الانهيار: الحاخامات. على عكس الكهنة الذين كانت سلطتهم مرتبطة بالهيكل والنسب، كانت سلطة الحاخامات مستمدة من معرفتهم بالشريعة وقدرتهم على تفسيرها. كان أشهر هؤلاء القادة هو الحاخام يوحنان بن زكاي، الذي تقول الرواية إنه

هرب من القدس المحاصرة في نعش، وتفاوض مع القائد الروماني فسبازيان ليسمح له بإنشاء أكاديمية دينية في بلدة يفنه (يامنيا). [2]

في يفنه، قاد ابن زكاي وزملاؤه ثورة هادئة ولكنها جذرية. لقد أعلنوا أن دراسة التوراة والصلاة أهم عند الله من تقديم القرابين. وبهذا، تم فصل اليهودية بشكل نهائي عن أي مكان مادي محدد. لم تعد القداسة محصورة في الهيكل، بل أصبحت موجودة في كل مكان يجتمع فيه اليهود لدراسة الشريعة. تم استبدال الكاهن الذي يقدم القرابين بالحاخام الذي يفسر القانون، والمذبح الذي تراق عليه الدماء بالمائدة التي تدرس عليها التوراة. لقد كانت هذه هي الولادة الحقيقية لـ"اليهودية الحاخامية"، وهي الشكل من اليهودية الذي سيسود حتى يومنا هذا. [3]

ب. التلمود كدستور عالمي

كانت الأداة الرئيسية التي استخدمها الحاخامات لإعادة بناء الأمة هي التلمود. فبعد تدوين المشنا (القانون الشفوي الأساسي) حوالي عام 200 م، استمرت النقاشات والتفسيرات حولها لثلاثة قرون أخرى في أكاديميات فلسطين وبابل. هذه النقاشات

الطويلة تم تدوينها في ما يعرف بـ"الجمارا". والمشنا مع الجمارا تشكلان معاً التلمود. هناك نسختان من التلمود: التلمود الفلسطيني (الأقصر والأقل تأثيراً)، والتلمود البابلي، الذي تم الانتهاء منه حوالي عام 500 م، وأصبح هو المرجع الأعلى للشريعة اليهودية في جميع أنحاء العالم. [4]

أصبح التلمود البابلي بمثابة "دستور" للأمة اليهودية المشتتة. فمن خلال شبكة من الحاخامات والمحاكم الشرعية، كان التلمود ينظم كل جوانب حياة اليهود، من الزواج والطلاق إلى التجارة والعقود. لقد خلق نظاماً قانونياً موحداً يربط بين جالية يهودية في اليمن وأخرى في إسبانيا. هذه السلطة القانونية المركزية، التي كانت تتخذ من أكاديميات بابل مقراً لها، منحت اليهود شعوراً بالوحدة والانتماء إلى كيان واحد، رغم تشتتهم الجغرافي. لقد كانوا "أمة" تحكمها القوانين، وليس الملوك أو الجيوش.

ج. التكيف مع الإسلام والمسيحية

خلال الشتات الطويل، عاش اليهود كأقلية تحت حكم إمبراطوريتين عالميتين انبثقتا من رحم التوحيد الإبراهيمي: المسيحية والإسلام. وكانت تجربتهم مختلفة تماماً في كل

منهما. في العالم المسيحي، كان اليهود يُعتبرون "قتلة المسيح"، الشعب الذي رفض الاعتراف بابن الله. لذلك، كانوا يعانون من تمييز لاهوتي وقانوني واجتماعي. ورغم أنهم كانوا يُمنحون الحماية في كثير من الأحيان (لأن بقاءهم كجماعة ذليلة كان يُعتبر دليلاً على صحة المسيحية)، إلا أنهم كانوا دائماً عرضة للاضطهاد والمذابح، خاصة خلال فترات الحماس الديني مثل الحروب الصليبية. [5]

أما في العالم الإسلامي، فكان وضعهم أفضل بكثير. فالإسلام، الذي يعترف باليهودية كديانة سماوية سابقة، منح اليهود وضع "أهل الذمة". كانوا يدفعون ضريبة (الجزية) مقابل الحماية، وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي ديني وقانوني واسع. ازدهرت الجاليات اليهودية في بغداد والقاهرة وقرطبة، وشارك اليهود بفعالية في الحياة الاقتصادية والثقافية والعلمية للحضارة الإسلامية. برز فلاسفة يهود كبار مثل موسى بن ميمون، الذي كتب أعظم أعماله باللغة العربية. هذه الفترة، التي تُعرف بـ"العصر الذهبي" لليهود في إسبانيا، ستبقى في الذاكرة اليهودية كنموذج للتعايش المثمر. [6]

لكن حتى في أفضل الظروف تحت الحكم الإسلامي، ظل اليهود مواطنين من الدرجة الثانية. كانوا دائماً "أقلية" تعيش تحت رحمة الحاكم. هذا الوضع، الذي استمر لقرون، رسخ في وعيهم قناعة بأن لا أمان حقيقياً إلا في دولة خاصة بهم. لقد أتقنوا فن البقاء كأقلية، لكنهم لم يتخلوا أبداً عن حلم إنهاء هذا الوضع والعودة إلى السيادة.

تحويل الشتات إلى ميزة استراتيجية

النظرة السائدة إلى الشتات اليهودي هي أنه كان محنة وعقاباً. وهذا صحيح إلى حد كبير. لكن ما يتم إغفاله غالباً هو أن اليهود، بعبقرية مذهلة، نجحوا في تحويل هذا الشتات إلى ميزة استراتيجية، وبنوا أول شبكة عالمية (Global Network) حقيقية في التاريخ، قبل قرون من ظهور العولمة الحديثة. هذه الشبكة، التي كانت تعتمد على الثقة المتبادلة والهوية المشتركة، منحتهم تفوقاً اقتصادياً ومعلوماتياً هائلاً.

أ. التجار الرذنية: رواد العولمة الأوائل

في العصور الوسطى المبكرة (من القرن السابع إلى القرن العاشر)، ظهرت مجموعة غامضة من التجار اليهود يُعرفون في المصادر العربية بـ"الرذنية" (Radhanites). هؤلاء التجار سيطروا على طرق التجارة الرئيسية بين أوروبا والعالم الإسلامي والشرق الأقصى. كانوا

يسافرون من فرنسا وإسبانيا إلى بلاد فارس والهند والصين، حاملين معهم العبيد والسيوف والفراء من أوروبا، ويعودون محملين بالتوابل والحرير والكافور من الشرق. [7]

ما الذي مكن هؤلاء التجار من بناء مثل هذه الشبكة الواسعة؟ كانت هناك عدة عوامل. أولاً، كانوا يتحدثون لغات متعددة (العربية، الفارسية، اليونانية، السلافية، واللغات الأوروبية)، مما سمح لهم بالتعامل مع مختلف الشعوب. ثانياً، كانت جالياتهم اليهودية منتشرة على طول طرق التجارة، مما وفر لهم شبكة من الوكلاء والمضيفين والممولين الموثوقين. فالتاجر اليهودي الذي يصل إلى مدينة غريبة كان يعرف أنه سيجد الدعم من أبناء دينه. ثالثاً، طوروا أدوات مالية متطورة، مثل "خطاب الاعتماد" (Suftaja)، الذي كان يسمح للتاجر بإيداع أمواله في بغداد والحصول على ما يعادلها في القاهرة، دون الحاجة إلى نقل الذهب والفضة عبر طرق خطرة. لقد كانت هذه بمثابة النسخة الأولى من "الشيكات السياحية".

ب. المعلومات كقوة

لم تكن شبكة الشتات مجرد شبكة تجارية، بل كانت أيضاً شبكة معلوماتية فعالة. فالرسائل كانت تنتقل مع التجار والقوافل، حاملة أخباراً عن الأسواق والأسعار، ولكن أيضاً عن الأوضاع السياسية والاضطهادات والفرص الجديدة. كانت الجاليات اليهودية على علم بما يحدث لإخوانهم في أقاصي الأرض. هذه المعرفة سمحت لهم باتخاذ قرارات اقتصادية وسياسية أفضل، ومساعدة بعضهم البعض في أوقات الأزمات. على سبيل المثال، عندما كانت تحدث مذبحة ضد اليهود في إحدى مدن وادي الراين، كانت الجاليات في إسبانيا أو مصر تجمع الأموال لإغاثة الضحايا أو فداء الأسرى. [8]

هذه الشبكة العالمية، القائمة على هوية دينية مشتركة وثقة متبادلة، كانت سلاحاً قوياً في عالم مجزأ سياسياً. لقد منحت اليهود، الذين كانوا بلا دولة وبلا جيش، نوعاً جديداً من القوة: القوة الناعمة Soft Power . كانت قوة اقتصادية ومعلوماتية، وليست عسكرية. لكن هذه القوة نفسها كانت مصدراً للريبة والعداء. ففي نظر الملوك الأوروبيين، كان هؤلاء التجار العالميون يمثلون قوة مستقلة لا تخضع لسيطرتهم الكاملة. وفي نظر عامة

الناس، كانوا يبدون كجماعة سرية ذات ولاءات غامضة، مما غذى نظريات المؤامرة التي ستنفجر لاحقاً في شكل "بروتوكولات حكماء صهيون".

ج. التخصص في "المهن الوسيطة"

بسبب القيود التي فُرضت عليهم في كثير من البلدان، وخاصة في أوروبا المسيحية (حيث مُنعوا من امتلاك الأراضي أو الانضمام إلى نقابات الحرفيين)، تخصص اليهود في مهن معينة كانت تعتبر "هامشية" أو "غير مرغوبة". كانت أبرز هذه المهن هي إقراض المال بفائدة (الربا). فبينما كانت الكنيسة المسيحية تحرم على أتباعها إقراض المال بفائدة، كان اليهود، كغير مسيحيين، يُسمح لهم (أو يُجبرون على) ممارسة هذه المهنة. [9]

هذا التخصص في التمويل، الذي بدأ كضرورة، تحول مع الزمن إلى مصدر قوة اقتصادية هائلة. أصبح الملوك والأمراء والنبلاء يعتمدون على المقرضين اليهود لتمويل حروبهم ومشاريعهم. وقد منح هذا بعض اليهود (ما يعرف بـ"يهود البلاط") نفوذاً سياسياً كبيراً، لكنه كان نفوذاً هشاً ومحفوفاً بالمخاطر. فغالباً ما كان الملوك، عندما تتراكم ديونهم، يلجؤون إلى أسهل الحلول: طرد اليهود ومصادرة ممتلكاتهم، أو إثارة غضب الجماهير

ضدهم. لقد أصبح اليهودي مرتبطاً في الوعي الشعبي الأوروبي بصورة "المرابي الجشع" الذي يمتص دماء الناس، وهي صورة نمطية ستستخدم لتبرير أبشع أنواع الاضطهاد.

بالإضافة إلى التمويل، تخصص اليهود أيضاً في الطب، حيث كانت معرفتهم باللغات (خاصة العربية التي كانت لغة العلم في ذلك الوقت) تمنحهم ميزة كبيرة. لقد أتقنوا فنون البقاء من خلال التخصص في المهن التي يحتاجها المجتمع المضيف، ولكنها في الوقت نفسه تبقيهم في وضع "الوسيط" أو "الأجنبي المفيد". كانوا داخل المجتمع وخارجه في آن واحد. هذا الوضع المزدوج كان سر نجاحهم، ولكنه كان أيضاً سبب مأساتهم الدائمة.

الانغلاق كآلية دفاع

في مواجهة عالم معادٍ ومتغير، لم تكن الشبكات العالمية والبراعة الاقتصادية كافية وحدها لضمان بقاء اليهود. كان لا بد من بناء حصون داخلية، أسوار نفسية واجتماعية تحمي الهوية من الذوبان، وتوفر ملاذاً آمناً في أوقات الخطر. هذه الحصون تمثلت في نظام اجتماعي صارم، وانغلاق ثقافي متعمد، وفي النهاية، في جدران مادية حقيقية: الغيتو.

لقد كانت استراتيجية دفاعية ضرورية، لكنها عمقت من عزلة اليهود، وخلقت عالماً خاصاً بهم، له قوانينه ولغته وثقافته المنفصلة.

أ. المجتمع المنظم ذاتياً (Kehilla)

في كل مدينة وقرية عاشوا فيها، نظم اليهود أنفسهم في مجتمعات شبه مستقلة تُعرف بال"كهيلا" (Kehilla). كانت الكهيلا بمثابة حكومة مصغرة، لها محاكمها الخاصة التي تحكم بالشريعة اليهودية، ومدارسها التي تعلم الأطفال التوراة والتلمود، ومؤسساتها الخيرية التي تعتني بالفقراء والمرضى والأيتام. كان لكل فرد في الكهيلا واجبات وحقوق، وكان التكافل الاجتماعي قوياً جداً. هذا التنظيم المحكم ضمن تماسك الجالية، وقدم لأعضائها شبكة أمان لم تكن الحكومات الخارجية توفرها. [10]

لكن هذا النظام كان له ثمن. فقد كانت الكهيلا تفرض رقابة اجتماعية صارمة على أعضائها، وتعاقب بشدة أي خروج عن الأعراف الدينية أو الاجتماعية. كان أقصى عقاب هو "الحِرم" (Herem)، أي الطرد من الجالية، وهو ما كان يعني الموت الاجتماعي للفرد. هذا الانضباط الشديد، الذي كان ضرورياً للحفاظ على وحدة الجماعة،

قضى على الكثير من أشكال الحرية الفردية، وخلق ثقافة من الامتثال والخوف من السلطة الحاخامية.

ب. ولادة اللغات اليهودية

كان من أبرز مظاهر الانغلاق الثقافي ظهور لغات يهودية خاصة، هي مزيج من اللغة العبرية ولغة البلد المضيف. أشهر هذه اللغات هي اليديشية (Yiddish)، التي تطورت لدى يهود أوروبا الشرقية (الأشكيناز)، وهي خليط من الألمانية القروسطية والعبرية واللغات السلافية، وتُكتب بالأحرف العبرية. واللغة الثانية هي اللادينو (Ladino)، التي تطورت لدى يهود إسبانيا والبلقان (السفارديم)، وهي خليط من الإسبانية القديمة والعبرية. [11]

هذه اللغات لم تكن مجرد أدوات للتواصل، بل كانت بمثابة "شيفرة سرية" للجالية. كانت تعزز الشعور بالهوية المشتركة، وتخلق عالماً ثقافياً خاصاً لا يمكن للغرباء (الأغيار) الدخول إليه. ازدهر في هذه اللغات أدب غني من الشعر والرواية والمسرح، شكل

وجدان الملايين من اليهود. لكن هذه العزلة اللغوية عمقت أيضاً من الهوة بين اليهود وجيرانهم، وجعلتهم يبدون كجماعة غريبة تتحدث بلغة لا يفهمها أحد.

ج. الغيتو: من الحماية إلى السجن

وصل الانفصال إلى ذروته المادية مع ظهور الغيتو (Ghetto). كلمة "غيتو" تأتي من اسم حي في مدينة البندقية، حيث أُجبر اليهود على السكن لأول مرة عام 1516. كان الغيتو حياً مغلقاً، له بوابات تُقفل ليلاً وتُفتح صباحاً. في البداية، ربما كان الغيتو يوفر نوعاً من الحماية لليهود من هجمات الغوغاء. لكنه سرعان ما تحول إلى سجن، رمز للإذلال والعزل. [12]

داخل الغيتو، عاش اليهود في ظروف من الاكتظاظ الشديد والفقر، لكنهم طوروا حياة اجتماعية وثقافية غنية ومنفصلة تماماً عن العالم الخارجي. كان الغيتو عالماً قائماً بذاته، له اقتصاده الخاص، ومؤسساته الخاصة، وحتى أبطاله وفلكلوره الخاص. لقد رسّخ الغيتو في الوعي اليهودي فكرة أن العالم الخارجي هو عالم خطر ومعادٍ، وأن الأمان الوحيد يكمن في الانغلاق على الذات والعيش بين أبناء دينهم.

هذه التجربة الطويلة من العيش في مجتمعات مغلقة، سواء كانت طوعية (الكهيلا) أو مفروضة (الغيتو)، ستترك أثراً نفسياً عميقاً. لقد خلقت "عقلية الغيتو"، وهي مزيج من الخوف والشك في العالم الخارجي، والشعور القوي بالتضامن الداخلي. هذه العقلية ستلعب دوراً محورياً في تشكيل الفكر الصهيوني لاحقاً. فالصهيونية، في جوهرها، كانت محاولة للخروج من الغيتو، ليس بالاندماج في العالم، بل بخلق "غيتو كبير" خاص باليهود، له جيشه وأسواره الخاصة، وهو ما سيُعرف بدولة إسرائيل.

"الأقلية النموذجية" كقناع للقوة

إن استراتيجية البقاء التي أتقنها اليهود خلال الشتات الطويل هي نموذج مذهل للقدرة البشرية على التكيف. لقد تحولوا إلى ما يمكن تسميته بـ "الأقلية النموذجية" (Model Minority)، وهي جماعة تحقق نجاحاً اقتصادياً وثقافياً يفوق حجمها العددي، رغم التمييز الذي تتعرض له. لكن هذا النجاح كان له ثمن نفسي باهظ، وزرع بذور التحول من أقلية ناجحة إلى قوة هيمنة. يمكن فهم هذه الديناميكية من خلال ثلاثة مفاهيم تحليلية:

"الآخر" الدائم (The Perpetual Other): على مدى ألفي عام، تم تعريف اليهودي دائماً بأنه "الآخر". في العالم المسيحي، كان هو "قاتل المسيح". وفي العالم الإسلامي، كان هو "الذمي". وحتى عندما كان ناجحاً ومندمجاً، ظل يُنظر إليه على أنه عنصر خارجي، ضيف مؤقت. هذا الشعور الدائم بـ"الآخرية" خلق جرحاً عميقاً في النفسية اليهودية. لقد أدى إلى حالة من القلق الوجودي المستمر، والشعور بأن القبول الذي يحصلون عليه هو قبول مشروط يمكن أن يُسحب في أي لحظة. هذه التجربة الطويلة من الرفض ستغذي لاحقاً الرغبة الصهيونية في خلق مكان في العالم لا يكونون فيه "آخرين"، حتى لو تطلب ذلك جعل شعب آخر (الفلسطينيين) "آخرين" في وطنهم.

ازدواجية القوة والضعف (The Duality of Power and Weakness): عاش اليهود في الشتات حالة فريدة من الازدواجية. كانوا ضعفاء سياسياً وعسكرياً، ويعيشون تحت رحمة الحكام. لكنهم في الوقت نفسه كانوا أقوياء اقتصادياً ومعرفياً، ويملكون شبكات عالمية ونفوذاً مالياً. هذه الازدواجية خلقت شخصية جماعية معقدة، تجمع بين الشعور بالاضطهاد والشعور بالتفوق في آن واحد. كانوا ضحايا، لكنهم كانوا أيضاً نخبة.

هذا التناقض الظاهري هو الذي يفسر الكثير من السلوك اليهودي التاريخي. فهو يفسر قدرتهم على الصمود، ولكنه يفسر أيضاً شعورهم بالاستياء من أن قوتهم الاقتصادية لا تترجم إلى احترام أو سيادة سياسية. الصهيونية كانت محاولة لحل هذه الازدواجية، من خلال الاستيلاء على القوة "الصلبة" (الأرض والجيش والدولة) التي كانت تنقصهم.

رأس المال الاجتماعي (Social Capital) كسلاح للبقاء: إن أعظم قوة لليهود في الشتات لم تكن المال أو المعرفة، بل كانت رأس المال الاجتماعي. هذا المصطلح يشير إلى شبكات الثقة والتضامن والتعاون التي تربط بين أفراد جماعة ما. لقد بنى اليهود رأسمالاً اجتماعياً هائلاً من خلال مؤسساتهم الدينية والاجتماعية، وشبكاتهم العائلية والتجارية. هذه الثقة المتبادلة هي التي سمحت لهم بالعمل ككتلة واحدة، ودعم بعضهم البعض، وبناء شبكات عالمية فعالة. لكن هذا السلاح كان ذا حدين. ففي نظر العالم الخارجي، كان هذا التضامن اليهودي القوي يبدو كـ"مؤامرة" أو "عصبية" مغلقة. إن نفس رأس المال الاجتماعي الذي ضمن بقاءهم هو الذي غذى العداء ضدهم. لقد تعلموا أن قوتهم تكمن في وحدتهم، وهي قناعة ستصبح حجر الزاوية في المشروع الصهيوني، الذي قام على فكرة حشد كل يهود العالم لدعم هدف سياسي واحد.

باختصار، لقد أتقن اليهود في الشتات الطويل فن تحويل الضعف إلى قوة ناعمة. لكن هذه القوة الناعمة، المبنية على التفوق الاقتصادي والمعرفي والتضامن الاجتماعي، كانت دائماً هشة ومعرضة للخطر. هذه التجربة الطويلة من العيش على الحافة، من كونك قوياً وضعيفاً في آن واحد، هي التي خلقت الشوق العميق إلى القوة "الحقيقية"، قوة الدولة والجيش، وهي القوة التي سيسعون إلى تحقيقها بكل الوسائل الممكنة عندما تحين الفرصة التاريخية.

أمة الشبكات العالمية

لقد كان الشتات الطويل فترة تدريب شاقة أتقن فيها اليهود فن البقاء في ظروف مستحيلة. تحولوا من بقايا أمة مهزومة إلى شبكة عالمية مرنة وقوية، قادرة على التكيف والازدهار في بيئات متنوعة. يمكن تلخيص الدروس والاستراتيجيات الرئيسية لهذه الفترة في النقاط التالية:

إعادة اختراع القيادة: مع غياب الهيكل والكهنوت، انتقلت السلطة إلى الحاخامات والفقهاء، الذين قادوا الأمة من خلال المعرفة بالشريعة وليس من خلال القوة العسكرية، مما ضمن استمرارية القيادة في غياب الدولة.

تحويل الشتات إلى شبكة: تم تحويل التشتت الجغرافي من نقمة إلى نعمة، من خلال بناء شبكات تجارية ومعلوماتية ومالية عالمية، منحت اليهود قوة ناعمة وتفوقاً اقتصادياً.

التخصص كاستراتيجية تكيف: من خلال التخصص في مهن وسيطة مثل التمويل والطب، تمكن اليهود من إيجاد مكان لأنفسهم في المجتمعات المضيفة، وتحويل القيود المفروضة عليهم إلى فرص.

الانغلاق كآلية دفاع: في مواجهة العداء الخارجي، تم بناء أسوار اجتماعية وثقافية (الكهيلا، اللغات الخاصة، الغيتو) لحماية الهوية، مما أدى إلى تعميق العزلة وترسيخ "عقلية الغيتو".

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: كيف أثر هذا النجاح الاقتصادي والاجتماعي في الشتات على علاقة اليهود بالقوة؟ وهل كان هذا النجاح بديلاً عن الدولة، أم أنه كان مجرد تمهيد للمطالبة بها؟

إن استراتيجيات البقاء التي نجحت لقرون في الشتات ستبدأ في الانهيار في العصر الحديث. ففي أوروبا، ستؤدي سلسلة من الأزمات والمذابح إلى تآكل الثقة في نموذج "الأقلية النموذجية". سيشعر اليهود بأن كل نجاحاتهم لم تحمهم من الكراهية، وأن لا أمان لهم في ديار الغربة. الفصل التالي، "دورات الاضطهاد"، سيستكشف كيف أن تصاعد معاداة السامية في أوروبا سيقضي على أمل الاندماج، ويجعل من فكرة الدولة اليهودية المستقلة، التي كانت مجرد حلم ديني، ضرورة سياسية ملحة في نظر الكثيرين.

مراجع الفصل الثالث:

- [1] Goitein, S. D. *A Mediterranean Society*: *An Abridgment in One Volume*. University of California Press, 1999.
- [2] Schäfer, Peter. *The History of the Jews in Antiquity*. Harwood Academic Publishers, 1995.
- [3] Cohen, Shaye J. D. *From the Maccabees to the Mishnah*. Westminster John Knox Press, 2006.
- [4] Kalmin, Richard. *The Sage in Jewish Society of Late Antiquity*. Routledge, 1999.
- [5] Nirenberg, David. *Anti-Judaism*: *The Western Tradition*. W. W. Norton & Company, 2013.
- [6] Menocal, María Rosa. *The Ornament of the World*: *How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain*. Little, Brown and Company, 2002.

- [7] Gil, Moshe. *Jews in Islamic Countries in the Middle Ages*. Brill, 2004.
- [8] Chazan, Robert. *The Jews of Medieval Western Christendom, 1000-1500*. Cambridge University Press, 2006.
- [9] Stow, Kenneth. *Alienated Minority*: *The Jews of Medieval Latin Europe*. Harvard University Press, 1992.
- [10] Katz, Jacob. *Tradition and Crisis*: *Jewish Society at the End of the Middle Ages*. Syracuse University Press, 1993.
- [11] Weinreich, Max. *History of the Yiddish Language*. Yale University Press, 2008.
- [12] Sennett, Richard. *The Conscience of the Eye*: *The Design and Social Life of Cities*. W. W. Norton & Company, 1992.

(٤)

العصور الوسطى - دورة القمع والمقاومة

حرق التلمود في باريس

في ساحة دي غريف الباريسية، التي تشهد عادةً احتفالات المدينة، تجمع حشد كبير في أحد أيام يونيو من عام 1242. لكن هذه المرة، لم يكن هناك احتفال. في وسط الساحة، كانت النيران تشتعل، لا لتدفئة الناس، بل لتلتهم أكواماً من المخطوطات الجلدية الثمينة. كانت هذه المخطوطات هي نسخ من التلمود، النص المركزي للحياة الفكرية والروحية اليهودية، والتي تم جمعها من كل معابد باريس بأمر من الملك لويس التاسع. وقف الحاخامات والعلماء اليهود على أطراف الساحة، ودموعهم تترقرق في أعينهم، وهم يشاهدون خلاصة قرون من الحكمة والفقه والنقاش تتحول إلى رماد. [1]

لم يكن حرق التلمود مجرد عمل من أعمال الرقابة، بل كان هجوماً رمزياً على "عقل" الشعب اليهودي. ففي نظر الكنيسة الكاثوليكية، كان التلمود كتاباً "شيطانيا" يجدف على المسيح، ويعلم اليهود كراهية المسيحيين، وهو السبب الذي يمنعهم من اعتناق "الحقيقة". كان حرق الكتاب بمثابة محاولة لقتل الروح التي تحرك هذا الشعب، وكسر مقاومته الفكرية. كان الاعتقاد السائد هو أنه إذا تم تدمير التلمود، فإن اليهود سيفقدون بوصلتهم، وسيصبحون فريسة سهلة للتحول إلى المسيحية.

لكن ما حدث كان العكس تماماً. فبدلاً من أن يضعفهم، زاد هذا الهجوم من تمسك اليهود بتراثهم. أصبح التلمود أكثر قداسة في نظرهم، وتحولت دراسته من واجب ديني إلى فعل مقاومة. أدركوا أن قوتهم الحقيقية لا تكمن في المخطوطات المادية، التي يمكن حرقها، بل في المعرفة المحفوظة في الصدور والعقول، والتي تنتقل من جيل إلى جيل. لقد كانت هذه الحادثة، وغيرها من حوادث الاضطهاد في العصور الوسطى، جزءاً من دورة متكررة: كلما زاد القمع الخارجي، زاد الانغلاق الداخلي والتمسك بالهوية. لقد تعلمت الضحية أن تستمد قوتها من معاناتها، وأن تحول كل ضربة تتلقاها إلى درع جديد يحميها. هنا، في ساحات الحرق في أوروبا، كان يتم صقل "عقلية الحصار" التي ستصبح

السمة المميزة لليهودية الحديثة، والتي ستمهد الطريق لرفض أي حل سوى الحل الجذري: دولة خاصة بهم.

الحروب الصليبية وبداية العنف الشعبي المنظم

قبل عام 1096، كان العنف ضد اليهود في أوروبا المسيحية موجوداً، لكنه كان متقطعاً ومحدوداً، وغالباً ما كان يتم كبحه من قبل السلطات العلمانية والدينية. لكن كل شيء تغير مع انطلاق الحملة الصليبية الأولى. فالدعوة التي أطلقها البابا أوربان الثاني لتحرير الأراضي المقدسة من المسلمين، سرعان ما تحولت في أذهان الجماهير والفلاحين والفرسان الفقراء إلى دعوة لمحاربة "أعداء المسيح" في كل مكان، وكان هؤلاء الأعداء الأقرب والأكثر وضوحاً هم اليهود الذين يعيشون بينهم.

أ. مجازر وادي الراين: "الهولوكوست الأول"؟

في ربيع عام 1096، انطلقت جيوش من الصليبيين الشعبيين، غير النظاميين، بقيادة شخصيات مثل "بطرس الناسك"، وبدأت مسيرتها نحو الشرق. ولكن قبل أن يصلوا إلى الأراضي المقدسة، قرروا "تطهير" أوروبا أولاً. في مدن وادي الراين الألمانية (مثل شباير، فورمس، وماينتس)، التي كانت مراكز يهودية مزدهرة، خير الصليبيون اليهود

بين خيارين: التحول إلى المسيحية أو الموت. رفضت الغالبية العظمى من اليهود التخلي عن دينهم، واختاروا الموت، بل إن الكثيرين منهم قاموا بقتل أطفالهم ثم انتحروا حتى لا يقعوا في أيدي الصليبيين، في ظاهرة مروعة تُعرف بـ"تقديس الاسم" (كيدوش هاشم). [2]

كانت هذه المجازر، التي يصفها بعض المؤرخين اليهود بأنها "الهولوكوست الأول"، بمثابة صدمة غير مسبوقة. فلأول مرة، لم يكن العنف موجهاً من قبل الملوك لتحقيق مكاسب مالية، بل كان عنفاً شعبياً واسع النطاق، تغذيه الكراهية الدينية والجشع. لقد أظهرت هذه الأحداث لليهود أن حماية السلطات هشة، وأنهم يعيشون على بركان من الكراهية الشعبية يمكن أن ينفجر في أي لحظة. لقد تحول الجار المسيحي، الذي كانوا يتعاملون معه يومياً، إلى قاتل محتمل.

ب. ترسيخ صورة "الآخر" الشيطاني

لم تكن الحروب الصليبية مجرد سلسلة من المجازر، بل كانت أيضاً عملية "شيطنة" ممنهجة لليهود في الوعي الأوروبي. ففي خطب التحريض التي سبقت الحملات، تم تصوير اليهود

على أنهم ليسوا مجرد كفار، بل هم حلفاء للشيطان، يعملون سراً على تدمير العالم المسيحي. تم ربطهم بالمال والجشع، واتهامهم بأنهم هم الذين يمولون أعداء المسيحية. [3]

هذه الصورة النمطية لليهودي ككائن شرير ومتآمر سترسخ في الثقافة الأوروبية لقرون. وقد تم تعزيزها من خلال الفن الديني والمسرحيات الشعبية التي كانت تصور اليهود بأشكال كاريكاتورية، بأنوف معقوفة وملامح شيطانية. لقد تم تجريدهم من إنسانيتهم في أذهان الجماهير، مما جعل العنف ضدهم يبدو مبرراً، بل واجباً دينياً. هذه الشيطنة لم تكن مجرد نتيجة ثانوية للحروب الصليبية، بل كانت جزءاً أساسياً من الأيديولوجية التي حركتها. فمن خلال خلق عدو داخلي واضح ومكروه، تمكن قادة الكنيسة من توحيد صفوف العالم المسيحي الممزق وتوجيه طاقاته العدوانية نحو الخارج والداخل على حد سواء.

فرية الدم وتدنيس القربان المقدس

إذا كانت الحروب الصليبية قد دشنت عصر العنف الشعبي ضد اليهود، فإن الاتهامات بـ"فرية الدم" و"تدنيس القربان المقدس" قد نقلت هذا العنف إلى مستوى جديد من

الوحشية واللاعقلانية. هذه الاتهامات، التي لا أساس لها من الصحة على الإطلاق، كشفت عن أعمق المخاوف والأوهام في اللاوعي المسيحي في العصور الوسطى، وحولت اليهودي من مجرد "كافر" إلى وحش متعطش للدماء، يمارس طقوساً شيطانية في الخفاء.

أ. فرية الدم: اتهام بالقتل الطقسي

ظهرت "فرية الدم" (Blood Libel) لأول مرة في مدينة نورويتش بإنجلترا عام 1144، عندما تم العثور على جثة طفل مسيحي يدعى ويليام. وبدلاً من البحث عن القاتل الحقيقي، تم اتهام يهود المدينة باختطاف الطفل وتعذيبه وصلبه، في محاكاة لآلام المسيح، وذلك لاستخدام دمه في صنع خبز عيد الفصح. ورغم أن السلطات المحلية لم تصدق هذه القصة، إلا أنها انتشرت كالنار في الهشيم في جميع أنحاء أوروبا. [4]

على مدى القرون التالية، تكررت هذه الفرية مئات المرات. فكلما اختفى طفل مسيحي، كان يتم اتهام اليهود بقتله. كانت هذه الاتهامات تؤدي دائماً إلى هجمات وحشية على الأحياء اليهودية، حيث كان يتم تعذيب اليهود لإجبارهم على الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها، ثم حرقهم أحياء. لقد كانت هذه الفرية فعالة بشكل خاص لأنها لعبت على

وترين حساسين: براءة الأطفال، والغموض الذي كان يحيط بالطقوس اليهودية. ففي نظر المسيحي العادي، الذي لم يكن يعرف شيئاً عن اليهودية سوى أنها ديانة "شيطانية"، بدت فكرة القتل الطقسي ممكنة تماماً.

ب. تدنيس القربان المقدس: هجوم على جسد المسيح

لم تكن فرية الدم هي الاتهام الوحيد الذي يصور اليهود كأعداء للمسيح. فمع ترسيخ عقيدة "الاستحالة" (Transubstantiation) في القرن الثالث عشر، والتي تقول إن الخبز والخمر في طقس القربان يتحولان فعلياً إلى جسد ودم المسيح، ظهر اتهام جديد: تدنيس القربان المقدس (Host Desecration)[5] .

كانت هذه التهمة تزعم أن اليهود يسرقون الخبز المقدس من الكنائس، ثم يقومون بطعنه أو حرقه أوغليه، في إعادة تمثيل لـ"قتل" المسيح. كانت القصص تتحدث عن أن الخبز المسروق كان ينزف دماً عند طعنه، في "معجزة" تثبت صحة الاتهام. وكما في حالة فرية الدم، كانت هذه الاتهامات تؤدي إلى محاكمات صورية ومذابح مروعة. لقد كانت هذه التهمة أكثر خطورة من سابقتها، لأنها لم تكن مجرد اتهام بقتل طفل، بل كانت اتهاماً

بالهجوم المباشر على جسد الإله نفسه. لقد حولت اليهودي من قاتل إلى "قاتل إله" (Deicide) يكرر جريمته في كل يوم.

هذه الاتهامات اللاعقلانية، التي تبدو سخيفة اليوم، كانت جزءاً لا يتجزأ من النظرة العالمية للعصور الوسطى. لقد كشفت عن عمق الكراهية والبارانويا التي كانت موجهة ضد اليهود. لم يعودوا مجرد أقلية دينية مختلفة، بل أصبحوا طائفة شيطانية، خطراً وجودياً على العالم المسيحي. هذه الصورة هي التي بررت في أذهان الناس كل أشكال العنف والتمييز ضدهم، ومهدت الطريق لعمليات الطرد الجماعي التي ستأتي لاحقاً.

الطرد الجماعي من إنجلترا إلى إسبانيا

بحلول أواخر العصور الوسطى، وصلت الكراهية ضد اليهود إلى درجة لم يعد معها وجودهم محتملاً في نظر الكثير من الملوك والشعوب الأوروبية. فبعد قرون من الشيطنة والاتهامات الكاذبة والمذابح، أصبح الحل الأسهل والأكثر شعبية هو التخلص منهم بشكل كامل. وهكذا بدأت سلسلة من عمليات الطرد الجماعي، التي اقتلعت جاليات يهودية عريقة من جذورها، وحولتها إلى جماعات من اللاجئين الدائمين. كانت أبرز

عمليتي طرد هما طرد اليهود من إنجلترا عام 1290، ثم الكارثة الأكبر، طردهم من إسبانيا عام 1492.

أ. طرد إنجلترا (1290): نموذج أولي

كان طرد اليهود من إنجلترا على يد الملك إدوارد الأول بمثابة نموذج أولي لعمليات الطرد التي ستتبع. فبعد أن استنزف الملك ثروات اليهود من خلال الضرائب الباهظة، وبعد أن أصبح النبلاء مدينين لهم بمبالغ طائلة، وجد الملك أن طردهم ومصادرة ما تبقى من ممتلكاتهم هو الحل الأكثر فعالية من الناحية المالية والسياسية. صدر المرسوم الذي يخير اليهود بين التحول إلى المسيحية أو مغادرة البلاد. غادر حوالي 3000 يهودي إنجلترا، ولم يُسمح لهم بالعودة إلا بعد أكثر من 350 عاماً. [6]

كان هذا الطرد مهماً لأنه أظهر للملوك الأوروبيين الآخرين أن من الممكن التخلص من "المشكلة اليهودية" بشكل كامل، وتحقيق مكاسب مالية وشعبية في الوقت نفسه. لقد أرسى سابقة خطيرة، وهي أن اليهود هم أقلية يمكن التخلص منها عندما تنتفي الحاجة الاقتصادية إليهم.

ب. طرد إسبانيا (1492): نهاية العصر الذهبي

كانت الكارثة الأكبر والأكثر رمزية هي طرد اليهود من إسبانيا. فإسبانيا، التي كانت في ظل الحكم الإسلامي (الأندلس) قد شهدت "عصراً ذهبياً" للثقافة اليهودية، تحولت بعد "حروب الاسترداد" المسيحية إلى مكان للاضطهاد والتعصب. فبعد توحيد مملكتي قشتالة وأراغون، قرر الملكان الكاثوليكيان، فرديناند وإيزابيلا، فرض الوحدة الدينية على مملكتهما. وفي 31 مارس 1492، وهو نفس العام الذي سقطت فيه غرناطة، آخر معاقل المسلمين، صدر مرسوم الحمراء الذي أمر جميع اليهود بمغادرة إسبانيا في غضون أربعة أشهر، ما لم يعتنقوا المسيحية. [7]

كان هذا القرار بمثابة صدمة هائلة ليهود إسبانيا (السفارديم)، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم جزءاً لا يتجزأ من النسيج الإسباني. كان الكثير منهم مندمجين تماماً في المجتمع، ويعملون كأطباء ووزراء ومستشارين للملوك. لكن كل هذا لم يشفع لهم. اضطر ما بين 100,000 إلى 200,000 يهودي إلى مغادرة البلاد، تاركين وراءهم ممتلكاتهم

وتاريخهم. تشتت هؤلاء اللاجئون في جميع أنحاء حوض البحر المتوسط، وخاصة في الدولة العثمانية التي رحبت بهم، وفي شمال إفريقيا وإيطاليا وهولندا.

ج. "المارانوس": مأساة الهوية المزدوجة

لم تكن مأساة يهود إسبانيا مقتصرة على الذين طردوا. فهناك عشرات الآلاف الذين اختاروا التحول إلى المسيحية للبقاء في البلاد. هؤلاء "المتحولون" (Conversos)، الذين كان يطلق عليهم المسيحيون القدامى اسم "المارانوس" (وهي كلمة إسبانية تعني "الخنازير")، لم يسلموا من الاضطهاد. فقد كان يُشتبه دائماً في أنهم يمارسون اليهودية سراً. ولمطاردة هؤلاء "الهراطقة"، تم تأسيس "محاكم التفتيش" الإسبانية، التي استخدمت أبشع أساليب التعذيب والترهيب لإجبار الناس على الاعتراف بـ"هرطقتهم". [8]

عاش المارانوس مأساة الهوية المزدوجة. كانوا مسيحيين في العلن، ويهوداً في السر. كانوا يعيشون في خوف دائم من الوشاية والجيران والعيون المتلصصة. هذه التجربة الطويلة من الخوف خلقت شخصية جماعية حذرة ومزدوجة، وأدت إلى هوس بفكرة "نقاء الدم" (Limpieza de sangre)، حيث أصبح الإسبان يميزون بين "المسيحيين القدامى"

و"المسيحيين الجدد" من أصل يهودي. لقد أظهرت محنة المارانوس أن حتى الاندماج الكامل والتخلي عن الدين لم يكن كافياً لحماية اليهود من الكراهية. ففي نظر المتعصبين، كان "الدم اليهودي" بمثابة وصمة لا يمكن محوها.

كان لطرد إسبانيا آثار نفسية عميقة على اليهود في جميع أنحاء العالم. لقد كان بمثابة تأكيد نهائي على أن لا أمان لهم في الشتات، وأن كل "عصر ذهبي" لا بد أن ينتهي بكارثة. هذه الصدمة، أكثر من أي حدث آخر، هي التي أحيت الآمال المسيحانية (المتعلقة بقدوم المسيح المخلص)، وزرعت بذور فكرة أن الخلاص لن يأتي من خلال انتظار المعجزة، بل من خلال عمل سياسي يهدف إلى استعادة السيادة على أرض إسرائيل. لقد كانت نهاية الأندلس هي البداية الحقيقية للطريق الطويل نحو الصهيونية.

من الصمود الروحي إلى الرد المسلح

في مواجهة هذا التاريخ الطويل من القمع والمذابح والطرد، قد يبدو أن اليهود كانوا مجرد ضحايا سلبيين، يتقبلون مصيرهم بالصلاة والبكاء. لكن هذه الصورة غير مكتملة. فإلى جانب الصمود الروحي، كانت هناك أشكال متنوعة من المقاومة، تراوحت بين الجدل الفكري والتمرد المسلح. ورغم أن هذه المقاومات كانت غالباً ما تنتهي بالفشل، إلا أنها

تظهر أن اليهود لم يكونوا مجرد خراف تُساق إلى الذبح، بل كانوا فاعلين في تاريخهم، يحاولون تغيير واقعهم بكل الوسائل المتاحة.

أ. الجدل الفكري والديني

كانت إحدى أهم ساحات المقاومة هي ساحة الفكر. فمنذ العصور الوسطى، انخرط العلماء اليهود في مناظرات وجدالات دينية مع نظرائهم المسيحيين. كانت هذه المناظرات غالباً ما تكون غير متكافئة، حيث كان يتم إجبار الجانب اليهودي على المشاركة، وكان الهدف منها هو إثبات "تفوق" المسيحية و"ضلال" اليهودية. كانت أشهر هذه المناظرات هي مناظرة باريس (1240) التي أدت إلى حرق التلمود، ومناظرة برشلونة (1263) بين الحاخام الكبير موسى بن نحمان (النحماني) والمتحول اليهودي بابلو كريستياني. [9]

ورغم أن نتائج هذه المناظرات كانت محسومة سلفاً، إلا أنها كانت فرصة للعلماء اليهود للدفاع عن عقيدتهم، وتفنيد الاتهامات الموجهة إليهم، ورفع معنويات جالياتهم. كان النحماني، على سبيل المثال، جريئاً جداً في دفاعه لدرجة أنه اضطر إلى الهرب من إسبانيا

بعد المناظرة. بالإضافة إلى المناظرات العلنية، كُتبت عشرات الكتب الجدلية التي كانت تهدف إلى دحض العقائد المسيحية (مثل التثليث وألوهية المسيح)، وإثبات أن النبوءات التي يستشهد بها المسيحيون في العهد القديم لا تشير إلى يسوع. كانت هذه الكتابات بمثابة "سلاح" فكري، يعزز ثقة اليهود بدينهم، ويمنحهم الحجج اللازمة لمقاومة ضغوط التحول إلى المسيحية.

ب. الحركات المسيحانية والتمرد

في أوقات الأزمات والاضطهاد الشديد، كانت اليأس يدفع الكثيرين إلى تعليق آمالهم على قدوم "المسيح المخلص" (المسيا)، الذي سيحررهم من الظلم، ويعيدهم إلى أرض إسرائيل، ويؤسس مملكة الله على الأرض. وقد ظهر عبر التاريخ العديد من الشخصيات الكاريزمية التي ادعت أنها هي المسيح المنتظر، ونجحت في حشد الآلاف من الأتباع.

كانت بعض هذه الحركات سلمية وروحانية، لكن بعضها الآخر اتخذ طابعاً سياسياً وعسكرياً. على سبيل المثال، في القرن الثاني عشر، ظهر شخص يدعى دافيد الروي في بلاد فارس، وأعلن نفسه المسيح، وحشد جيشاً من اليهود في محاولة لغزو القدس. ورغم

أن حركته انتهت بالفشل ومقتله، إلا أنها أظهرت أن فكرة الخلاص المسلح كانت موجودة. [10]

لكن أكبر وأخطر حركة مسيحانية في تاريخ اليهودية كانت حركة شبتاي تسفي في القرن السابع عشر. ظهر هذا الرجل الغامض في مدينة إزمير التركية، وأعلن أنه المسيح المنتظر. وبفضل شخصيته الجذابة وخطبه النارية، انتشرت حركته كالنار في الهشيم في جميع أنحاء العالم اليهودي، من اليمن إلى أمستردام. صدقه مئات الآلاف، وباعوا ممتلكاتهم استعداداً للعودة إلى القدس. اهتزت الإمبراطورية العثمانية لهذه الحركة، وقامت باعتقال شبتاي تسفي. وأمام السلطان، وُضع شبتاي أمام خيارين: الموت أو اعتناق الإسلام. ولصدمة أتباعه، اختار شبتاي الخيار الثاني. [11]

كانت ردة شبتاي تسفي بمثابة صدمة نفسية هائلة للعالم اليهودي، لم تكن تقل عن صدمة طرد إسبانيا. لقد تحطم الأمل الأكبر في الخلاص، وشعر الكثيرون بالخيانة والضياع. لكن هذه الصدمة كانت لها نتيجة غير متوقعة. لقد قضت على فكرة انتظار الخلاص السلبي من السماء. أدرك الكثير من اليهود أن الاعتماد على "مسيح" كاذب لن يجلب

لهم سوى الكوارث. هذه الخيبة من الحلول الدينية التقليدية هي التي ستمهد الطريق، بعد قرنين من الزمان، لظهور حل جديد، حل علماني وسياسي وعملي: الصهيونية. لقد تعلموا الدرس القاسي: إذا أرادوا الخلاص، فعليهم أن يخلصوا أنفسهم بأيديهم.

صناعة الضحية كأداة للبقاء

إن التاريخ المروع للاضطهاد في العصور الوسطى لم يكن مجرد سلسلة من الأحداث المؤلمة، بل كان عملية "صناعة" نفسية واجتماعية، تشكلت خلالها "هوية الضحية" التي ستصبح مركزية في الوعي اليهودي الحديث. هذه الهوية لم تكن مجرد رد فعل سلبي على القمع، بل كانت أيضاً استراتيجية بقاء معقدة، لها فوائدها وأخطارها. يمكن تحليل هذه الديناميكية من خلال المفاهيم التالية:

"اقتصاد المعاناة" (The Economy of Suffering): لقد تعلم اليهود، عبر قرون من الاضطهاد، كيف يحولون معاناتهم إلى رأسمال رمزي. أصبحت القصص عن المذابح والشهداء جزءاً لا يتجزأ من التراث، يتم تذكرها في الصلوات والطقوس. هذا "التذكر المنظم" للمأساة (Organized Remembering) لم يكن مجرد نحيب على الماضي، بل

كان أداة لتعزيز التضامن الداخلي، وتبرير الانعزال عن العالم الخارجي المعادي، وتأكيد المكانة الخاصة للشعب اليهودي كـ"شعب الله المتألم". لقد أصبح الألم هوية، والمعاناة هي شهادة على الاختيار الإلهي. هذه القدرة على استثمار المعاناة ستصل إلى ذروتها بعد الهولوكوست، حيث سيتم استخدامها لتبرير إنشاء دولة إسرائيل والحصول على دعم دولي غير محدود.

"البارانويا المبررة" (Justified Paranoia): إن تجارب مثل فرية الدم والطرد الجماعي خلقت لدى اليهود شعوراً عميقاً بالشك وانعدام الثقة في العالم الخارجي. لقد تطورت لديهم ما يمكن تسميته بـ"البارانويا المبررة"، وهي قناعة راسخة بأن العالم كله يتآمر ضدهم، وأن أي فترة من السلام والازدهار هي مجرد هدوء يسبق العاصفة. هذه النظرة للعالم، التي كانت تستند إلى تجارب حقيقية ومؤلمة، أصبحت بمثابة "فلتر" يتم من خلاله تفسير كل الأحداث. لقد أدت إلى صعوبة في الثقة بالآخرين، وميل إلى تفسير أي نقد على أنه معاداة للسامية. هذه العقلية، التي كانت آلية دفاع ضرورية في العصور الوسطى، ستصبح عقبة أمام السلام في العصر الحديث، حيث ستُستخدم لتبرير العدوان الاستباقي ورفض أي تنازلات على أنها "خطر وجودي".

تآكل السلطة الحاخامية التقليدية: كانت الصدمات المتتالية، وخاصة فشل حركة شبتاي تسفي، قد أدت إلى تآكل الثقة في الحلول الدينية التقليدية وفي القيادة الحاخامية التي كانت تدعو إلى الصبر وانتظار الخلاص الإلهي. لقد شعر الكثيرون أن هذه القيادة قد فشلت في حمايتهم، وأن استراتيجيات البقاء القديمة (الصلاة، دراسة التلمود، الانعزال) لم تعد كافية. هذا الفراغ في القيادة، وهذه الخيبة من الحلول الروحانية، هي التي خلقت المناخ المناسب لظهور أفكار جديدة وجذرية. لقد بدأ البحث عن "مسيح" جديد، ليس مسيحاً روحانياً يأتي من السماء، بل "مسيح" سياسي وعلماني، يأتي في شكل حركة قومية حديثة. لقد مهد فشل شبتاي تسفي الطريق لظهور تيودور هرتزل.

باختصار، لقد خرج اليهود من العصور الوسطى وهم يحملون جروحاً نفسية عميقة، ولكنهم يحملون أيضاً دروساً قاسية. لقد تعلموا أن العالم مكان خطير، وأن لا أحد سيحميهم، وأن قوتهم الوحيدة تكمن في تضامنهم. لكنهم تعلموا أيضاً أن الصمود الروحي وحده لا يكفي. هذه القناعات المتناقضة – الشعور بالضعف الشديد والرغبة العارمة في

القوة، خيبة الأمل من الحلول الدينية والبحث عن حلول سياسية - هي التي ستشكل التربة التي ستنبت فيها الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر.

الضحية تتعلم دروس القوة

كانت العصور الوسطى بمثابة بوتقة من الألم صُهرت فيها الهوية اليهودية الحديثة. فمن خلال دورة متصلة من القمع والمقاومة، تعلم اليهود دروساً أساسية ستمهد الطريق لتحولهم المستقبلي. يمكن تلخيص هذه الدروس في النقاط التالية:

شيطنة الآخر كأساس للاضطهاد: أظهرت تجربة العصور الوسطى أن العنف الجسدي يبدأ بالعنف الرمزي. فمن خلال شيطنة اليهود وتجريدهم من إنسانيتهم، تم تمهيد الطريق للمذابح والطرد.

هشاشة وضع الأقلية: أثبتت حوادث الطرد، وخاصة من إسبانيا، أنه حتى أكثر الجاليات اندماجاً ونجاحاً يمكن أن تُقتلع وتُدمر بقرار سياسي. لقد تعلموا أن وضع الأقلية، مهما كان مزدهراً، هو وضع هش ومؤقت.

المعاناة كمصدر للقوة: في مواجهة القمع، طور اليهود "اقتصاداً للمعاناة"، حيث أصبح تذكر المآسي وتخليد الشهداء أداة لتقوية الهوية وتعزيز التضامن الداخلي.

فشل الحلول التقليدية: أدت خيبة الأمل من الحركات المسيحانية، وخاصة فشل شبتاي تسفي، إلى تآكل الثقة في الحلول الدينية السلبية، وفتحت الباب للبحث عن حلول سياسية وعملية لمشكلة الشتات.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: كيف أدت هذه التجربة الطويلة من الاضطهاد في أوروبا المسيحية إلى ولادة فكرة قومية حديثة وعلمانية، تهدف إلى إنهاء الشتات بالقوة؟

مع بزوغ العصر الحديث، بدا لوهلة أن محنة اليهود قد انتهت. فالثورة الفرنسية وما تلاها من حركات تحرر (Emancipation) منحت اليهود حقوق المواطنة الكاملة في معظم دول أوروبا الغربية. لكن هذا "الاندماج" سرعان ما أثبت أنه وهم. فبدلاً من أن

تختفي الكراهية القديمة، تحولت من شكلها الديني إلى شكل جديد وأكثر خطورة: معاداة السامية العرقية. الفصل التالي، "معاداة السامية الحديثة"، سيستكشف كيف أن هذا الشكل الجديد من الكراهية، الذي يرى في اليهود "عرقاً" غريباً وخطيراً، سيقضي على حلم الاندماج، ويجعل من الصهيونية، في نظر الكثيرين، الحل الوحيد الممكن.

مراجع الفصل الرابع:

- [1] Maccoby, Hyam. *Judaism on Trial: Jewish-Christian Disputations in the Middle Ages*. Littman Library of Jewish Civilization, 1993.
- [2] Chazan, Robert. *European Jewry and the First Crusade*. University of California Press, 1987.
- [3] Trachtenberg, Joshua. *The Devil and the Jews: The Medieval Conception of the Jew and Its Relation to Modern Anti-Semitism*. Yale University Press, 1943.
- [4] Hsia, R. Po-chia. *The Myth of Ritual Murder: Jews and Magic in Reformation Germany*. Yale University Press, 1988.
- [5] Rubin, Miri. *Corpus Christi: The Eucharist in Late Medieval Culture*. Cambridge University Press, 1991.
- [6] Roth, Cecil. *A History of the Jews in England*. Oxford University Press, 1964.

- [7] Kamen, Henry. *The Spanish Inquisition*: *A Historical Revision*. Yale University Press, 1998.
- [8] Netanyahu, Benzion. *The Origins of the Inquisition in Fifteenth Century Spain*. New York Review Books, 2001.
- [9] Lasker, Daniel J. *Jewish-Christian Polemics in the Middle Ages*. Littman Library of Jewish Civilization, 2007.
- [10] Bonfil, Robert. *Jewish Life in Renaissance Italy*. University of California Press, 1994.
- [11] Scholem, Gershom. *Sabbatai Sevi*: *The Mystical Messiah,* 1626-1676. Princeton University Press, 1973.

(٥)

معاداة السامية الحديثة وتطور العدو

قضية دريفوس

في صباح يوم 5 يناير 1895، في ساحة المدرسة العسكرية في باريس، وقف ضابط مدفعية فرنسي شاب يدعى ألفريد دريفوس، وهو يهودي من إقليم الألزاس، في حالة من الذهول. أمام حشد من الجنود والصحفيين والجمهور، تم تجريده من رتبه وشاراته، وكُسر سيفه إلى نصفين، وصُفّي على وجهه. كان الحشد يصرخ: "الموت لليهود! الموت للخائن!". تم اتهام دريفوس، بناءً على أدلة واهية ومزورة، بتسريب أسرار عسكرية إلى ألمانيا. حُكم عليه بالخيانة العظمى، ونُفي مدى الحياة إلى جزيرة الشيطان، وهي مستعمرة عقابية نائية قبالة سواحل أمريكا الجنوبية. [1]

لم تكن قضية دريفوس مجرد خطأ قضائي، بل كانت لحظة كاشفة، زلزالاً هزّ أركان الثقة التي بناها يهود أوروبا الغربية في فكرة "التحرر" والاندماج. فدريفوس لم يكن يهودياً منعزلاً من الغيتو، بل كان مواطناً فرنسياً متفانياً، ضابطاً في الجيش، مثالاً لليهودي المندمج الذي تخلى عن كل ما يميزه ليكون فرنسياً أولاً وأخيراً. ومع ذلك، عندما احتاجت المؤسسة العسكرية الفاسدة إلى كبش فداء، لم تجد أسهل من اختيار الضابط اليهودي الوحيد في هيئة الأركان. لقد أظهرت هذه القضية أن اليهودي، مهما حاول أن يكون وطنياً، سيظل في نظر الكثيرين "آخر"، خائناً محتملاً، وأن معاداة اليهود القديمة لم تمت، بل ارتدت قناعاً جديداً.

كان من بين الصحفيين الذين يغطون محاكمة دريفوس في باريس، مراسل صحيفة فيينية يدعى تيودور هرتزل. كان هرتزل، مثل دريفوس، يهودياً مندمجاً، يؤمن بأن حل "المسألة اليهودية" يكمن في الاندماج الكامل. لكن رؤيته للمشهد المهين في باريس، وسماعه لهتافات "الموت لليهود" في عاصمة التنوير، غيرت حياته إلى الأبد. أدرك هرتزل أن الكراهية الموجهة ضد اليهود لم تعد دينية، بل أصبحت عرقية. لم يعودوا مكروهين لأنهم يرفضون المسيح، بل لأن "دمهم" يهودي. وهذا شيء لا يمكن تغييره بالتحول

الديني أو بالاندماج. في تلك اللحظة، ولد الحل الجذري في ذهنه: إذا كان العالم لا يريدنا، فعلينا أن نؤسس عالماً خاصاً بنا. لقد كانت قضية دريفوس هي الشرارة التي أشعلت نار الصهيونية السياسية الحديثة. [2]

عصر التحرر (Emancipation) والوعد الكاذب بالاندماج

مع انطلاق شرارة الثورة الفرنسية عام 1789، بدا أن فجراً جديداً يشرق على يهود أوروبا. فقد حملت الثورة شعارات "الحرية والإخاء والمساواة"، وهي شعارات كان من المفترض أن تشمل الجميع، بغض النظر عن دينهم. لأول مرة منذ ألفي عام، تم طرح فكرة منح اليهود حقوق المواطنة الكاملة، وإخراجهم من الغيتوهات، ودمجهم في الجسد الوطني للدول الأوروبية الحديثة. كانت هذه هي فترة "التحرر" (Emancipation)، وهي فترة من الأمل والتفاؤل الكبيرين، لكنها سرعان ما ستكشف عن وجهها الآخر، وتثبت أنها كانت وعداً كاذباً.

أ. الصفقة الكبرى: "كل شيء لليهود كأفراد، لا شيء لهم كأمة"

في عام 1791، منحت الجمعية الوطنية الفرنسية يهود فرنسا حقوق المواطنة الكاملة، لتكون فرنسا أول بلد أوروبي يقوم بذلك. لكن هذه المواطنة لم تكن مجانية، بل كانت

مشروطة بـ"صفقة" ضمنية، لخصها الكونت دي كليرمون-تونير في عبارته الشهيرة: "يجب أن نمنح اليهود كل شيء كأفراد، ولا شيء كأمة". [3]

كان معنى هذه الصفقة واضحاً: يمكن لليهود أن يصبحوا مواطنين فرنسيين، ولكن بشرط أن يتخلوا عن هويتهم الجماعية المنفصلة. يجب أن يتوقفوا عن اعتبار أنفسهم "أمة في المنفى"، وأن يحلوا تنظيماتهم المجتمعية المستقلة (الكهيلا)، وأن يصبح ولاؤهم الأول والأخير للدولة الفرنسية. بعبارة أخرى، كان عليهم أن يصبحوا "فرنسيين من الديانة اليهودية"، تماماً مثل "الفرنسيين من الديانة الكاثوليكية". كان الدين شأناً خاصاً، أما في المجال العام، فالجميع فرنسيون.

على مدى القرن التاسع عشر، انتشر نموذج التحرر هذا، بدرجات متفاوتة، في معظم دول أوروبا الغربية والوسطى. خرج اليهود من الغيتوهات، ودخلوا الجامعات والمهن الحرة والجيوش والبرلمانات. لقد حققوا نجاحاً مذهلاً في كل المجالات، وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الحياة الاقتصادية والثقافية والعلمية لأوروبا. بدا أن "المسألة اليهودية" في طريقها إلى الحل من خلال الاندماج والذوبان التدريجي.

ب. رد الفعل العنيف: ولادة معاداة السامية الحديثة

لكن هذا النجاح السريع والمذهل لليهود المندمجين أثار رد فعل عنيفاً. فبدلاً من أن يؤدي الاندماج إلى قبولهم، أدى إلى شكل جديد وأكثر خبثاً من الكراهية. ففي السابق، كانت الكراهية دينية (Anti-Judaism)؛ كان اليهودي مكروهاً لأنه يرفض المسيحية، وكان يمكنه أن ينجو من هذه الكراهية إذا تحول إلى المسيحية. أما الآن، فقد تحولت الكراهية إلى شكل جديد: معاداة السامية (Antisemitism)، وهو مصطلح صاغه الصحفي الألماني فيلهلم مار عام 1879. [4]

معاداة السامية الحديثة لم تكن تستند إلى الدين، بل إلى مفهوم "العرق" الذي كان قد بدأ يكتسب شعبية في الفكر الأوروبي في ذلك الوقت. وفقاً لهذه النظرة الجديدة، فإن اليهود ليسوا مجرد جماعة دينية، بل هم "عرق سامي" غريب ومنحط، له خصائص بيولوجية ونفسية ثابتة لا يمكن تغييرها. فاليهودي، حسب هذه النظرة، هو جشع ومادي ومتآمر بطبيعته، وهذه الصفات موجودة في "دمه"، ولا يمكن التخلص منها حتى لو

تحول إلى المسيحية. لقد أصبح اليهودي "آخر" بشكل مطلق، جسماً غريباً في الجسد الأوروبي "الآري"، يجب استئصاله للحفاظ على نقاء الأمة.

هذا التحول من الكراهية الدينية إلى الكراهية العرقية كان له عواقب وخيمة. لقد أغلق الباب أمام الحل الوحيد الذي كان متاحاً لليهود في السابق للهروب من الاضطهاد: التحول الديني. أصبح اليهودي محاصراً في "عرقه"، الذي أصبح بمثابة وصمة عار أبدية. لقد أظهرت معاداة السامية الحديثة أن المشكلة ليست في ما يفعله اليهودي أو ما يؤمن به، بل في مجرد وجوده. وهذا هو المنطق الذي سيصل إلى نهايته الحتمية في معسكرات الإبادة النازية.

بروتوكولات حكماء صهيون

في مطلع القرن العشرين، ظهر كتاب مزور سيصبح بمثابة "الكتاب المقدس" لمعاداة السامية الحديثة، وسيقدم "الدليل" الذي طالما بحث عنه الكارهون لإثبات أن اليهود يتآمرون للسيطرة على العالم. هذا الكتاب هو "بروتوكولات حكماء صهيون". ورغم أنه ثبت بشكل قاطع أنه تزوير مفضوح، إلا أنه لا يزال حتى يومنا هذا أحد أكثر النصوص تأثيراً في تاريخ الكراهية، وقد لعب دوراً محورياً في التحضير النفسي للهولوكوست.

أ. أصل التزوير: من هجاء سياسي إلى مؤامرة عالمية

"البروتوكولات" هي في الأصل ليست سوى سرقة أدبية مشوهة لكتاب فرنسي صدر عام 1864 بعنوان "حوار في الجحيم بين مونتسكيو ومكيافيلي"، كتبه موريس جولي كسخرية سياسية ضد حكم نابليون الثالث. لا يأتي الكتاب على ذكر اليهود إطلاقاً. لكن في أواخر القرن التاسع عشر، قامت الشرطة السرية للقيصر الروسي (الأوخرانا) بسرقة هذا النص، وإعادة صياغته ليظهر وكأنه محاضر لجلسات سرية عقدها "حكماء صهيون" (وهم قادة يهود مزعومون)، يخططون فيها لتدمير الحضارة المسيحية والسيطرة على العالم من خلال نشر الفوضى، والسيطرة على الإعلام والمال، وإشعال الحروب والثورات. [5]

تم نشر "البروتوكولات" لأول مرة في روسيا عام 1903، واستخدمت لتبرير المذابح (البوغرومات) ضد اليهود. وبعد الثورة البلشفية عام 1917، تم الترويج لها على نطاق واسع من قبل "البيض" المناهضين للشيوعية، الذين ادعوا أن الثورة كانت جزءاً من المؤامرة اليهودية العالمية (خاصة وأن العديد من قادة البلاشفة، مثل تروتسكي، كانوا

من أصل يهودي). من روسيا، انتشرت "البروتوكولات" إلى جميع أنحاء العالم، وتُرجمت إلى عشرات اللغات. وقد وجدت صدى كبيراً بشكل خاص في ألمانيا المهزومة بعد الحرب العالمية الأولى، حيث استخدمها النازيون كدليل على أن اليهود هم المسؤولون عن هزيمة ألمانيا.

ب. سيكولوجية نظرية المؤامرة

ما الذي جعل "البروتوكولات" مؤثرة إلى هذا الحد، رغم سخافتها الواضحة؟ السبب يكمن في أنها تقدم تفسيراً بسيطاً وشاملاً لعالم معقد ومربك. ففي أوقات الأزمات الاقتصادية والاضطرابات السياسية، يبحث الناس عن كبش فداء، عن عدو واضح يمكن تحميله مسؤولية كل المشاكل. و"البروتوكولات" تقدم هذا العدو على طبق من ذهب: اليهودي المتآمر الذي يعمل في الخفاء. إنها تحول المخاوف الغامضة والقلق المنتشر إلى كراهية مركزة وموجهة. [6]

لقد كانت "البروتوكولات" فعالة بشكل خاص لأنها جمعت كل الصور النمطية السلبية عن اليهود التي تراكمت عبر القرون، ووضعتها في إطار نظرية مؤامرة كبرى. فهي تستغل

الصورة النمطية لليهودي كمرابٍ للادعاء بأنهم يسيطرون على المال العالمي. وتستغل نجاحهم في المهن الفكرية للادعاء بأنهم يسيطرون على الإعلام والفكر. وتستغل شبكاتهم العالمية للادعاء بأنهم حكومة سرية عابرة للحدود. لقد كانت "البروتوكولات" بمثابة التتويج لكل الكراهية التي سبقتها، حيث حولت اليهودي من مجرد "كافر" أو "عرق منحط" إلى "سيد المؤامرة" الذي يقف وراء كل شر في العالم.

هذه الصورة لليهودي كقوة شيطانية خفية ومنظمة هي التي ستمكن النازيين لاحقاً من تبرير "الحل النهائي". فإذا كان اليهود يتآمرون لتدمير العالم، فإن القضاء عليهم لا يصبح مجرد جريمة كراهية، بل يصبح واجباً "دفاعياً" لحماية البشرية. لقد قدمت "البروتوكولات" الأساس الأيديولوجي للإبادة الجماعية.

البوغرومات في روسيا وعودة العنف الجماعي

بينما كان يهود أوروبا الغربية يجربون مرارة معاداة السامية "المتحضرة" في شكل التمييز وقضايا مثل قضية دريفوس، كان إخوانهم في أوروبا الشرقية، وخاصة في الإمبراطورية الروسية، يواجهون شكلاً أكثر وحشية وبدائية من الكراهية: البوغروم (Pogrom). كلمة "بوغروم" هي كلمة روسية تعني "التدمير" أو "إحداث الشغب"، وأصبحت تستخدم

لوصف الهجمات الجماعية العنيفة التي كانت تشنها الجماهير الغاضبة على الأحياء اليهودية، غالباً بتحريض أو تواطؤ من السلطات.

أ. "قوانين مايو" وبداية العصر المظلم

كانت الإمبراطورية الروسية تضم أكبر تجمع يهودي في العالم في القرن التاسع عشر، يعيش معظمهم في منطقة واسعة في غرب الإمبراطورية تُعرف بـ"نطاق الاستيطان" (Pale of Settlement)، حيث كان يُسمح لهم بالإقامة. بعد اغتيال القيصر ألكسندر الثاني عام 1881 (وهو الحادث الذي تم إلقاء اللوم فيه على اليهود بشكل غير مباشر)، بدأت موجة هائلة من البوغرومات اجتاحت أكثر من 200 جالية يهودية. لم تكتف السلطات بالوقوف موقف المتفرج، بل قامت في عام 1882 بإصدار ما يُعرف بـ"قوانين مايو"، وهي مجموعة من القوانين التمييزية التي قيدت بشدة أماكن إقامة اليهود، والمهن التي يمكنهم ممارستها، ونسبة التحاقهم بالجامعات. [7]

كانت هذه القوانين، مع البوغرومات المستمرة، بمثابة إعلان حرب على يهود روسيا. لقد أصبحوا محاصرين في "نطاق الاستيطان" الفقير والمكتظ، ومحرومين من أي فرصة

للترقي الاجتماعي أو الاقتصادي، ويعيشون في خوف دائم من هجمات الغوغاء. لقد كانت هذه التجربة بمثابة عودة إلى أحلك أيام العصور الوسطى.

ب. مذبحة كيشينيف (1903): الصدمة التي هزت العالم

كانت أبشع وأشهر هذه البوغرومات هي مذبحة كيشينيف (عاصمة مولدوفا الحالية)، التي وقعت في عيد الفصح عام 1903. بعد حملة تحريض واسعة في الصحافة المحلية، اتهمت اليهود بقتل طفل مسيحي (وهي نسخة حديثة من فرية الدم)، انقض الغوغاء على الحي اليهودي لمدة يومين، فقتلوا 49 يهودياً، وجرحوا المئات، واغتصبوا النساء، ودمروا ونهبوا أكثر من 1500 منزل ومتجر. [8]

كانت وحشية مذبحة كيشينيف، التي تم توثيقها بالصور والتقارير الصحفية، بمثابة صدمة للعالم، وأثارت احتجاجات واسعة في أوروبا والولايات المتحدة. لكن بالنسبة لليهود، كانت الصدمة أعمق. لقد أظهرت أن لا مكان آمناً لهم، حتى في القرن العشرين. الشاعر القومي اليهودي حاييم نحمان بياليك، الذي زار كيشينيف بعد المذبحة، كتب قصيدته الملحمية "في مدينة الذبح"، التي لم تكن مجرد رثاء للضحايا، بل كانت صرخة

غضب ضد سلبية اليهود الذين وقفوا مكتوفي الأيدي وهم يُذبحون، ودعوة إلى الدفاع عن النفس ورفض مصير الضحية. أصبحت قصيدة بياليك بمثابة "نشيد" للجيل الجديد من اليهود الذين رفضوا الخنوع، والذين رأوا في الهجرة (إلى أمريكا أو فلسطين) وفي الثورة الحل الوحيد. [9]

ج. الهجرة الكبرى وولادة الدفاع الذاتي

كان رد الفعل المباشر على البوغرومات و"قوانين مايو" هو موجة هجرة ضخمة لم يسبق لها مثيل. بين عامي 1881 و1914، هاجر أكثر من مليوني يهودي من الإمبراطورية الروسية، معظمهم إلى الولايات المتحدة، التي أصبحت المركز اليهودي الأكبر في العالم. لكن أقلية صغيرة، ولكنها مؤثرة، اختارت وجهة أخرى: فلسطين. كانت هذه هي "العليا الأولى" و"العليا الثانية"، موجات الهجرة الصهيونية المبكرة التي ستضع الأساس للدولة اليهودية المستقبلية. كان هؤلاء المهاجرون الشباب، الذين كانوا مشبعين بالأفكار الاشتراكية والقومية، هم الذين سيؤسسون المستوطنات الزراعية (الكيبوتسات) وأولى منظمات الدفاع الذاتي المسلحة، مثل "هاشومير" (الحارس). [10]

لقد تعلم يهود روسيا الدرس بالطريقة الصعبة: لا يمكن الاعتماد على حماية السلطات، ولا على تعاطف العالم. القوة وحدها هي التي تحمي. لقد ولد من رحم البوغرومات "اليهودي الجديد"، وهو يهودي يرفض أن يكون ضحية، ويحمل المحراث في يد والبندقية في اليد الأخرى. هذه الصورة لليهودي المقاتل، التي كانت غريبة تماماً عن تجربة الشتات، ستصبح هي الصورة المركزية في الأيديولوجية الصهيونية. لقد كانت البوغرومات الروسية هي التدريب العملي الذي أعد اليهود نفسياً وعملياً للمشروع الاستيطاني العنيف الذي سيقومون به في فلسطين.

من الاندماج إلى القومية المتطرفة

إن ظهور معاداة السامية الحديثة في القرن التاسع عشر لم يكن مجرد استمرار للكراهية القديمة، بل كان تحولاً نوعياً، أدى إلى انهيار استراتيجية البقاء التي اعتمدها اليهود لقرون (التكيف والاندماج)، وفتح الباب أمام استراتيجية جديدة وجذرية: القومية السياسية. يمكن فهم هذا التحول من خلال ثلاثة مفاهيم أساسية:

"نرجسية الجروح الصغيرة" (Narcissism of Minor Differences): استخدم سيغموند فرويد هذا المصطلح لوصف كيف أن العداء يكون في أشده بين الجماعات القريبة جداً من بعضها البعض، والتي تبالغ في إبراز الفروق الطفيفة بينها لتأكيد هويتها. يمكن تطبيق هذا المفهوم على معاداة السامية الحديثة. فكلما حاول اليهود الاندماج وأصبحوا أكثر شبهاً بجيرانهم الأوروبيين، زادت الكراهية ضدهم. كان نجاحهم في تبني الثقافة واللغة والأزياء الأوروبية هو الذي جعلهم يبدون كـ"منافس" خطير، كـ"شبيه" يهدد الهوية "الأصلية" للأمة. لقد كان اليهودي المندمج أكثر إثارة للريبة من يهودي الغيتو التقليدي، لأنه كان "عدواً داخلياً" يصعب تمييزه. هذه الكراهية التي تولدت من القرب، وليس من البعد، هي التي قضت على أمل الاندماج.

"التحول من طبقة إلى عرق" (From Class to Race): يرى الفيلسوف سلافوي جيجيك أن معاداة السامية الحديثة هي نتاج للرأسمالية. ففي النظام الرأسمالي، تكون علاقات الاستغلال مجردة وغير مرئية. ويأتي المعادي للسامية ليقدم "تفسيراً" بسيطاً لهذا الاستغلال، من خلال تجسيده في شخصية اليهودي. يتم تحويل الصراع الطبقي المجرد إلى صراع عرقي ملموس. فاليهودي يصبح هو "الرأسمالي" المتآمر الذي يمتص دماء

العمال. هذا التحليل يفسر لماذا ازدهرت معاداة السامية في أوقات الأزمات الاقتصادية، ولماذا تم استخدامها من قبل كل من اليمين واليسار المتطرف. لقد كانت معاداة السامية بمثابة "اشتراكية الأغبياء"، طريقة سهلة لتوجيه غضب الجماهير بعيداً عن بنية النظام الرأسمالي، وتوجيهه نحو كبش فداء عرقي. [11]

"الصهيونية كصورة مرآة لمعاداة السامية" (Zionism as a Mirror Image of Antisemitism): لقد قبلت الصهيونية، بشكل مأساوي، بالفرضية الأساسية لمعاداة السامية: وهي أن اليهود هم شعب (أو عرق) منفصل، لا يمكنهم العيش بسلام بين الشعوب الأخرى. لقد نظر الصهاينة الأوائل إلى المعادي للسامية وقالوا له: "أنت على حق. نحن غرباء هنا، ولن نكون أبداً فرنسيين أو ألماناً حقيقيين. الحل الوحيد هو أن نغادر ونؤسس دولتنا الخاصة". [12] بهذا المعنى، كانت الصهيونية هي الوجه الآخر لعملة معاداة السامية. كلاهما يرفض فكرة الاندماج، وكلاهما يؤمن بأن اليهود والأغيار لا يمكن أن يتعايشوا. لقد كانت الصهيونية هي استسلام لمنطق الكراهية، ومحاولة للهروب منه عن طريق تبنيه وتحويله إلى مشروع سياسي. لقد كانت محاولة لحل "المسألة

اليهودية" ليس بتغيير العالم، بل بالانفصال عنه. وهذا هو المنطق الذي سيقود حتماً إلى الصدام مع الشعب الذي كان يعيش في الأرض التي اختارها الصهاينة لتكون ملاذهم.

باختصار، لقد كانت معاداة السامية الحديثة هي القابلة التي ولّدت الصهيونية السياسية. لقد حطمت وهم الاندماج، وأعادت تعريف الهوية اليهودية على أسس عرقية وقومية، وقدمت المبرر النفسي والسياسي للمشروع الانفصالي. لقد تعلم اليهود من أعدائهم الجدد أن العالم محكوم بمنطق القوة والعرق، وقرروا أن يلعبوا اللعبة بنفس القواعد.

موت الأمل في الاندماج

يمثل القرن التاسع عشر فترة من التحولات الجذرية في تاريخ اليهود، حيث انتقلوا من الأمل الكبير في التحرر إلى اليأس المطلق من الاندماج. يمكن تلخيص هذا التحول المأساوي في النقاط التالية:

وهم التحرر: قدم عصر التحرر لليهود حقوق المواطنة، لكنه طالبهم في المقابل بالتخلي عن هويتهم الجماعية، وهي صفقة أثبتت أنها فاشلة.

ولادة العدو الجديد: تحولت الكراهية الدينية القديمة إلى معاداة سامية حديثة، تستند إلى مفهوم "العرق"، مما جعل اليهودي "آخر" بشكل مطلق، وأغلق أمامه باب الخلاص من خلال التحول الديني.

نظرية المؤامرة كأيديولوجيا: قدمت "بروتوكولات حكماء صهيون" المزورة الأساس الأيديولوجي لمعاداة السامية، حيث صورت اليهود كقوة شيطانية تتآمر للسيطرة على العالم، مما برر استهدافهم.

عودة العنف البدائي: أظهرت البوغرومات في روسيا أن العنف الجماعي الوحشي لم ينته، وأن حياة اليهود لا تزال رخيصة، مما دفع الملايين إلى الهجرة، وأقنع أقلية مؤثرة بأن القوة هي الحل الوحيد.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: كيف أدى فشل الاندماج وظهور معاداة السامية العرقية إلى تحويل الصهيونية من فكرة هامشية إلى حركة سياسية جماهيرية؟

إذا كانت معاداة السامية في القرن التاسع عشر قد قتلت الأمل، فإن ما حدث في منتصف القرن العشرين سيقتل الروح نفسها. فكل أشكال الكراهية والاضطهاد التي تراكمت عبر القرون ستصل إلى ذروتها المنطقية والمروعة في الهولوكوست. هذه الإبادة الجماعية المنظمة، التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية، لن تترك لليهود أي خيار. ستصبح فكرة الدولة اليهودية، التي كانت مجرد خيار واحد من بين عدة خيارات، هي الضرورة المطلقة، والحل الوحيد الذي لا بديل له في نظر الغالبية الساحقة من اليهود والزعماء الغربيين. الفصل التالي، "الهولوكوست: نقطة التحول الكبرى"، سيحلل كيف أن أكبر مأساة في تاريخ اليهود ستصبح هي أقوى سلاح في أيديهم لتحقيق حلمهم القومي.

مراجع الفصل الخامس

- [1] *Begley, L. (2009). Why the Dreyfus Affair matters. Yale University Press.*
- [2] *Herzl, T. (1988). The Jewish state. Dover Publications.*
- [3] *Birnbaum, P. (1996). The Jews of the Republic: A political history of state Jews in France from Gambetta to Vichy. Stanford University Press.*
- [4] *Lindemann, A. S. (1997). Esau's tears: Modern anti-Semitism and the rise of the Jews. Cambridge University Press.*
- [5] *Cohn, N. (2005). Warrant for genocide: The myth of the Jewish world conspiracy and the Protocols of the Elders of Zion. Serif.*
- [6] *Hofstadter, R. (1965). The paranoid style in American politics. In The paranoid style in American politics and other essays (pp. 3-40). Harvard University Press.*

- [7] *Klier, J. D., & Lambroza, S. (Eds.). (1992). Pogroms: Anti-Jewish violence in modern Russian history. Cambridge University Press.*
- [8] *Zipperstein, S. J. (2018). Pogrom: Kishinev and the tilt of history. Liveright.*
- [9] *Bialik, H. N. (2004). In the city of slaughter. In D. Aberbach (Trans.), Selected poems. Overlook Press.*
- [10] *Laqueur, W. (2003). A history of Zionism. Schocken Books.*
- [11] *Žižek, S. (1999). The superego and the act. In The ticklish subject: The absent centre of political ontology (pp. 21–88). Verso.*
- [12] *Raz-Krakotzkin, A. (1995). Exile within sovereignty: A critique of the "negation of exile" in Israeli culture. Mishkan, 23,* 23–48.

(٦)

الهولوكوست - نقطة التحول الكبرى

تحول ديفيد كوهين

المشهد الأول: محطة قطار وارسو، يوليو 1942. ديفيد كوهين، صبي في الثانية عشرة من عمره، يقف في طابور طويل لا يرى نهايته. يرتجف، ليس من البرد، بل من الخوف الذي يجمد أطرافه. يمسك بيد والدته بقوة، بينما يضع والده يده على كتفه في محاولة يائسة لطمأنته. على صدر كل منهم، خيطت نجمة داود صفراء، وصمة عار تحولهم إلى أهداف. عربات الماشية المكتظة تنتظرهم، ورائحة الخوف والموت تملأ الهواء. "أمي، إلى أين نحن ذاهبون؟" يهمس ديفيد بصوت مختنق. لا تجيبه الأم، بل تكتفي بعناقه، عناقاً أخيراً محملاً بكل حب العالم ويأسه. القطار يتحرك ببطء، متجهاً نحو المجهول، نحو معسكر الإبادة في تريبلينكا.

المشهد الثاني: مطار اللد، فلسطين، مايو 1948. ست سنوات فقط قد مرت، لكنها تبدو كأنها دهر. الشاب الذي يبلغ الآن الثامنة عشرة من عمره لم يعد اسمه ديفيد كوهين، بل أصبح "دوديك"، وهو اسم عبري يرمز إلى الولادة الجديدة. لم يعد يرتدي النجمة الصفراء كعلامة للخزي، بل يرتدي بفخر بزة طيار مقاتل، وعلى صدره نجمة داود زرقاء، رمز القوة والسيادة. هو الناجي الوحيد من عائلته، التي ابتلعتها أفران الغاز. يجلس في قمرة قيادة طائرة مقاتلة من طراز "ميسرشميت"، المفارقة أن الطائرة نفسها هي من بقايا سلاح الجو النازي. ينظر إلى الخريطة أمامه، ثم إلى القرية الفلسطينية الصغيرة التي تقع تحت جناحه. يتلقى الأمر عبر جهاز اللاسلكي. بصوت ثابت لا يرتجف، يرد: "الأمر مفهوم". يضغط على زر، وتتساقط القنابل على المنازل الطينية، محولة إياها إلى جحيم من نار ودخان. في تلك اللحظة، لم يكن دوديك يرى أطفالاً ونساءً ورجالاً يهربون من بيوتهم المحترقة. كان يرى أشباح تريبلينكا، كان يرى وجوه حراس المعسكر، كان يسمع صرخات والديه. كان يرى في تدمير هذه القرية انتقاماً لماضيه، وضماناً لمستقبله. "هذه أرضنا"، يتمتم لنفسه، "ولن نُطرد منها مرة أخرى".

لم يكن دوديك يدرك، أو ربما لم يرد أن يدرك، أن في تلك القرية التي يقصفها، كان هناك أطفال في نفس عمره عام 1942. أطفال يحملون مفاتيح بيوتهم القديمة، ويهربون مع عائلاتهم نحو المجهول، ويسألون أمهاتهم بنفس الصوت المختنق: "إلى أين نحن ذاهبون؟". الفرق الوحيد هذه المرة، أن دوديك هو من يقود القطار.

ست سنوات فقط فصلت بين تحرير أوشفيتز وتأسيس دولة إسرائيل. ست سنوات حولت الضحية الأعظم في التاريخ إلى قوة احتلال. كيف حدث هذا التحول الصاعق؟ كيف تمكنت المعاناة الأشد قسوة من أن تنتج ظلماً جديداً؟ هذا الفصل لا يسعى إلى التقليل من هول الهولوكوست، بل إلى فهم كيف أن هذه المأساة التي لا توصف، والتي تمثل الحضيض الأخلاقي للحضارة الغربية، قد تم استخدامها وتوظيفها لتصبح المبرر النهائي لمشروع سياسي، مشروع حوّل الضحية إلى جلاد، وأنشأ مأساة جديدة على أنقاض المأساة القديمة.

من الاضطهاد إلى الإبادة

لم تكن الهولوكوست حدثاً مفاجئاً أو انحرافاً تاريخياً، بل كانت الذروة المنطقية لقرون من الكراهية، والتتويج لعملية طويلة من نزع الإنسانية عن اليهود. لقد اتبع النازيون

استراتيجية متدرجة، سلم من العنف يتصاعد خطوة بخطوة، كل خطوة تمهد الطريق لما هو أسوأ، حتى أصبح ما لا يمكن تصوره ممكناً، ثم روتينياً. لقد كانت عملية صناعة للضحية، تم فيها تجريد اليهود من كل شيء: ممتلكاتهم، حقوقهم، كرامتهم، وفي النهاية، حياتهم.

أ. السلم المتدرج للعنف: كيف تم تطبيع الإبادة؟

الإقصاء القانوني (1933-1935): مع وصول هتلر إلى السلطة، بدأت عملية عزل اليهود عن المجتمع الألماني. تم طردهم من الوظائف الحكومية، ومنعهم من ممارسة مهن مثل الطب والمحاماة، وتقييد دخولهم إلى المدارس والجامعات. بلغت هذه المرحلة ذروتها في قوانين نورمبرغ (1935)، التي جردت اليهود من جنسيتهم الألمانية، وحرمت الزواج أو العلاقات الجنسية بين اليهود و"الآريين". لقد حولت هذه القوانين اليهود إلى مواطنين من الدرجة الثانية، غرباء في وطنهم. [1] كان الهدف هو جعل حياتهم لا تطاق، لدفعهم إلى الهجرة.

العنف المنظم (1938): في ليلة 9-10 نوفمبر 1938، تم الانتقال من الإقصاء القانوني إلى العنف الجسدي المنظم. في ما يُعرف بـ "ليلة البلور" (Kristallnacht) ، قامت فرق العاصفة النازية والغوغاء بمهاجمة المعابد والمتاجر والمنازل اليهودية في جميع أنحاء ألمانيا والنمسا. تم حرق مئات المعابد، وتدمير آلاف المتاجر، وقتل حوالي 100 يهودي، واعتقال 30,000 آخرين وإرسالهم إلى معسكرات الاعتقال لأول مرة. كانت "ليلة البلور" بمثابة رسالة واضحة: لم يعد هناك مكان آمن لليهود في ألمانيا. لقد كان إذلالاً علنياً، واختباراً لرد فعل المجتمع الألماني والعالم. وعندما جاء رد الفعل فاتراً، عرف النازيون أنهم يستطيعون المضي قدماً في خططهم. [2]

السجن الجماعي (1939-1941): مع اندلاع الحرب العالمية الثانية واحتلال بولندا، وقع ملايين اليهود الإضافيين تحت السيطرة النازية. لم يعد دفعهم إلى الهجرة خياراً، فبدأ النازيون في حشرهم في أحياء مغلقة ومكتظة في المدن الكبرى، تُعرف بـ "الغيتوات" . كان أكبرها غيتو وارسو، الذي حُشر فيه ما يقرب من نصف مليون يهودي في مساحة ضيقة. كانت الحياة في الغيتو جحيماً من الجوع والمرض والموت اليومي. لقد تم عزل اليهود تماماً عن العالم الخارجي، وتحويلهم إلى "أقل من بشر" في نظر

محاصريهم. كان الغيتو بمثابة محطة انتظار، يتم فيها تجويع اليهود وإضعافهم قبل إرسالهم إلى حتفهم. [3]

الإبادة الصناعية (1942-1945): في مؤتمر وانسي في يناير 1942، تم اتخاذ القرار الرسمي بتنفيذ "الحل النهائي للمسألة اليهودية"، وهو الاسم الرمزي لخطة إبادة كل يهود أوروبا. تم بناء شبكة من معسكرات الإبادة في بولندا المحتلة، أشهرها أوشفيتز-بيركيناو، تريبلينكا، سوبيبور، وبيلزك. تم تحويل القتل إلى عملية صناعية بيروقراطية. كان يتم نقل اليهود بالقطارات من جميع أنحاء أوروبا إلى هذه المعسكرات، حيث يتم إرسال القادرين على العمل إلى معسكرات العمل القسري، بينما يتم إرسال الغالبية العظمى (النساء والأطفال وكبار السن) مباشرة إلى غرف الغاز. كان يتم استخدام غاز "زيكلون ب"، وهو مبيد حشري، لقتلهم بشكل جماعي، ثم يتم حرق جثثهم في أفران ضخمة. لقد كانت آلة موت لم يسبق لها مثيل، تعمل بكفاءة صناعية مرعبة. [4] كان أدولف أيخمان، المسؤول عن تنظيم عمليات النقل، مثالاً لـ"عادية الشر" (كما وصفته حنة آرنت)، موظف بيروقراطي يؤدي عمله بكفاءة دون أن يشعر بأي كراهية شخصية، مجرد ترس في آلة الإبادة. [5]

هذا السلم المتدرج من العنف لم يكن ممكناً لولا تواطؤ أو صمت الملايين من الأوروبيين، الذين شاهدوا جيرانهم اليهود وهم يُطردون ويُذلون ويُرحّلون، ولم يفعلوا شيئاً. لقد أظهر الهولوكوست كيف يمكن لأمة "متحضرة" أن تنحدر إلى الحضيض الأخلاقي، وكيف يمكن للإنسان العادي أن يصبح جزءاً من آلة القتل.

من الصدمة إلى المقاومة

أمام هذه الآلة الوحشية، غالباً ما تُطرح الصورة النمطية لليهود على أنهم "ذهبوا كالخراف إلى الذبح"، مستسلمين لمصيرهم دون مقاومة. هذه الصورة، التي روج لها بعض الصهاينة الأوائل أنفسهم للتمييز بين "اليهودي القديم" السلبي و"اليهودي الجديد" المقاتل، هي صورة ظالمة وغير دقيقة تاريخياً. ففي وجه الإبادة، كانت هناك أطياف واسعة من المقاومة، تراوحت بين المقاومة المسلحة اليائسة والمقاومة الروحية التي لا تقل عنها بطولة. لقد كانت هذه المقاومات هي البذور التي ستنمو منها القوة العسكرية والنفسية للدولة المستقبلية.

أ. أطياف المقاومة: "لن نذهب كالخراف للذبح"

المقاومة المسلحة: رغم انعدام التكافؤ المطلق في القوة، ورغم ظروف الجوع والمرض، اندلعت أعمال مقاومة مسلحة في العديد من الغيتوات والمعسكرات. كانت أشهرها وأكبرها انتفاضة غيتو وارسو في أبريل 1943. عندما بدأ النازيون في تصفية الغيتو، قررت مجموعة من الشباب، المسلحين ببضعة مسدسات وقنابل يدوية، القتال حتى الموت. بقيادة مردخاي أنيليفيتش، البالغ من العمر 24 عاماً، صمد المقاتلون اليهود لمدة شهر تقريباً ضد الجيش الألماني المدجج بالسلاح. كانوا يعرفون أنهم لا يملكون أي فرصة للنجاح، لكنهم قاتلوا من أجل "شرف الأمة اليهودية"، ولكي لا يقال إنهم ماتوا دون قتال. أصبحت انتفاضة غيتو وارسو رمزاً للبطولة اليهودية، وشعارها "لن نذهب كالخراف للذبح" أصبح عقيدة للجيل الجديد. [6] كما وقعت انتفاضات في معسكرات الإبادة نفسها، مثل سوبيبور وتريبلينكا، حيث نجح بعض السجناء في قتل الحراس والهرب. بالإضافة إلى ذلك، انضم عشرات الآلاف من اليهود الذين تمكنوا من الهرب من الغيتوات إلى حركات المقاومة (البارتيزان) في غابات أوروبا الشرقية، حيث تعلموا فنون حرب العصابات، واكتسبوا خبرة عسكرية ستكون ثمينة لاحقاً. [7]

المقاومة الروحية: إلى جانب المقاومة المسلحة، كانت هناك مقاومة يومية لا تقل أهمية، تهدف إلى الحفاظ على الكرامة الإنسانية والروح اليهودية في وجه محاولات محوها. كان الناس يخاطرون بحياتهم لأداء الطقوس الدينية سراً، أو لتعليم أطفالهم في مدارس سرية في أقبية الغيتو. كان هناك أطباء يعالجون المرضى دون أي معدات، وممثلون يقدمون عروضاً مسرحية في العليات. كانت أبرز أشكال هذه المقاومة هي عملية التوثيق. في غيتو وارسو، قام مؤرخ يدعى إيمانويل رينجلبلوم بتنظيم أرشيف سري أطلق عليه اسم "أونيغ شابات" (بهجة السبت)، قام فيه هو وزملاؤه بجمع آلاف الوثائق والشهادات واليوميات التي توثق الحياة والموت في الغيتو. قبل تدمير الغيتو، تم دفن هذا الأرشيف في صناديق معدنية تحت الأنقاض. تم العثور على جزء منه بعد الحرب، ليصبح أحد أهم المصادر عن الهولوكوست. لقد أدرك رينجلبلوم وزملاؤه أن المعركة الأهم هي معركة الذاكرة، وأن توثيق الجريمة هو شكل من أشكال المقاومة، وربما الانتقام. [8]

ب. دروس البقاء القاسية:

لم تكن الاستجابة للهولوكوست دائماً بطولية. ففي الظروف اللاإنسانية للمعسكرات والغيتوات، اضطر الكثيرون إلى اتخاذ خيارات أخلاقية مستحيلة من أجل البقاء. كان

النازيون يعينون "مجالس يهودية" (Judenräte) لإدارة الغيتوات، ووضعوها أمام خيارات مروعة، مثل تحديد من سيتم إرساله إلى معسكرات الموت. هل كان هؤلاء المتعاونون خونة، أم أنهم كانوا يحاولون إنقاذ ما يمكن إنقاذه؟ هذا الجدل لا يزال مستمراً حتى اليوم. [9] لقد تعلم اليهود من الهولوكوست دروساً قاسية عن طبيعة القوة. تعلموا أن العالم لا يحترم إلا القوة، وأن الأخلاق هي ترف لا يملكه الضعفاء. تعلموا أن البقاء يتطلب أحياناً اتخاذ قرارات قاسية، والتعاون مع العدو، والتضحية بالبعض من أجل إنقاذ الكل. هذه الدروس المظلمة، التي تعلموها في أحلك الظروف، ستشكل العقلية "البرغماتية" والصلبة لقادة الدولة الجديدة.

العالم يشاهد الخذلان الذي علّم الدرس الأخير

لم تكن الهولوكوست جريمة ارتكبها النازيون وحدهم، بل كانت أيضاً جريمة ارتكبها العالم بصمته وتواطئه. فبينما كانت آلة الموت تعمل بأقصى طاقتها، وقف العالم "المتحضر" موقف المتفرج، عالماً بما يحدث، ولكنه غير راغب في التحرك. هذا الخذلان العالمي، من قبل الحلفاء والفاتيكان والدول المحايدة، كان هو الدرس الأخير والأكثر قسوة الذي تعلمه اليهود: لا يمكن الاعتماد على أحد. أنتم وحدكم في هذا العالم.

أ. المعرفة المبكرة والتجاهل المتعمد

متى علم الحلفاء (بريطانيا والولايات المتحدة) بخطة الإبادة؟ الأدلة التاريخية تشير إلى أنهم علموا بذلك في وقت مبكر جداً. ففي أغسطس 1942، وصلت معلومات مؤكدة من مصادر في سويسرا تفيد بأن النازيين يخططون لإبادة كل يهود أوروبا. وفي ديسمبر من نفس العام، أصدر الحلفاء بياناً مشتركاً يدين "السياسة الوحشية للإبادة بدم بارد"، لكنهم لم يتخذوا أي إجراء عملي. [10]

كانت شهادة يان كارسكي، وهو مقاوم بولندي تسلل إلى غيتو وارسو وأحد معسكرات الإبادة، ثم سافر إلى لندن وواشنطن في عام 1942، من أكثر الشهادات إثارة للصدمة. التقى كارسكي بوزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن، وبالرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت، ونقل لهم شهادته المروعة. لكنه قوبل بالتشكيك وعدم التصديق. قال له قاضي المحكمة العليا الأمريكية فيليكس فرانكفورتر (وهو يهودي): "أنا لا أقول إن هذا الشاب يكذب. أنا أقول إنني غير قادر على تصديقه". [11] لقد كان ما يصفه كارسكي أكبر من أن يستوعبه العقل.

ب. الخذلان المنظم: "لا أحد يريدنا"

لم يكن التجاهل هو الشكل الوحيد للخذلان، بل كان هناك خذلان منظم وممنهج، بدأ حتى قبل الحرب:

مؤتمر إيفيان (1938): دعا الرئيس روزفلت إلى مؤتمر دولي في مدينة إيفيان الفرنسية لمناقشة مشكلة اللاجئين اليهود من ألمانيا والنمسا. حضرت 32 دولة، لكن لم توافق أي منها (باستثناء جمهورية الدومينيكان) على زيادة حصصها من المهاجرين. كانت الرسالة واضحة: العالم يتعاطف مع اليهود، لكن لا أحد يريدهم. [12]

سفينة سانت لويس (1939): حملت هذه السفينة أكثر من 900 لاجئ يهودي هاربين من ألمانيا. تم رفض دخولهم إلى كوبا، ثم إلى الولايات المتحدة وكندا. اضطرت السفينة للعودة إلى أوروبا، وقُتل أكثر من ربع ركابها لاحقاً في الهولوكوست. أصبحت هذه السفينة رمزاً للامبالاة القاتلة للعالم. [13]

قصف أوشفيتز: في عام 1944، عندما كانت الإبادة في أوجها، التقطت طائرات الاستطلاع الأمريكية صوراً واضحة لمعسكر أوشفيتز-بيركيناو، بما في ذلك غرف الغاز والأفران. طلبت المنظمات اليهودية مراراً وتكراراً من الحلفاء قصف خطوط السكك الحديدية المؤدية إلى المعسكر، أو قصف غرف الغاز نفسها. لكن الطلب قوبل بالرفض، بحجة أن ذلك سيحول الموارد عن المجهود الحربي الرئيسي. المفارقة أن الحلفاء قاموا بقصف مصانع قريبة من المعسكر، لكنهم تركوا آلة الموت تعمل دون إزعاج. [14]

صمت الفاتيكان: كان موقف البابا بيوس الثاني عشر من أكثر المواقف إثارة للجدل. فرغم أنه كان على علم بتفاصيل الإبادة، إلا أنه التزم الصمت العلني، ولم يدن النازيين بشكل مباشر. يجادل المدافعون عنه بأنه كان يعمل خلف الكواليس لإنقاذ اليهود، بينما يرى منتقدوه أن صمته كان بمثابة مباركة أخلاقية للجريمة. [15]

هذا الخذلان الشامل من كل القوى التي كان من الممكن أن تساعد، هو الذي رسخ في العقل اليهودي القناعة النهائية: الضمير العالمي هو مجرد وهم. القوانين الدولية لا تحمي الضعفاء. لا يوجد منقذ سوى القوة الذاتية. هذا الدرس، الذي كُتب بدماء ستة ملايين

يهودي، سيصبح هو المبدأ الموجه للسياسة الإسرائيلية: "يجب أن نحمي أنفسنا بأنفسنا، وبأي ثمن".

من معسكر الموت إلى معسكر الانتظار

في ربيع عام 1945، مع تقدم قوات الحلفاء في قلب أوروبا، بدأت أبواب الجحيم تُفتح. دخل الجنود السوفييت إلى أوشفيتز، والبريطانيون إلى بيرغن-بيلزن، والأمريكيون إلى بوخنفالد وداكاو. ما وجدوه هناك كان أكبر من قدرتهم على الاستيعاب، صوراً ستبقى محفورة في الذاكرة الإنسانية إلى الأبد. لقد كانت لحظة التحرير هي لحظة الكشف عن حجم الجريمة، ولكنها كانت أيضاً بداية مرحلة جديدة من المعاناة للناجين، وبداية التحول النفسي الذي سيقود مباشرة إلى فلسطين.

أ. لحظة الكشف: صدمة الضمير العالمي

كان الجنود الذين دخلوا المعسكرات أول من شاهد الحقيقة المروعة. وجدوا أكواماً من الجثث المتعفنة، وأفران حرق الموتى التي لا تزال دافئة، وغرفاً مليئة بالشعر البشري والنظارات والأحذية. والأهم من ذلك، وجدوا الناجين: هياكل عظمية حية، عيونهم

غائرة في جماجمهم، يرتدون ملابس السجن المخططة، يحدقون في محرريهم بنظرات فارغة تجمع بين الأمل واليأس. كان وزن الواحد منهم لا يتجاوز 30 كيلوغراماً. [16]

انتشرت صور وأفلام التحرير في جميع أنحاء العالم، لتصدم الضمير العالمي. لأول مرة، رأى الناس بأم أعينهم نتيجة معاداة السامية. لم تعد مجرد فكرة، بل أصبحت حقيقة مادية مروعة. هذه الصور هي التي خلقت شعوراً عميقاً بالذنب لدى الغرب، خاصة لدى الأمريكيين والبريطانيين، الذين شعروا بأنهم لم يفعلوا ما يكفي لإنقاذ اليهود. هذا الشعور بالذنب سيصبح عاملاً سياسياً قوياً في السنوات القليلة التالية، وسيتم استخدامه ببراعة من قبل الحركة الصهيونية للحصول على الدعم لإنشاء دولة يهودية.

ب. فوضى ما بعد التحرير: العودة المستحيلة

بالنسبة للناجين، لم يكن التحرير نهاية المعاناة، بل بدايتها. فبعد النشوة الأولى، جاءت الحقيقة المرة: لقد فقدوا كل شيء. عائلاتهم، منازلهم، مجتمعاتهم، كل شيء دُمر. لم يكن لديهم مكان يذهبون إليه. تم وضع مئات الآلاف منهم في "معسكرات للنازحين" (Displaced Persons camps)، التي كانت غالباً ما تكون في نفس ثكنات

معسكرات الاعتقال القديمة. لقد انتقلوا من معسكر موت إلى معسكر انتظار، لا يعرفون ماذا يخبئ لهم المستقبل. [17]

كانت العودة إلى ديارهم الأصلية في أوروبا الشرقية خياراً مستحيلاً. فالكثير من اليهود الذين حاولوا العودة إلى بولندا أو المجر أو أوكرانيا، ووجهوا بالعداء والعنف. فجيرانهم القدامى كانوا قد استولوا على ممتلكاتهم، ولم يكونوا راغبين في إعادتها. بل إن بوغرومات جديدة اندلعت بعد الحرب. كانت أشهرها بوغروم كيلسي في بولندا عام 1946، حيث قُتل أكثر من 40 ناجياً من الهولوكوست على يد حشد من البولنديين، بعد اتهامهم بفرية دم قديمة. [18] كانت الرسالة واضحة: حتى بعد الهولوكوست، لا تزال أوروبا لا تريدهم. لقد أصبحوا شعباً بلا أرض.

في هذه المعسكرات اليائسة، التي كانت تسمى بـ"الشتات الناجي"، أصبحت الصهيونية هي الأمل الوحيد. قام مبعوثون من فلسطين بتنظيم الحياة في المعسكرات، وأنشأوا مدارس لتعليم العبرية، ومزارع للتدريب على الزراعة. أصبحت فلسطين هي "أرض الميعاد" التي ستحل كل المشاكل. تم تنظيم شبكة هجرة سرية ضخمة، أطلق عليها اسم

"بريحا" (الهروب)، قامت بتهريب مئات الآلاف من الناجين عبر أوروبا إلى موانئ البحر المتوسط، حيث كانت السفن المتهالكة تنتظرهم لنقلهم إلى فلسطين، في تحد للحصار البريطاني. لقد أصبح هؤلاء الناجون، الذين لم يكن معظمهم صهاينة قبل الحرب، هم وقود الحركة الصهيونية، وجيشها المستقبلي. لقد كانوا يائسين، ولم يكن لديهم ما يخسرونه، وكانوا على استعداد للقتال من أجل الحصول على وطن.

من الألم إلى القوة السياسية

لم يكن الهولوكوست مجرد حدث تاريخي، بل أصبح بعد الحرب "صناعة" متكاملة، صناعة للذاكرة يتم من خلالها تحويل المعاناة التي لا توصف إلى رأسمال سياسي وأخلاقي لا ينضب. لقد تم تخليد ذكرى الهولوكوست (أو "الشوآه" بالعبرية) بشكل لم يسبق له مثيل، وتحويلها من مأساة خاصة بالشعب اليهودي إلى هوية مركزية له، وإلى سلاح فعال يستخدم لإسكات النقد، وابتزاز الشعور بالذنب الغربي، وتبرير المشروع الصهيوني.

أ. "الشوآه" كهوية جديدة: "لن ننسى ولن نسامح"

بعد الحرب، وبشكل تدريجي، حلت ذكرى الهولوكوست محل الدين كعنصر أساسي في الهوية اليهودية العلمانية. أصبح "تذكر" الهولوكوست واجباً مقدساً. تم بناء مئات المتاحف

والنصب التذكارية في جميع أنحاء العالم، أشهرها متحف ياد فاشيم في القدس، ومتحف الهولوكوست في واشنطن. تم إقرار يوم عالمي لإحياء ذكرى الهولوكوست (27 يناير، يوم تحرير أوشفيتز). أصبح تعليم الهولوكوست إلزامياً في المدارس في العديد من الدول الغربية. أصبح شعار "لن ننسى ولن نسامح" عقيدة الجيل الجديد. [19]

هذه العملية من "صناعة الذاكرة" لم تكن بريئة. فقد تم التركيز على جوانب معينة من الهولوكوست (مثل سلبية الضحايا، وتواطؤ العالم)، وتجاهل جوانب أخرى (مثل المقاومة اليهودية الواسعة، أو حقيقة أن ملايين غير اليهود قد قتلوا أيضاً على يد النازيين). تم تقديم الهولوكوست على أنه حدث فريد من نوعه، لا يمكن مقارنته بأي إبادة جماعية أخرى، مما منح ضحاياه مكانة أخلاقية استثنائية.

ب. التوظيف السياسي للمعاناة: "الهولوكوست يبرر كل شيء"

هذه المكانة الأخلاقية الاستثنائية تم توظيفها سياسياً ببراعة. لقد أصبح الهولوكوست هو المبرر النهائي لوجود دولة إسرائيل، والحجة التي لا يمكن دحضها. المنطق بسيط: لقد أثبت الهولوكوست أن اليهود لا يمكن أن يكونوا آمنين إلا في دولة خاصة بهم. لذلك، فإن

وجود إسرائيل هو ضرورة تاريخية لضمان "عدم تكرار" الهولوكوست. أي معارضة لوجود إسرائيل أو لسياساتها أصبحت تساوي، في هذا المنطق، الدعوة إلى هولوكوست جديد.

لقد أصبح الهولوكوست سلاحاً فعالاً ضد أي نقد يوجه لإسرائيل. فبمجرد أن ينتقد شخص ما سياسات الاحتلال أو معاملة الفلسطينيين، يتم اتهامه فوراً بـ"معاداة السامية". يتم الربط بشكل تلقائي بين نقد إسرائيل والكراهية التي أدت إلى أوشفيتز. هذه الاستراتيجية، التي يسميها نورمان فنكلستين "صناعة الهولوكوست"، تهدف إلى تحصين إسرائيل من أي مساءلة أخلاقية أو سياسية. [20]

كما تم استخدام الهولوكوست لابتزاز الشعور بالذنب لدى الغرب، وخاصة ألمانيا والولايات المتحدة. فقد قدمت ألمانيا تعويضات بمليارات الدولارات لإسرائيل وللناجين، والتزمت بدعم أمن إسرائيل بشكل غير مشروط. أما الولايات المتحدة، التي تشعر بالذنب لأنها لم تفعل ما يكفي لإنقاذ اليهود، فقد أصبحت الحامي والداعم الأكبر لإسرائيل، وتقدم لها مساعدات عسكرية واقتصادية ضخمة، وتستخدم حق النقض

(الفيتو) في مجلس الأمن لحمايتها من أي إدانة. لقد أصبح دعم إسرائيل وسيلة للغرب للتكفير عن خطاياه التاريخية. والمفارقة المأساوية هي أن هذا التكفير يتم على حساب شعب آخر، الشعب الفلسطيني، الذي لم يكن له أي دور في الهولوكوست، ولكنه هو الذي يدفع ثمنه.

التحول النفسي الجذري وولادة العقلية الجديدة

كان الأثر الأعمق للهولوكوست هو التحول النفسي الجذري الذي أحدثه في الوعي اليهودي. لقد دمرت هذه الصدمة كل الافتراضات القديمة عن العالم وعن مكانة اليهود فيه، وولّدت عقلية جديدة، عقلية الحصار والقوة، التي ترى في العنف الاستباقي والقبضة الحديدية الضمان الوحيد للبقاء. لقد ولد من رحم أوشفيتز "اليهودي الجديد"، المحارب الذي يرفض أن يكون ضحية مرة أخرى، حتى لو تطلب ذلك أن يصبح هو نفسه معتدياً.

أ. من الضحية إلى المحارب: "لن يحدث ذلك مرة أخرى"

أصبح شعار "لن يحدث ذلك مرة أخرى" (Never Again) هو العقيدة المركزية لليهود بعد الهولوكوست. لكن هذا الشعار كان له معنيان. المعنى العالمي هو "لن نسمح بحدوث

إبادة جماعية أخرى لأي شعب". أما المعنى القومي الخاص، والذي أصبح هو المهيمن، فهو "لن نسمح بحدوث ذلك لنا مرة أخرى". هذا التحول من "لن يحدث لأحد" إلى "لن يحدث لنا" هو جوهر التحول النفسي. لقد تم تخصيص الدرس، وتحويله من دعوة إنسانية عالمية إلى مشروع قومي خاص. [21]

هذا المشروع القومي تطلب التخلي عن صورة "اليهودي القديم"، يهودي الشتات الذي كان يعتمد على الصلاة والتكيف للبقاء. وبدلاً منه، تم خلق صورة "اليهودي الجديد"، المحارب، المزارع، الرجل القوي الذي لا يخشى استخدام القوة للدفاع عن نفسه وأرضه. أصبحت القوة العسكرية هي القيمة العليا، والضعف هو الخطيئة الكبرى. لقد تم تبني "عقيدة القوة" التي تقول إن العالم لا يحترم إلا الأقوياء، وأن البقاء للأقوى. هذه هي العقلية التي ستبني الجيش الإسرائيلي، وتخوض حروباً متتالية، وتبرر أي عمل عنف على أنه "دفاع عن النفس".

ب. الصدمة العابرة للأجيال والعدوان الاستباقي

لم تنته صدمة الهولوكوست مع جيل الناجين، بل انتقلت إلى الأجيال التالية، في ما يعرف بـ"الصدمة العابرة للأجيال" (Transgenerational Trauma). فالأطفال الذين نشأوا على قصص الرعب التي رواها آباؤهم وأجدادهم، حملوا معهم هذا الإرث من الخوف والغضب والشعور بالذنب. لقد نشأوا في ظل "عقلية الحصار"، وهي قناعة راسخة بأن "العالم كله ضدنا"، وأن أي تهديد، مهما كان صغيراً، يمكن أن يكون بداية لهولوكوست جديد. [22]

هذه العقلية، التي تجمع بين الشعور بالاضطهاد والشعور بالتفوق الأخلاقي، أدت إلى حالة من "فرط اليقظة" (Hypervigilance)، وميل إلى تفسير كل نقد على أنه تهديد وجودي. وأدت أيضاً إلى تبرير "الضربات الاستباقية" و"الإفراط في رد الفعل". فالمنطق يقول: "يجب أن نضربهم قبل أن يضربونا"، و"يجب أن نرد بقوة غير متناسبة لردعهم عن التفكير في مهاجمتنا مرة أخرى". هذا هو المنطق الذي يبرر قصف المدنيين، وهدم المنازل، والعقاب الجماعي. إنه منطق الضحية السابقة التي أصبحت مهووسة بفكرة القوة، والتي ترى في كل جار عدواً محتملاً، وفي كل طفل فلسطيني يحمل حجراً جندياً نازياً مستقبلياً. لقد تحولت الصدمة إلى عدوان، والخوف إلى قسوة.

الصدمة كمحرك للتاريخ

إن العلاقة بين الهولوكوست وتأسيس دولة إسرائيل هي علاقة معقدة ومحورية، لا يمكن فهمها دون تحليل نفسي عميق. لقد عملت الصدمة التي لا توصف للهولوكوست كمحرك هائل للتاريخ، حيث أعادت تشكيل الهوية اليهودية، وغيرت موازين القوى السياسية، وخلقت واقعاً جديداً على الأرض. يمكن فهم هذه الديناميكية من خلال ثلاثة مفاهيم تحليلية:

"التمثيل الإجباري" (Acting Out): في التحليل النفسي، يشير مصطلح "التمثيل الإجباري" إلى قيام الشخص الذي تعرض لصدمة بإعادة تمثيل جوانب من هذه الصدمة بشكل لا واعٍ، ولكن مع عكس الأدوار. فالشخص الذي كان ضحية للعنف قد يصبح هو نفسه عنيفاً، في محاولة يائسة للسيطرة على الصدمة واستعادة الشعور بالقوة. يمكن تطبيق هذا المفهوم على السلوك الإسرائيلي بعد الهولوكوست. لقد تم عكس سيناريو الهولوكوست بشكل مأساوي. فاليهود الذين تم حشرهم في الغيتوات، أصبحوا هم من يحشرون الفلسطينيين في غيتوات محاصرة. والذين تم طردهم من بيوتهم، أصبحوا هم

من يطردون الفلسطينيين من بيوتهم. والذين تم تجريدهم من إنسانيتهم، أصبحوا هم من يمارسون سياسات تجرد الفلسطينيين من إنسانيتهم. إنها ليست مقارنة بين حجم المعاناة، بل هي ملاحظة للنمط النفسي: الضحية السابقة، في محاولتها للشفاء من صدمتها، تقوم بإعادة إنتاج نفس بنية الصدمة، ولكن هذه المرة وهي في موقع القوة. [23]

"الاستثناء" كقانون (The Exception as Law): يرى الفيلسوف الإيطالي جورجيو أغامبين أن السمة المميزة للسياسة الحديثة هي القدرة على إعلان "حالة الاستثناء"، حيث يتم تعليق القانون العادي باسم "الضرورة الأمنية". لقد أصبح الهولوكوست هو المبرر المطلق لإعلان إسرائيل كـ"حالة استثناء" دائمة. فباسم منع هولوكوست جديد، يُسمح لإسرائيل بتعليق القانون الدولي، وانتهاك حقوق الإنسان، وممارسة العنف الذي لا يُسمح به لأي دولة أخرى. لقد أصبح أمن إسرائيل هو القيمة العليا التي تتجاوز كل الاعتبارات الأخرى. والفلسطينيون هم الذين يعيشون في هذه "الحالة الاستثنائية"، حيث حياتهم "عارية" (Bare Life)، يمكن أن تُزهق دون أن يعتبر ذلك جريمة، لأنها تُزهق باسم أمن الضحية السابقة. [24]

الفلسطينيون كـ"فاتورة" للضمير الأوروبي: لم يكن تأسيس إسرائيل مجرد مشروع يهودي، بل كان أيضاً مشروعاً أوروبياً. لقد كان وسيلة لأوروبا للتخلص من "المسألة اليهودية" ومن الشعور بالذنب تجاه الهولوكوست في آن واحد. فمن خلال دعم إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، تخلصت أوروبا من الأقلية اليهودية التي كانت دائماً "مشكلة"، وفي الوقت نفسه، كفرت عن خطيئة الهولوكوست. لقد كانت صفقة مثالية للضمير الأوروبي. لكن هذه الصفقة تمت على حساب طرف ثالث لم يكن جزءاً من المعادلة: الشعب الفلسطيني. لقد تم دفع فاتورة الجريمة الأوروبية من الحساب الفلسطيني. أصبح الفلسطينيون هم الضحايا الجدد الذين يدفعون ثمن خلاص الضحايا القدامى. لقد كانوا بمثابة "الأضرار الجانبية" الضرورية لشفاء الضمير الغربي. [25]

باختصار، لقد كان الهولوكوست هو الزلزال الذي حطم العالم القديم، وسمح ببناء عالم جديد. في هذا العالم الجديد، تمكنت الضحية من تحويل معاناتها إلى قوة سياسية وأخلاقية غير مسبوقة. لكن هذه القوة، التي ولدت من رحم الصدمة والخوف، كانت منذ البداية قوة عنيفة وإقصائية، قوة لا ترى في الآخر إلا تهديداً محتملاً، ولا ترى في

أرض الآخر إلا ملاذاً لنفسها. لقد كانت ولادة الجلاد من رحم الضحية هي النتيجة الأكثر مأساوية للهولوكوست.

المعادلة الصادمة

لم يكن الهولوكوست مجرد فصل مأساوي في تاريخ اليهود، بل كان نقطة التحول الكبرى التي أعادت تعريف هويتهم، وحولت مسار تاريخهم إلى الأبد. لقد كانت هذه الإبادة الجماعية هي المحرك الذي حول الضحية إلى قوة تسعى للهيمنة، وذلك من خلال معادلة تاريخية ونفسية صادمة. يمكن تلخيص هذه المعادلة في النقاط التالية:

صناعة الضحية الكاملة: من خلال عملية متدرجة من الإقصاء والعزل والإبادة، حول النازيون اليهود إلى الضحية المطلقة، مجردة من كل حقوقها وإنسانيتها.

الخذلان العالمي كدرس: أثبت صمت العالم وتواطؤه لليهود أنه لا يمكن الاعتماد على أحد، وأن القوة الذاتية هي الضمان الوحيد للبقاء.

الذاكرة كسلاح سياسي: تم تحويل ذكرى الهولوكوست إلى رأسمال أخلاقي وسياسي، يستخدم لتبرير وجود إسرائيل، وابتزاز الشعور بالذنب الغربي، وإسكات أي نقد.

التحول النفسي الجذري: ولدت من رحم الصدمة عقلية جديدة، "عقلية الحصار"، التي ترفض الضعف، وتقدس القوة، وتبرر العنف الاستباقي كآلية للدفاع عن النفس.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: كيف تمكنت تجربة المعاناة من أن تنتج، في غضون سنوات قليلة، مشروعاً سياسياً يمارس القمع على شعب آخر؟ وهل يمكن أن تبرر مأساة تاريخية مأساة جديدة؟

"المعادلة الصادمة التي تلخص هذا الفصل هي: 6 ملايين ضحية يهودية + خذلان عالمي + شعور بالذنب غربي = 750,000 لاجئ فلسطيني"

لقد وفر الهولوكوست الشرعية الأخلاقية والدافع النفسي للمشروع الصهيوني. لكن كيف تم تحويل هذا الدافع إلى واقع على الأرض؟ كيف تمكنت أقلية يهودية في فلسطين من

أن تهزم الأغلبية العربية، وتطردها، وتؤسس دولة على أنقاض مجتمعها؟ الفصل التالي، "ولادة المشروع الصهيوني"، سينتقل من التحليل النفسي إلى التحليل السياسي والاستراتيجي، ليكشف عن الآليات العملية التي استخدمتها الحركة الصهيونية لتحويل حلم الدولة إلى حقيقة، مستغلة الفرص التاريخية، ومستخدمة الخداع والقوة والتخطيط الدقيق.

مراجع الفصل السادس:

- [1] Friedländer, Saul. *Nazi Germany and the Jews, Vol.* 1: *The Years of Persecution,* 1933-1939. HarperCollins, 1997.
- [2] Gilbert, Martin. *Kristallnacht*: *Prelude to Destruction*. Harper Perennial, 2007.
- [3] Browning, Christopher R. *The Origins of the Final Solution*: *The Evolution of Nazi Jewish Policy, September* 1939-*March* 1942. University of Nebraska Press, 2004.
- [4] Hilberg, Raul. *The Destruction of the European Jews*. Yale University Press, 2003.
- [5] Arendt, Hannah. *Eichmann in Jerusalem*: *A Report on the Banality of Evil*. Penguin Classics, 2006.
- [6] Gutman, Yisrael. *The Jews of Warsaw,* 1939-1943: *Ghetto, Underground, Revolt*. Indiana University Press, 1982.

- [7] Bauer, Yehuda. *The Jewish Emergence from Powerlessness*. University of Toronto Press, 1979.
- [8] Kassow, Samuel D. *Who Will Write Our History? Emanuel Ringelblum and the Oyneg Shabbes Archive*. Indiana University Press, 2007.
- [9] Trunk, Isaiah. *Judenrat: The Jewish Councils in Eastern Europe Under Nazi Occupation*. University of Nebraska Press, 1996.
- [10] Wyman, David S. *The Abandonment of the Jews: America and the Holocaust,* 1941-1945. The New Press, 1998.
- [11] Karski, Jan. *Story of a Secret State*. Georgetown University Press, 2013.
- [12] Laqueur, Walter. *A History of Zionism*. Schocken Books, 2003.

- [13] Thomas, Gordon, and Max Morgan-Witts. *Voyage of the Damned*. Touchstone, 1994.
- [14] Gilbert, Martin. *Auschwitz and the Allies*. Holt, Rinehart and Winston, 1981.
- [15] Phayer, Michael. *The Catholic Church and the Holocaust, 1930-1965*. Indiana University Press, 2000.
- [16] Levi, Primo. *If This Is a Man*. Translated by Stuart Woolf. Penguin Books, 1979.
- [17] Mankowitz, Zeev W. *Life between Memory and Hope*: *The Survivors of the Holocaust in Occupied Germany*. Cambridge University Press, 2002.
- [18] Gross, Jan T. *Fear*: *Anti-Semitism in Poland after Auschwitz*. Princeton University Press, 2006.
- [19] Novick, Peter. *The Holocaust in American Life*. Houghton Mifflin, 1999.

- [20] Finkelstein, Norman G. *The Holocaust Industry*: *Reflections on the Exploitation of Jewish Suffering*. Verso, 2003.
- [21] Segev, Tom. *The Seventh Million*: *The Israelis and the Holocaust*. Hill and Wang, 2000.
- [22] Wardi, Dina. *Memorial Candles*: *Children of the Holocaust*. Routledge, 1992.
- [23] LaCapra, Dominick. *Writing History, Writing Trauma*. Johns Hopkins University Press, 2001.
- [24] Agamben, Giorgio. *Homo Sacer*: *Sovereign Power and Bare Life*. Translated by Daniel Heller-Roazen. Stanford University Press, 1998.
- [25] Rodinson, Maxime. *Israel*: *A Colonial-Settler State*? Pathfinder Press, 1973.

(٧)

هرتزل والحلم المستحيل

ولادة الفكرة في دار الأوبرا

في إحدى ليالي فبراير من عام 1896، في باريس، كان تيودور هرتزل، الصحفي والكاتب المسرحي اليهودي-المجري، يتمشى عائداً إلى فندقه بعد حضوره عرض أوبرا "تانهاوزر" لفاجنر. كان هرتزل، البالغ من العمر 35 عاماً، رجلاً مندمجاً تماماً في الثقافة الأوروبية، معجباً بالموسيقى الألمانية، ومؤمناً بأن الفن يمكن أن يسمو فوق الصراعات القومية. لكن في تلك الليلة، بينما كانت موسيقى فاجنر (الذي كان معروفاً بمعاداته للسامية) لا تزال تدوي في أذنيه، تبلورت في ذهنه فكرة جذرية، فكرة ستغير مجرى التاريخ اليهودي إلى الأبد.

لم تكن هذه الفكرة وليدة اللحظة. فقد كانت تختمر في عقله منذ شهور، خاصة بعد تغطيته لقضية دريفوس، التي أقنعته بأن معاداة السامية هي مرض عضال لا شفاء منه، وأن الاندماج هو مجرد وهم. لكن في تلك الليلة، تحولت هذه القناعات السلبية إلى مشروع إيجابي، إلى خطة عمل واضحة. هرع هرتزل إلى غرفته في الفندق، وأمسك بقلمه، وبدأ يكتب بحمى لم يعهدها من قبل. لم يكن يكتب مسرحية جديدة، بل كان يكتب بياناً سياسياً، صرخة ستدوي في جميع أنحاء العالم اليهودي. كان يكتب كتابه المعروف: "دولة اليهود" (Der Judenstaat).[1]

في تلك الصفحات المحمومة، التي كتبها في غضون أسابيع قليلة، وضع هرتزل الأساس النظري والعملي للصهيونية السياسية. لم يكن أول من حلم بالعودة إلى صهيون، فهذا حلم قديم قدم الشتات نفسه. لكنه كان أول من حول هذا الحلم من أمنية دينية غامضة إلى مشروع سياسي حديث، له أهدافه وأدواته ومؤسساته. كانت فكرته بسيطة وجذرية في آن واحد: المسألة اليهودية ليست مسألة دينية أو اجتماعية، بل هي مسألة قومية. والحل الوحيد لمسألة قومية هو حل سياسي: إنشاء دولة يهودية ذات سيادة، معترف بها دولياً.

عندما نشر هرتزل كتابه، قوبل بالسخرية من معظم قادة اليهود المندمجين في الغرب، الذين رأوا فيه خطراً على وضعهم كمواطنين أوروبيين. كما قوبل بالرفض من الحاخامات الأرثوذكس، الذين رأوا فيه تجديفاً ومحاولة لاستباق إرادة الرب. لكن الكتيب وجد صدى هائلاً لدى الجماهير اليهودية المضطهدة في أوروبا الشرقية، التي رأت فيه بصيص أمل في نهاية نفق مظلم. لقد كان هرتزل، هذا الكاتب المسرحي الذي لم يكن يعرف الكثير عن اليهودية، هو الذي تمكن من التعبير عن أعمق شوق لدى شعبه. لقد كان بمثابة "موسى" جديد، لا يتلقى الوحي من السماء، بل من ضرورات التاريخ، ويعد شعبه بالخروج من "عبودية" الشتات إلى "أرض الميعاد" السياسية. لقد كان حلماً بدا مستحيلاً، لكن هرتزل أنهاه بعبارته النبوية: "إذا أردتم، فلن تكون هذه أسطورة".

"دولة اليهود" من فكرة إلى خطة عمل

لم يكن كتاب "دولة اليهود" مجرد عمل نظري، بل كان دليلاً عملياً، خطة مفصلة لإنشاء دولة من الصفر. لقد فكر هرتزل في كل شيء، من السياسة والدبلوماسية إلى الاقتصاد والتمويل، وحتى شكل العلم واللغة. كانت خطته تقوم على ركيزتين أساسيتين: "جمعية اليهود" (The Society of Jews)، وهي الذراع السياسي للمشروع، و"الشركة اليهودية" (The Jewish Company) ، وهي الذراع المالي.

أ. التشخيص: المسألة اليهودية كقضية قومية

يبدأ هرتزل كتابه بتشخيص للمسألة اليهودية. يجادل بأن كل محاولات حلها من خلال الاندماج أو التحرر قد فشلت. فاليهود، أينما ذهبوا، يظلون "شعباً واحداً" في نظر الآخرين، وتستمر معاداة السامية في ملاحقتهم. المشكلة ليست في اليهود، بل في حقيقة أنهم أمة بلا دولة. يقول هرتزل:

"إننا شعب واحد. لقد حاولنا بصدق في كل مكان أن نندمج في المجتمعات التي تحيط بنا وأن نحتفظ فقط بدين آبائنا. لكنهم لا يتركوننا نفعل ذلك... إن العالم، الذي استفزته ضغوطنا، يضطهدنا. فهل سيتغير؟ لا. إن الأمم التي يعيش بينها اليهود هي إما معادية للسامية بشكل علني أو مقنع". [2]

هذا التشخيص بأن معاداة السامية هي ظاهرة حتمية ولا يمكن القضاء عليها، هو حجر الزاوية في فكر هرتزل. وبما أن المرض عضال، فلا بد من حل جذري: الانفصال.

يجب على اليهود أن يتوقفوا عن محاولة إرضاء الآخرين، وأن يعترفوا بأنهم أمة، وأن يسعوا إلى تطبيع وضعهم من خلال الحصول على وطن خاص بهم.

ب. الحل: السيادة على أرض خاصة

يقترح هرتزل حلاً عملياً ومنظماً. يجب على اليهود أن يحصلوا على السيادة على قطعة أرض، في أي مكان في العالم، تكون كافية لاحتياجات أمتهم. في البداية، لم يكن هرتزل محدداً بشأن الموقع، واقترح مكانين محتملين: الأرجنتين أو فلسطين. كانت الأرجنتين خياراً عملياً، فهي بلد شاسع وقليل السكان. لكن فلسطين كانت الخيار العاطفي والتاريخي، "وطننا التاريخي الذي لا ينسى". سرعان ما أدرك هرتزل أن لا شيء سوى فلسطين يمكن أن يحرك مشاعر الجماهير اليهودية ويحشدهم للمشروع. [3]

ج. الأدوات: الدبلوماسية والمال

كيف سيتم الحصول على هذه الأرض؟ ليس بالغزو أو التسلل، بل من خلال الدبلوماسية العلنية والقانون الدولي. يقترح هرتزل إنشاء "جمعية اليهود"، وهي هيئة سياسية تمثل الشعب اليهودي، وتتفاوض مع القوى العظمى للحصول على "ميثاق"

(Charter) يمنح اليهود السيادة على الأرض المختارة. في موازاة ذلك، سيتم إنشاء "الشركة اليهودية"، وهي شركة مساهمة ضخمة، برأس مال قدره 50 مليون جنيه استرليني (مبلغ هائل في ذلك الوقت)، لتمويل المشروع. ستقوم هذه الشركة بتصفية ممتلكات اليهود في الشتات، وتنظيم الهجرة، وشراء الأراضي، وبناء البنية التحتية في الوطن الجديد. [4]

لقد كانت خطة هرتزل خطة رجل أعمال، تعتمد على المنطق والتنظيم والمال. لقد أراد أن تكون عملية إنشاء الدولة عملية منظمة وشفافة، تتم بموافقة القوى الكبرى، وليس عملاً سرياً أو ثورياً. كان يؤمن بقوة الدبلوماسية والمال، وكان يعتقد أنه إذا تمكن من إقناع القوى العظمى بأن الدولة اليهودية ستخدم مصالحها، فإنهم سيدعمون المشروع.

د. اليوتوبيا الاجتماعية: دولة حديثة وعلمانية

لم تكن الدولة التي حلم بها هرتزل دولة دينية (ثيوقراطية)، بل كانت دولة حديثة، علمانية، وليبرالية، على غرار دول أوروبا الغربية. في روايته اللاحقة "الأرض القديمة الجديدة" (Altneuland) التي صدرت عام 1902، قدم هرتزل رؤية يوتوبية لهذه

الدولة المستقبلية. ستكون دولة متعددة اللغات، يسود فيها التسامح الديني، وتكون فيها حقوق متساوية لجميع المواطنين، بما في ذلك السكان العرب. ستكون دولة اشتراكية معتدلة، تتبنى أحدث التقنيات، وتكون فيها ساعات العمل سبع ساعات فقط في اليوم. [5]

هذه الرؤية اليوتوبية تكشف عن المفارقة في شخصية هرتزل. فمن ناحية، كان قومياً متطرفاً يؤمن بضرورة الانفصال. ومن ناحية أخرى، كان ليبرالياً أوروبياً يؤمن بقيم التنوير والتقدم. لم ير أي تناقض بين إنشاء دولة يهودية وبين ضمان حقوق السكان الأصليين. لقد افترض بسذاجة أن العرب سيرحبون بالمهاجرين اليهود، لأنهم سيجلبون معهم التقدم والازدهار. هذه النقطة العمياء، هذا التجاهل شبه الكامل لوجود شعب آخر على الأرض التي اختارها، ستكون هي الخطيئة الأصلية للمشروع الصهيوني، والتي ستحول حلمه اليوتوبي إلى كابوس من الصراع الدائم.

المؤتمر الصهيوني الأول

بعد نشر كتابه، لم يكتف هرتزل بالانتظار، بل انطلق في حملة دبلوماسية محمومة لتحويل فكرته إلى حقيقة. كان يدرك أن المشروع يحتاج إلى هيئة تمثيلية، إلى برلمان يهودي عالمي

يمنحه الشرعية للتحدث باسم الشعب اليهودي. وهكذا، ولدت فكرة عقد مؤتمر صهيوني عالمي.

أ. من فكرة إلى واقع: التغلب على المعارضة

في البداية، أراد هرتزل عقد المؤتمر في ميونيخ، لكنه واجه معارضة شديدة من قادة الجالية اليهودية الألمانية، الذين كانوا يخشون أن يثير المؤتمر اتهامات بازدواج الولاء. اضطر هرتزل إلى نقل المؤتمر إلى مدينة بازل في سويسرا. في 29 أغسطس 1897، اجتمع حوالي 200 مندوب من 17 دولة في قاعة الكازينو في بازل، في حدث تاريخي سيغير وجه العالم اليهودي. كان المندوبون يرتدون ملابس السهرة الرسمية، في محاولة واعية من هرتزل لإضفاء طابع من الجدية والوقار على المؤتمر. [6]

ب. برنامج بازل: ولادة الصهيونية السياسية

استمر المؤتمر ثلاثة أيام، وخرج بوثيقة تأسيسية أصبحت تعرف بـ "برنامج بازل". حددت هذه الوثيقة هدف الحركة الصهيونية بشكل واضح ومقتضب:

"تسعى الصهيونية إلى إقامة وطن للشعب اليهودي في فلسطين، يضمنه القانون العام". [7]

كانت كل كلمة في هذا التعريف قد تم اختيارها بعناية فائقة. تم استخدام كلمة "وطن" (Heimstätte) بدلاً من "دولة" (Staat) لتجنب إثارة حفيظة السلطان العثماني. وتم استخدام عبارة "يضمنه القانون العام" (public law) للتأكيد على أن هذا الوطن يجب أن يكون معترفاً به دولياً، وليس مجرد مستعمرة خاصة. لقد كان برنامج بازل هو الإعلان الرسمي عن ولادة الصهيونية السياسية، التي تختلف عن الصهيونية العملية (التي تركز على الاستيطان التدريجي) والصهيونية الروحية (التي ترى في فلسطين مركزاً ثقافياً وليس سياسياً).

ج. إنشاء المؤسسات: المنظمة الصهيونية العالمية

لم يكتف المؤتمر بوضع برنامج، بل أنشأ أيضاً الأدوات اللازمة لتنفيذه. تم تأسيس "المنظمة الصهيونية العالمية" كهيئة سياسية للحركة، وانتخب هرتزل أول رئيس لها. تم إنشاء هيئة تنفيذية، ولجان مختلفة، وتقرر عقد المؤتمر بشكل دوري. لقد أصبح لليهود،

لأول مرة منذ ألفي عام، حكومة في المنفى، برلمان عالمي يمثلهم، وقائد يتحدث باسمهم. [8]

بعد انتهاء المؤتمر، كتب هرتزل في مذكراته عبارته الشهيرة:

"في بازل، أسست الدولة اليهودية. لو قلت هذا بصوت عالٍ اليوم، لقوبلت بضحك عالمي. لكن ربما في غضون خمس سنوات، وبالتأكيد في غضون خمسين عاماً، سيعرف الجميع ذلك". [9]

كانت نبوءة مذهلة. فبعد خمسين عاماً وشهرين بالضبط، في 29 نوفمبر 1947، صوتت الأمم المتحدة لصالح قرار تقسيم فلسطين، الذي مهد الطريق لإعلان قيام دولة إسرائيل بعد ستة أشهر. لقد أدرك هرتزل أن مجرد عقد المؤتمر، مجرد إعلان الإرادة القومية للشعب اليهودي على الملأ، كان هو الفعل التأسيسي الحقيقي للدولة. لقد كانت الدولة قد ولدت كفكرة، كإرادة، قبل أن تولد ككيان على الأرض.

الدبلوماسية المحمومة والبحث عن ميثاق

بعد مؤتمر بازل، انطلق هرتزل في جولات دبلوماسية مكوكية، في محاولة يائسة للحصول على "ميثاق" (Charter) من إحدى القوى العظمى يسمح بالاستيطان اليهودي في فلسطين. لقد كان سباقاً مع الزمن، فقد كان هرتزل يشعر أن صحته تتدهور، وأن عليه تحقيق حلمه قبل فوات الأوان. التقى بالملوك والأباطرة والوزراء، واستخدم كل ما لديه من سحر وشخصية كاريزمية لإقناعهم بمشروعه.

أ. لقاء القيصر الألماني: أمل في الصحراء

كان أول هدف كبير لهرتزل هو القيصر الألماني فيلهلم الثاني. كانت ألمانيا حليفاً للسلطنة العثمانية، وكان هرتزل يأمل أن يتمكن القيصر من إقناع السلطان بمنح اليهود حكماً ذاتياً في فلسطين مقابل مساعدات مالية ضخمة. في عام 1898، التقى هرتزل بالقيصر مرتين، مرة في اسطنبول، ومرة أخرى في القدس، خلال زيارة القيصر التاريخية للأراضي المقدسة. كان هرتزل متفائلاً، واعتقد أن القيصر قد تبنى قضيته. لكنه سرعان ما اكتشف أن القيصر كان يستخدمه فقط لتحسين صورته، وأنه لم يكن جاداً في دعمه. لقد كان أول خيبة أمل كبيرة لهرتزل. [10]

ب. لقاء السلطان العثماني: عرض مرفوض

بعد فشل الوساطة الألمانية، قرر هرتزل الذهاب مباشرة إلى السلطان عبد الحميد الثاني. في عام 1901، تمكن هرتزل من الحصول على مقابلة مع السلطان في اسطنبول. عرض هرتزل على السلطان عرضاً مغرياً: ستقوم الحركة الصهيونية بسداد جميع ديون السلطنة العثمانية مقابل الحصول على فلسطين. لكن السلطان، رغم حاجته الماسة للمال، رفض العرض بشكل قاطع. قال للسلطان، حسب رواية هرتزل، إنه لا يستطيع بيع أي جزء من الإمبراطورية، لأنها ليست ملكه، بل ملك للشعب المسلم الذي قاتل من أجلها. واقترح على اليهود أن يستقروا في أي مكان آخر في الإمبراطورية، ولكن ليس في فلسطين. [11] كان هذا الرفض بمثابة ضربة قاصمة لآمال هرتزل في الحصول على فلسطين بالطرق الدبلوماسية.

ج. الخطة البريطانية: مشروع أوغندا

بعد أن أغلقت أبواب ألمانيا وتركيا في وجهه، التفت هرتزل إلى بريطانيا، القوة العظمى الصاعدة. في لندن، التقى بوزير المستعمرات جوزيف تشامبرلين. لم يكن تشامبرلين مهتماً

بفلسطين، التي كانت لا تزال تحت السيطرة العثمانية، لكنه كان يبحث عن مستوطنين بيض أوفياء للإمبراطورية البريطانية. في عام 1903، قدم تشامبرلين لهرتزل عرضاً مفاجئاً: قطعة أرض في شرق إفريقيا، في ما يعرف اليوم بكينيا (وليس أوغندا كما شاع خطأً)، لإنشاء مستعمرة يهودية تتمتع بالحكم الذاتي تحت السيادة البريطانية. [12]

كان هرتزل في حيرة من أمره. فمن ناحية، كان العرض فرصة تاريخية لإنقاذ اليهود المضطهدين في روسيا، الذين كانوا يتعرضون لموجة جديدة من البوغرومات. ومن ناحية أخرى، كانت هذه الأرض ليست فلسطين، "أرض الميعاد". قرر هرتزل، كسياسي براغماتي، أن يقدم الاقتراح إلى المؤتمر الصهيوني السادس، الذي عقد في بازل عام 1903، على أنه "ملجأ ليلي" مؤقت (Nachtasyl)، وليس بديلاً عن صهيون.

د. انقسام الحركة: "لا صهيونية بدون صهيون"

عندما قدم هرتزل "مشروع أوغندا" للمؤتمر، انفجرت قنبلة. فقد أحدث الاقتراح انقساماً عميقاً في الحركة الصهيونية. المندوبون من أوروبا الغربية، بقيادة هرتزل، دعموا المشروع كحل إنساني عاجل. لكن المندوبين من أوروبا الشرقية، وخاصة من روسيا، رفضوه

بشدة. بالنسبة لهم، كانت الصهيونية تعني شيئاً واحداً فقط: العودة إلى صهيون التاريخية. لقد بكى المندوبون الروس، ومزقوا ملابسهم، وانسحبوا من القاعة، وهم يصرخون: "لا صهيونية بدون صهيون". [13]

لقد صدم هرتزل من رد الفعل العنيف. لقد أدرك في تلك اللحظة أن القوة الحقيقية للحركة الصهيونية ليست في الدبلوماسية أو المال، بل في الرابط العاطفي والروحي العميق الذي يربط الشعب اليهودي بأرض فلسطين. لقد فهم أن حلمه لا يمكن أن يتحقق في أي مكان آخر. رغم أنه تمكن من تمرير قرار بإرسال لجنة لتقصي الحقائق إلى شرق إفريقيا، إلا أن المشروع كان قد ولد ميتاً. لقد كان هذا الانقسام هو الضربة الأخيرة لقلب هرتزل المريض. فبعد أقل من عام، في يوليو 1904، توفي تيودور هرتزل بنوبة قلبية، وهو في الرابعة والأربعين من عمره، منهكاً ومحطماً. لقد مات وهو يعتقد أن حلمه قد فشل.

النبي العلماني وصناعة الواقع

كان تيودور هرتزل ظاهرة فريدة في التاريخ اليهودي. لقد كان نبياً علمانياً، لم يتلق الوحي من الله، بل من ضرورات التاريخ. كان كاتباً مسرحياً، أدرك أن السياسة هي مسرح كبير، وأن أهم شيء هو كتابة سيناريو جيد، وإقناع الممثلين بأدوارهم. يمكن تحليل تأثيره من خلال مفهومين أساسيين:

"الأداء" (Performativity) وصناعة الواقع: في الفلسفة المعاصرة، يشير مصطلح "الأداء" إلى فكرة أن بعض الأقوال لا تصف الواقع فحسب، بل تخلقه. فعندما يقول القاضي "حكمت المحكمة"، فإنه لا يصف حكماً، بل ينشئه. كان هرتزل سيد هذا الفن. فمن خلال عقد المؤتمر الصهيوني، وإعلان "برنامج بازل"، وإنشاء "المنظمة الصهيونية العالمية"، لم يكن يصف أمة يهودية موجودة، بل كان يخلقها. لقد كان "يؤدي" دور ممثل الدولة اليهودية قبل أن توجد الدولة نفسها. لقد تصرف كما لو أن الدولة موجودة، فتصرف العالم كما لو أنها موجودة. لقد أثبت هرتزل أن الإرادة السياسية، إذا تم التعبير عنها بشكل صحيح، يمكن أن تصنع الواقع. [14]

الكاريزما والقيادة التحويلية: كان هرتزل يمتلك كاريزما نادرة، وقدرة على إلهام الناس وتحريكهم. لقد كان قائداً تحويلياً، تمكن من تغيير الطريقة التي يرى بها اليهود أنفسهم. قبل هرتزل، كان اليهود يرون أنفسهم كجماعة دينية. بعد هرتزل، بدأوا يرون أنفسهم كأمة سياسية. لقد أعطاهم شعوراً بالفخر والكرامة، ووعدهم بمستقبل يكونون فيه أسياد مصيرهم، وليسوا ضحايا لأهواء الآخرين. لقد كان بمثابة "شاشة" عرض عليها اليهود المضطهدون آمالهم وأحلامهم. لقد رأوا فيه صورة "اليهودي الجديد"، القوي، الواثق، الأوروبي. لقد كان هو الحلم الذي أرادوا أن يصبحوه. [15]

المفارقة المأساوية في إرث هرتزل:

يكمن الإرث المأساوي لهرتزل في نقطته العمياء: تجاهله شبه الكامل للشعب الفلسطيني. في كتابه "دولة اليهود"، لم يذكر العرب إلا مرة واحدة بشكل عابر. وفي روايته "الأرض القديمة الجديدة"، صور العرب على أنهم سعداء بالهجرة اليهودية، وممتنون لليهود على جلبهم الحضارة والازدهار. لقد كان هذا التجاهل نابعاً من عقلية استعمارية أوروبية نموذجية، ترى في الأراضي غير الأوروبية "أرضاً بلا شعب"، وفي سكانها الأصليين "متوحشين" يجب "تحديثهم".

هذه الخطيئة الأصلية هي التي حكمت على حلم هرتزل اليوتوبي بالتحول إلى كابوس. فالدولة التي حلم بها كمنارة للتقدم والتسامح، أصبحت دولة احتلال وعنصرية. والشعب الذي أراد أن يحرره، أصبح هو نفسه سجاناً لشعب آخر. لقد نجح هرتزل في تحقيق حلمه المستحيل، ولكن الثمن كان تحويل الضحية إلى جلاد، وهو ما لم يكن يتخيله أبداً في أسوأ كوابيسه.

زرع البذرة

مات تيودور هرتزل وهو يعتقد أن مشروعه قد فشل. لكنه في الواقع، كان قد نجح في تحقيق أهم شيء: لقد زرع البذرة. لقد حول الصهيونية من حلم غامض إلى حركة سياسية منظمة، لها أهدافها ومؤسساتها وقائدها. يمكن تلخيص إنجازاته في النقاط التالية:

التشخيص الجذري: كان أول من شخص المسألة اليهودية على أنها مسألة قومية تتطلب حلاً سياسياً.

الخطة العملية: وضع خطة عمل مفصلة لإنشاء دولة، تعتمد على الدبلوماسية والمال والتنظيم.

صناعة الأمة: من خلال المؤتمر الصهيوني، خلق هيئة تمثيلية للشعب اليهودي، وأعطاه صوتاً سياسياً على الساحة الدولية.

تثبيت الهدف: رغم "قضية أوغندا"، نجح في ترسيخ فكرة أن فلسطين، وفقط فلسطين، هي الهدف النهائي للحركة الصهيونية.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: كيف تمكن رجل واحد، في غضون سبع سنوات فقط، من إطلاق حركة سياسية ستغير مجرى التاريخ، رغم معارضة معظم قادة شعبه، ورغم فشله في تحقيق أي إنجاز دبلوماسي ملموس؟

مات هرتزل، لكن حلمه لم يمت. لقد ترك وراءه حركة منظمة، ولكنها كانت حركة بلا أرض، وبلا دعم من أي قوة عظمى. كانت الصهيونية لا تزال فكرة هامشية في

السياسة العالمية. لكن بعد عشر سنوات فقط من وفاة هرتزل، اندلعت الحرب العالمية الأولى، التي ستغير خريطة العالم، وتخلق فرصة تاريخية لم يكن هرتزل ليحلم بها. الفصل التالي، "وعد بلفور: صفقة الشيطان"، سيكشف كيف تمكنت الحركة الصهيونية، بقيادة حاييم وايزمان، من استغلال هذه الحرب، وإقناع الإمبراطورية البريطانية بمنحها الوعد الذي سيحول حلم هرتزل المستحيل إلى حقيقة ممكنة.

مراجع الفصل السابع:

- [1] Herzl, Theodor. *The Jewish State*. Translated by Sylvie D'Avigdor. Dover Publications, 1988.
- [2] Ibid.
- [3] Laqueur, Walter. *A History of Zionism*. Schocken Books, 2003.
- [4] Herzl, Theodor. *The Jewish State*.
- [5] Herzl, Theodor. *Old New Land (Altneuland)*. Translated by Lotta Levensohn. Markus Wiener Publishers, 1997.
- [6] Elon, Amos. *Herzl*. Holt, Rinehart and Winston, 1975.
- [7] The Basel Program, 1897. The full text is widely available online.
- [8] Vital, David. *The Origins of Zionism*. Oxford University Press, 1975.

- [9] Herzl, Theodor. *The Diaries of Theodor Herzl*. Edited by Marvin Lowenthal. Dial Press, 1956.
- [10] Pawel, Ernst. *The Labyrinth of Exile: A Life of Theodor Herzl*. Farrar, Straus and Giroux, 1989.
- [11] Ibid.
- [12] Rovner, Adam. *In the Shadow of Zion: Promised Lands Before Israel*. NYU Press, 2014.
- [13] Laqueur, Walter. *A History of Zionism*.
- [14] Butler, Judith. *Excitable Speech: A Politics of the Performative*. Routledge, 1997. (This is a theoretical reference for the concept of performativity, not directly about Herzl).
- [15] Beller, Steven. *Herzl*. Peter Halban, 2004.

(٨)

وعد بلفور - صفقة الشيطان

رسالة من 67 كلمة غيرت العالم

في الثاني من نوفمبر عام 1917، في خضم الفوضى الدموية للحرب العالمية الأولى، أرسل وزير الخارجية البريطاني آرثر بلفور رسالة قصيرة إلى اللورد روتشيلد، أحد أبرز زعماء الجالية اليهودية في بريطانيا. كانت الرسالة تتألف من 67 كلمة فقط، لكنها كانت كفيلة بتغيير مصير الشرق الأوسط إلى الأبد. نصت الرسالة، التي أصبحت تعرف بـ"وعد بلفور"، على ما يلي:

"يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته، بالتصريح التالي الذي يعبر عن التعاطف مع أماني اليهود الصهيونية، وقد عرض على الوزارة وأقرته:

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر". [1]

كانت هذه الرسالة بمثابة قنبلة دبلوماسية. فلأول مرة في التاريخ، تعهدت قوة عظمى بدعم إقامة "وطن قومي" لليهود في فلسطين. لقد كان انتصاراً مذهلاً للحركة الصهيونية، التي كانت قبل سنوات قليلة مجرد حركة هامشية. لقد حول وعد بلفور حلم هرتزل المستحيل إلى مشروع سياسي واقعي، مدعوم من الإمبراطورية التي كانت على وشك أن تحكم العالم.

لكن هذا الوعد كان أيضاً عملاً من أعمال الخيانة المزدوجة، وقمة في النفاق الإمبريالي. فبريطانيا، في سعيها المحموم لكسب الحرب، كانت تبيع نفس الأرض لأطراف مختلفة. فقبل عامين فقط، في مراسلات الحسين-مكماهون (1915)، كانت قد وعدت العرب بالاستقلال في معظم أنحاء الشرق الأوسط، بما في ذلك فلسطين، مقابل ثورتهم ضد الدولة العثمانية. وفي الوقت نفسه تقريباً، في اتفاقية سايكس-بيكو (1916)، كانت تتقاسم سراً المنطقة مع فرنسا. [2]

كان وعد بلفور هو الأكثر خبثاً بين هذه الوعود المتضاربة. فقد وعدت بريطانيا، وهي قوة أوروبية مسيحية، حركة سياسية أوروبية يهودية، بوطن في بلد آسيوي مسلم، متجاهلة تماماً إرادة الأغلبية الساحقة من سكانه. لقد تحدث الوعد عن "الطوائف غير اليهودية" (التي كانت تشكل 93% من السكان) كما لو كانوا أقلية لا أهمية لها، ووعد بحماية "حقوقهم المدنية والدينية"، ولكنه تجاهل عمداً ذكر حقوقهم السياسية والوطنية. [3]

لقد كانت صفقة شيطانية، باعت فيها بريطانيا مستقبل فلسطين مقابل نصر مؤقت في الحرب. لقد زرعت بذور صراع سيستمر لأكثر من قرن، صراع بين حركتين قوميتين

تطالبان بنفس الأرض. هذا الفصل سيكشف عن كواليس هذه الصفقة، وكيف تمكنت الحركة الصهيونية، بقيادة حاييم وايزمان، من انتزاع هذا الوعد التاريخي، وكيف أن هذا الانتصار الدبلوماسي الأكبر للصهيونية كان هو الخطيئة الأصلية التي حكمت على "الوطن القومي" بأن يكون مشروعاً استعمارياً منذ لحظة ولادته.

الحرب العالمية الأولى

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى في عام 1914، كانت الحركة الصهيونية في حالة من الفوضى. كان مقرها الرئيسي في برلين، لكن أعضاءها كانوا منقسمين في ولائهم بين دول الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) ودول المحور (ألمانيا والنمسا-المجر والدولة العثمانية). لقد أدرك بعض القادة الصهاينة أن هذه الحرب، التي كانت تدمر العالم القديم، تمثل أيضاً فرصة تاريخية فريدة لتحقيق الحلم الصهيوني. كان أبرز هؤلاء القادة هو حاييم وايزمان، الكيميائي اليهودي الروسي الذي كان يعيش في بريطانيا.

أ. حاييم وايزمان: الكيميائي الذي أصبح دبلوماسياً

كان وايزمان يختلف تماماً عن هرتزل. لم يكن كاتباً مسرحياً حالماً، بل كان عالماً عملياً، ورجلاً قادماً من قلب "الشتتل" (التجمعات اليهودية) في أوروبا الشرقية، ويفهم بعمق

الروح اليهودية. كان وايزمان يؤمن بـ "الصهيونية التركيبية"، التي تجمع بين الدبلوماسية السياسية (على طريقة هرتزل) والاستيطان العملي على الأرض. انتقل وايزمان إلى بريطانيا عام 1904، وأصبح أستاذاً للكيمياء في جامعة مانشستر. لكن طموحه الحقيقي كان السياسة. [4]

عندما اندلعت الحرب، رأى وايزمان فرصة لا تعوض. لقد أدرك أن مصير فلسطين، التي كانت تحت السيطرة العثمانية، سيتقرر بعد الحرب. وأدرك أن بريطانيا، القوة البحرية العظمى التي لها مصالح استراتيجية في الشرق الأوسط (خاصة قناة السويس)، هي الحليف الطبيعي للمشروع الصهيوني. بدأ وايزمان في نسج شبكة من العلاقات مع النخبة السياسية البريطانية، مستخدماً سحره الشخصي وذكاءه وقدرته الفائقة على الإقناع.

ب. الأسيتون والمجهود الحربي: خدمة للإمبراطورية

جاءت الفرصة الذهبية لوايزمان من خلال علمه. كانت بريطانيا في حاجة ماسة إلى كميات كبيرة من الأسيتون، وهو مذيب كيميائي ضروري لإنتاج الكوردايت (نوع من المتفجرات بدون دخان). كان المصدر الرئيسي للأسيتون هو التقطير الجاف

للخشب، وهي عملية بطيئة وغير فعالة. كان وايزمان قد طور عملية تخمير بكتيري لإنتاج الأسيتون من الحبوب أو النشويات بكميات كبيرة وبتكلفة منخفضة. عندما علمت الحكومة البريطانية باختراعه، تم استدعاؤه إلى لندن ووضعه على رأس مختبرات الأميرالية. [5]

لقد قدمت خدمة وايزمان العلمية للمجهود الحربي البريطاني مدخلاً لا يقدر بثمن إلى أعلى دوائر صنع القرار. أصبح صديقاً مقرباً لشخصيات مثل ديفيد لويد جورج (الذي أصبح رئيساً للوزراء عام 1916)، وآرثر بلفور (وزير الخارجية)، ونستون تشرشل (وزير الذخائر). تقول الأسطورة إن لويد جورج عرض على وايزمان لقب "لورد" كمكافأة على خدماته، لكن وايزمان رفض، وقال: "لا أريد شيئاً لنفسي. أريد وطناً لشعبي". [6] ورغم أن هذه القصة قد تكون مبالغاً فيها، إلا أنها تعبر عن حقيقة أن وايزمان تمكن من ربط مساهمته العلمية بالقضية الصهيونية، وقدم نفسه على أنه ممثل لشعب يمكن أن يكون حليفاً مفيداً للإمبراطورية البريطانية.

ج. الحجج الصهيونية: كيف تم إقناع بريطانيا؟

استخدم وايزمان وزملاؤه الصهاينة في لندن مجموعة من الحجج لإقناع الحكومة البريطانية بتبني الصهيونية. لم تكن هذه الحجج تعتمد على العدالة أو الأخلاق، بل على المصالح الاستراتيجية للإمبراطورية البريطانية:

حماية قناة السويس: كانت فلسطين تقع على مقربة من قناة السويس، شريان الحياة للإمبراطورية البريطانية. إن وجود دولة يهودية صديقة وموالية لبريطانيا في فلسطين سيشكل حاجزاً دفاعياً يحمي القناة من أي تهديد مستقبلي. [7]

كسب يهود أمريكا وروسيا: في عام 1917، كانت الحرب في مرحلة حرجة. كانت بريطانيا بحاجة ماسة إلى دخول الولايات المتحدة الحرب، وإلى بقاء روسيا فيها بعد الثورة البلشفية. اعتقد الساسة البريطانيون، مدفوعين بصورة نمطية معادية للسامية عن "القوة اليهودية العالمية"، أن إصدار وعد لليهود سيشجع يهود أمريكا الأثرياء على الضغط على حكومتهم لدخول الحرب، وسيشجع يهود روسيا الثوريين على إبقاء بلادهم في القتال. [8]

قطع الطريق على فرنسا وألمانيا: كانت بريطانيا تعلم أن فرنسا لها طموحات في فلسطين. كما كانت تخشى أن تقوم ألمانيا، إذا انتصرت في الحرب، بإصدار وعد مماثل لليهود لكسبهم إلى جانبها. لذلك، كان إصدار وعد بلفور بمثابة ضربة استباقية لقطع الطريق على المنافسين الإمبرياليين.

التعاطف الديني والإنجيلي: كان العديد من الساسة البريطانيين، مثل بلفور ولويد جورج، من المسيحيين المتدينين الذين نشأوا على قصص العهد القديم. كانوا يؤمنون بـ"الصهيونية المسيحية"، وهي فكرة أن عودة اليهود إلى الأراضي المقدسة هي تحقيق للنبوءات التوراتية، وشرط للعودة الثانية للمسيح. لقد رأوا في أنفسهم أدوات في يد العناية الإلهية لتحقيق هذا الوعد. [9]

لقد كانت مزيجاً من هذه الحجج - المصالح الاستراتيجية الباردة، والأساطير المعادية للسامية، والتعاطف الديني - هو الذي أقنع مجلس الوزراء الحربي البريطاني، بعد شهور

من النقاش والمساومات، بإصدار وعد بلفور. لقد كانت لحظة انتصار للدبلوماسية الصهيونية، ولحظة كارثية للشعب الفلسطيني.

الكلمات التي غيرت التاريخ

لم يكن وعد بلفور مجرد رسالة عابرة، بل كان وثيقة تم التفاوض عليها وصياغتها بعناية فائقة على مدى شهور. كل كلمة فيها كانت نتيجة مساومات مريرة بين الصهاينة والبريطانيين، وبين مختلف الفصائل داخل الحكومة البريطانية نفسها. إن تحليل هذه الصياغة يكشف عن النوايا الحقيقية لأطرافها، وعن الخداع الذي كان متأصلاً في الوعد منذ البداية.

أ. "وطن قومي" أم "دولة"؟ الغموض المتعمد

كانت المسودة الأصلية التي قدمها الصهاينة تطالب بـ"إعادة تشكيل فلسطين لتكون الدولة اليهودية". لكن الحكومة البريطانية رفضت هذه الصياغة الصريحة، واستبدلتها بعبارة "إقامة وطن قومي (a national home) للشعب اليهودي في فلسطين". [10] كانت عبارة "وطن قومي" عبارة جديدة وغامضة في القانون الدولي، ليس لها أي تعريف محدد. لقد تم اختيارها عمداً لإرضاء الصهاينة دون إثارة قلق العرب بشكل مفرط.

بالنسبة للصهاينة، كانت كلمة "وطن قومي" مجرد مرحلة أولى على طريق إقامة دولة كاملة السيادة. أما بالنسبة للبريطانيين، فقد كانت عبارة مرنة تسمح لهم بالتملص من أي التزام محدد. لقد كان هذا الغموض هو الذي سمح للوعد بأن يمر، ولكنه كان أيضاً هو الذي زرع بذور الصراع المستقبلي.

ب. "في فلسطين" وليس "كل فلسطين": تقسيم محتمل

كانت النقطة الخلافية الأخرى هي النطاق الجغرافي للوطن القومي. المسودة الصهيونية الأصلية كانت تتحدث عن فلسطين ككل. لكن النسخة النهائية استخدمت عبارة "في فلسطين" (in Palestine). هذا التغيير الطفيف كان مهماً. فقد كان يعني أن الوطن القومي اليهودي لن يشمل بالضرورة كل فلسطين، بل سيقام في جزء منها. لقد ترك هذا الباب مفتوحاً أمام إمكانية تقسيم فلسطين في المستقبل، وهو ما حدث بالفعل في عام 1947. [11]

ج. "الطوائف غير اليهودية": محو الهوية الوطنية

كانت أخطر عبارة في الوعد هي تلك التي تحدثت عن السكان الأصليين. فالوعد لم يذكر "العرب" أو "الفلسطينيين" بالاسم، بل أشار إليهم بشكل مهين على أنهم "الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين" (the existing non-Jewish communities in Palestine). هذا التعريف السلبي، الذي يعرف الأغلبية الساحقة من السكان (93%) فقط من خلال علاقتهم بالأقلية اليهودية، كان بمثابة محو لهويتهم الوطنية. لقد تم الاعتراف باليهود، الذين كانوا أقلية صغيرة، كـ"شعب" له حقوق قومية، بينما تم اختزال العرب، الذين كانوا الأغلبية الساحقة، إلى مجرد "طوائف" لها "حقوق مدنية ودينية" فقط. [12]

كان هذا التجاهل المتعمد للحقوق السياسية والوطنية للشعب الفلسطيني هو جوهر الخطيئة في وعد بلفور. لقد كان عملاً استعمارياً بامتياز، يعكس عقلية إمبريالية ترى في الشعوب غير الأوروبية مجرد عقبات يجب التعامل معها، وليس أمماً لها الحق في تقرير مصيرها. لقد كتب آرثر بلفور نفسه لاحقاً في مذكرة داخلية بكل صراحة:

"في فلسطين، لا نقترح حتى أن نمر باستشارة شكليات استشارة رغبات السكان الحاليين في البلاد... إن القوى العظمى الأربع ملتزمة بالصهيونية. وسواء كانت الصهيونية صحيحة أم خاطئة، جيدة أم سيئة، فهي متجذرة في تقاليد قديمة، وفي احتياجات الحاضر، وفي آمال المستقبل، وهي ذات أهمية أكبر بكثير من رغبات وتحيزات الـ 700,000 عربي الذين يسكنون الآن تلك الأرض القديمة". [13]

لا يمكن أن يكون هناك اعتراف أكثر صراحة بالطبيعة الاستعمارية للمشروع. لقد تم اتخاذ القرار مسبقاً، وتم تجاهل إرادة السكان الأصليين بشكل كامل، لأن "آمال" الأوروبيين كانت تعتبر "أهم بكثير" من "رغبات" العرب.

د. معارضة يهودية: صوت الحكمة المفقود

من المفارقات أن المعارضة الأقوى لوعد بلفور داخل الحكومة البريطانية جاءت من العضو اليهودي الوحيد في مجلس الوزراء، وهو إدوين مونتاغو، وزير الدولة لشؤون الهند. كان مونتاغو يهودياً مندمجاً ومناهضاً للصهيونية. لقد جادل بأن إنشاء وطن قومي يهودي

في فلسطين سيضر بوضع اليهود في جميع أنحاء العالم، وسيعرضهم لاتهامات بازدواج الولاء، وسيشجع على معاداة السامية. لقد كتب في مذكرة شهيرة إلى مجلس الوزراء:

> **"أفترض أن هذا يعني أن المسلمين والمسيحيين سيجعلون الطريق ممهداً لليهود، وأن اليهود سيحصلون على الأفضلية وسيكونون في وضع مميز... عندما يتم توطين اليهود في فلسطين، كيف سيتم التعامل معهم في البلدان الأخرى؟ لا يمكن أن تكون مواطناً بريطانياً يهودياً وتطالب في نفس الوقت بالمعاملة التفضيلية في بلد أجنبي".** [14]

لقد كانت حجة مونتاغو نبوئية. لكن صوته كان صوتاً وحيداً. لقد تم تجاهل تحذيراته، وانتصرت المصالح الإمبريالية والضغوط الصهيونية. لقد صدر الوعد، وبدأ العد التنازلي لكارثة فلسطين.

الوعود المتضاربة ولعبة الخداع الإمبريالي

لم يكن وعد بلفور مجرد وعد معزول، بل كان جزءاً من شبكة معقدة من الوعود المتضاربة التي قطعتها بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى، في محاولة يائسة لكسب

حلفاء وتحقيق أهدافها الإمبريالية. لقد كانت لعبة خداع كبرى، كان فيها العرب هم الخاسر الأكبر.

أ. مراسلات الحسين - مكماهون (1915-1916): وعد الاستقلال العربي

في عام 1915، بدأت بريطانيا مفاوضات سرية مع الشريف حسين بن علي، أمير مكة، الذي كان يسعى إلى التحرر من الحكم العثماني وإقامة مملكة عربية موحدة. في سلسلة من الرسائل المتبادلة بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون، المندوب السامي البريطاني في مصر، وعدت بريطانيا بدعم استقلال العرب في معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق، مقابل قيام العرب بثورة ضد الدولة العثمانية. [15]

كانت فلسطين جزءاً من المناطق التي وعد بها العرب. ورغم أن بريطانيا حاولت لاحقاً الادعاء بأن فلسطين كانت مستثناة من الوعد، إلا أن تحليل المراسلات والخرائط المرفقة بها يظهر بوضوح أن فلسطين كانت ضمن حدود الدولة العربية الموعودة. لقد قاتل العرب وماتوا من أجل هذا الوعد، معتقدين أنهم سيحصلون على استقلالهم بعد الحرب. لكنهم سرعان ما اكتشفوا أنهم تعرضوا للخداع.

ب. اتفاقية سايكس-بيكو (1916):

بينما كانت بريطانيا تتفاوض مع الشريف حسين، كانت في نفس الوقت تتفاوض سراً مع حليفتها فرنسا لتقسيم "الكعكة" العثمانية. في مايو 1916، توصل الدبلوماسيان البريطاني مارك سايكس والفرنسي فرانسوا جورج-بيكو إلى اتفاق سري لتقسيم بلاد الشام والعراق إلى مناطق نفوذ بريطانية وفرنسية. بموجب هذه الاتفاقية، كان من المقرر أن توضع فلسطين تحت إدارة دولية. [16]

عندما كشف البلاشفة عن هذه الاتفاقية السرية بعد استيلائهم على السلطة في روسيا عام 1917، كانت فضيحة كبرى. لقد كشفت عن النوايا الإمبريالية الحقيقية لبريطانيا وفرنسا، وأظهرت أن وعدهم بالاستقلال العربي لم يكن سوى كذبة. لقد شعر العرب بالخيانة والغضب، لكنهم كانوا أضعف من أن يتمكنوا من تغيير الواقع الذي فرضته القوى العظمى.

ج. وعد بلفور (1917):

جاء وعد بلفور ليكون المسمار الأخير في نعش الآمال العربية. فبعد أن وعدت بريطانيا العرب بالاستقلال، وبعد أن اتفقت سراً على تقسيم منطقتهم مع فرنسا، قامت الآن بوعد جزء من هذه المنطقة، وهو فلسطين، لحركة سياسية أوروبية. لقد كان عملاً من أعمال الخيانة المزدوجة، التي لا يمكن تبريرها بأي منطق أخلاقي.

إن مقارنة هذه الوعود الثلاثة تكشف عن الأولويات البريطانية. كان الوعد للعرب غامضاً ومشروطاً، وكان اتفاق سايكس - بيكو سرياً وقابلاً للتفاوض. أما وعد بلفور، فقد كان تصريحاً علنياً، تم التفاوض عليه بعناية، وحصل على موافقة مجلس الوزراء الحربي. لقد كان هو الوعد الأكثر جدية، لأنه كان يخدم المصالح الإمبريالية البريطانية بشكل أفضل. لقد رأت بريطانيا في الصهاينة حليفاً أوروبياً موثوقاً به، يمكن الاعتماد عليه لحماية مصالحها في المنطقة، بينما رأت في العرب مجرد "أدوات" يمكن استخدامها ثم التخلص منها. [17]

لقد خلقت هذه الوعود المتضاربة واقعاً مشوهاً في الشرق الأوسط، واقعاً لا يزال يطاردنا حتى اليوم. لقد رسمت حدوداً مصطنعة، وأنشأت دولاً ضعيفة، وزرعت بذور صراعات لا تنتهي. وكان الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي هو النتيجة الأكثر مأساوية لهذه اللعبة الإمبريالية القذرة.

العقلية الاستعمارية وزواج المصلحة

كان وعد بلفور تتويجاً لـ"زواج مصلحة" بين حركتين كانتا في أوج قوتهما وتوسعهما: الإمبريالية البريطانية والصهيونية السياسية. لفهم هذا الزواج، لا بد من تحليل العقلية التي كانت تحرك الطرفين.

العقلية الإمبريالية البريطانية: كانت بريطانيا في أوائل القرن العشرين لا تزال ترى نفسها كقوة عالمية لها الحق في حكم العالم و"تحديث" الشعوب "المتخلفة". كانت هذه العقلية مزيجاً من الغطرسة العنصرية، والمصالح الاستراتيجية الباردة، والشعور بالتفوق الحضاري. لقد رأى الساسة البريطانيون العالم كلوحة شطرنج كبيرة، والشعوب كقطع يمكن تحريكها لخدمة مصالح الإمبراطورية. لم يكن هناك أي اعتبار لمبدأ تقرير المصير

للشعوب غير الأوروبية. في هذه العقلية، كان من الطبيعي تماماً أن يتم وعد أرض شعب لشعب آخر، دون استشارة أصحاب الأرض الأصليين. لقد كان الفلسطينيون مجرد "تفاصيل مزعجة" في الخطة الكبرى للإمبراطورية. [18]

العقلية الصهيونية كحركة استعمارية: تبنت الحركة الصهيونية، منذ بدايتها، لغة ومنطق وممارسات الحركات الاستعمارية الأوروبية. لقد تحدث قادتها عن "استعمار" فلسطين، و"نقل الحضارة" إلى الشرق "المتخلف". لقد رأوا في أنفسهم "طليعة الحضارة الأوروبية" في مواجهة "البربرية الآسيوية". لقد سعوا إلى التحالف مع قوة إمبريالية راعية، تماماً كما فعلت الحركات الاستعمارية الأخرى. لم يكن هذا مجرد تكتيك، بل كان جزءاً لا يتجزأ من هوية الحركة. لقد كانت الصهيونية، كما وصفها الكاتب الفلسطيني إدوارد سعيد، "آخر حركة استعمارية أوروبية في العصر الحديث". [19] هذا لا يعني أن كل الصهاينة كانوا عنصريين، بل يعني أن الحركة ككل كانت تعمل ضمن إطار فكري استعماري، لم يكن يرى في السكان الأصليين شركاء متساوين، بل عقبة يجب التغلب عليها.

الزواج الكاثوليكي:

كان التحالف بين الصهيونية وبريطانيا "زواجاً كاثوليكياً" (زواجاً لا طلاق فيه)، لأنه كان يخدم المصالح الحيوية للطرفين. الصهيونية قدمت لبريطانيا حليفاً محلياً موالياً، وقاعدة استراتيجية في قلب الشرق الأوسط. وبريطانيا قدمت للصهيونية الشرعية الدولية والغطاء العسكري الذي كانت تحتاجه لتنفيذ مشروعها. لقد كان كلاهما بحاجة إلى الآخر. لكن مثل أي زواج مصلحة، كان محكوماً عليه بالتوتر والصراع. فسرعان ما ستكتشف بريطانيا أن "الطفل" الذي تبنته (الحركة الصهيونية) كان أكثر طموحاً وعناداً مما توقعت. وستكتشف الصهيونية أن "الأم" الراعية (بريطانيا) كانت مستعدة للتخلي عنها عندما تتعارض مصالحها مع ذلك. لكن في عام 1917، كان الطرفان في شهر عسل، وكانا يعتقدان أن هذا الزواج سيستمر إلى الأبد.

الخطيئة الأصلية

كان وعد بلفور هو اللحظة التي تحول فيها المشروع الصهيوني من حلم مستحيل إلى حقيقة ممكنة. لقد كان انتصاراً دبلوماسياً، ولكنه كان أيضاً خطيئة أخلاقية وسياسية أصلية، حكمت على المشروع الصهيوني بأن يكون صراعاً دائماً. يمكن تلخيص أهمية هذا الوعد في النقاط التالية:

الشرعية الدولية: منح وعد بلفور الحركة الصهيونية الشرعية التي كانت في أمس الحاجة إليها، وحولها من حركة خاصة إلى مشروع معترف به دولياً.

التحالف الإمبريالي: ربط المشروع الصهيوني بأقوى إمبراطورية في العالم، ووفر له الغطاء السياسي والعسكري اللازم لتنفيذه.

تجاهل السكان الأصليين: كرس الوعد المبدأ الاستعماري القائل بأن حقوق السكان الأصليين يمكن تجاهلها لصالح مصالح القوى الإمبريالية وحلفائها.

زرع بذور الصراع: من خلال وعد نفس الأرض لطرفين متعارضين، زرعت بريطانيا بذور صراع مرير سيستمر لأكثر من قرن.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: كيف تمكنت حركة سياسية صغيرة، تمثل أقلية لا تتجاوز 7% من سكان فلسطين، من الحصول على وعد من إمبراطورية عالمية

بإنشاء وطن قومي لها على أرض لا تملكها، متجاهلة تماماً حقوق الأغلبية الساحقة من السكان؟

مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وسقوط الدولة العثمانية، أصبحت بريطانيا هي القوة الحاكمة في فلسطين. لقد حصلت على "صك الانتداب" من عصبة الأمم، الذي تضمن وعد بلفور، وأعطاها تفويضاً بإدارة البلاد و"تهيئة الظروف لإقامة وطن قومي يهودي". الفصل التالي، "بناء الدولة تحت الانتداب"، سيحلل كيف استغلت الحركة الصهيونية فترة الانتداب البريطاني (1922-1948) لبناء مؤسسات الدولة المستقبلية حجراً فوق حجر، من خلال الهجرة المنظمة، وشراء الأراضي، وإنشاء قوة عسكرية، بينما كان الفلسطينيون، الذين حرموا من أي دعم دولي، يحاولون يائسين مقاومة هذا المشروع الذي كان يسرق وطنهم من تحت أقدامهم.

مراجع الفصل الثامن:

- [1] The Balfour Declaration, 2 November 1917. The full text is widely available online.
- [2] Fromkin, David. *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East*. Holt Paperbacks, 2009.
- [3] Said, Edward W. *The Question of Palestine*. Vintage Books, 1992.
- [4] Weizmann, Chaim. *Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizmann*. Harper & Brothers, 1949.
- [5] Schneer, Jonathan. *The Balfour Declaration: The Origins of the Arab-Israeli Conflict*. Random House, 2010.
- [6] Ibid.
- [7] Stein, Leonard. *The Balfour Declaration*. The Magnes Press, 1983.

- [8] Renton, James. *The Zionist Masquerade: The Birth of the Anglo-Zionist Alliance,* 1914-1918. Palgrave Macmillan, 2007.
- [9] Tuchman, Barbara W. *Bible and Sword: England and Palestine from the Bronze Age to Balfour*. Ballantine Books, 1984.
- [10] Sanders, Ronald. *The High Walls of Jerusalem: A History of the Balfour Declaration and the Birth of the British Mandate for Palestine*. Holt, Rinehart and Winston, 1983.
- [11] Ibid.
- [12] Khalidi, Rashid. *The Hundred Years' War on Palestine: A History of Settler Colonialism and Resistance,* 1917-2017. Metropolitan Books, 2020.

- [13] Balfour, Arthur. Memorandum, 11 August 1919. Quoted in many sources, including John Quigley, *The Case for Palestine: An International Law Perspective*.
- [14] Montagu, Edwin. Memorandum on the Anti-Semitism of the Present Government, 23 August 1917. The full text is available in the UK National Archives.
- [15] Antonius, George. *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*. J.B. Lippincott Company, 1939.
- [16] Barr, James. *A Line in the Sand: The Anglo-French Struggle for the Middle East,* 1914-1948. W. W. Norton & Company, 2012.
- [17] Shlaim, Avi. *The Iron Wall: Israel and the Arab World*. W. W. Norton & Company, 2014.
- [18] Said, Edward W. *Orientalism*. Pantheon Books, 1978.

- [19] Said, Edward W، "Zionism from the Standpoint of Its Victims،" *Social Text,* no، 1 (Winter 1979): 7-58،

(٩)

بناء الدولة تحت الانتداب

بناء الأمة قبل الدولة

في عام 1925، افتتحت الجامعة العبرية في القدس على جبل المشارف، في حفل مهيب حضره اللورد بلفور نفسه. لم تكن مجرد جامعة، بل كانت رمزاً لطموح الحركة الصهيونية. فبينما كان الفلسطينيون لا يزالون يعيشون تحت وهم أن الانتداب البريطاني هو مجرد فترة انتقالية ستؤدي إلى استقلالهم، كان الصهاينة يعملون بصمت ودأب، ويضعون حجراً فوق حجر، لبناء مؤسسات الدولة اليهودية المستقبلية. لم ينتظروا الحصول على السيادة الرسمية، بل بدأوا في ممارستها على الأرض، وخلق "دولة داخل دولة" تحت حماية ورعاية الانتداب البريطاني.

كانت فترة الانتداب البريطاني على فلسطين (1922-1948) هي الفترة التي تم فيها تحويل وعد بلفور من حبر على ورق إلى واقع ملموس. لقد استغلت الحركة الصهيونية هذه الفترة الذهبية ببراعة، مستفيدة من الدعم البريطاني، ومن تدفق المهاجرين ورؤوس الأموال اليهودية، ومن ضعف وتشتت القيادة الفلسطينية. لقد كانت عملية بناء ممنهجة، شملت كل جوانب الحياة: الهجرة، والاستيطان، والاقتصاد، والسياسة، والأمن. لقد كانت أشبه بعملية زرع عضو غريب في جسد، حيث يقوم العضو المزروع تدريجياً ببناء شبكة أوعيته الدموية الخاصة، وإنشاء جهازه المناعي الخاص، حتى يصبح أقوى من الجسد المضيف، ويتمكن في النهاية من السيطرة عليه ورفضه.

في المقابل، كان رد الفعل الفلسطيني على هذا المشروع يتسم بالرفض والمقاومة، ولكنه كان أيضاً يفتقر إلى التنظيم والاستراتيجية والرؤية المستقبلية. لقد اعتمد الفلسطينيون على الاحتجاجات والإضرابات والثورات العفوية، وعلى ثقتهم الساذجة في "عدالة" بريطانيا أو في تدخل الدول العربية. لم يدركوا، إلا بعد فوات الأوان، أن الصراع لم يكن صراعاً على الحقوق داخل نظام قائم، بل كان صراعاً وجودياً على الأرض نفسها، وأن الطرف الآخر لا يلعب بنفس القواعد.

هذا الفصل سيحلل كيف تمكنت الحركة الصهيونية، خلال ثلاثين عاماً فقط، من بناء دولة قوية وفعالة قبل إعلانها رسمياً. سيكشف عن الآليات الخمسة الرئيسية التي استخدمتها "لسرقة" فلسطين من تحت أقدام أهلها: الهجرة لتغيير الديموغرافيا، وشراء الأراضي لفرض السيادة، وبناء اقتصاد منفصل لخنق الفلسطينيين، وإنشاء قوة عسكرية لفرض الأمر الواقع، وتشكيل حكومة ظل لإدارة المشروع. إنها قصة بناء ناجحة بشكل مذهل، ولكنها أيضاً قصة اغتصاب بطيء وممنهج لوطن بأكمله.

الهجرة المنظمة وتغيير ديموغرافيا فلسطين

كانت الأداة الأولى والأهم التي استخدمتها الحركة الصهيونية هي الهجرة المنظمة (عليا). كان الهدف واضحاً: زيادة عدد السكان اليهود في فلسطين بأسرع وقت ممكن، لتحويلهم من أقلية صغيرة إلى قوة ديموغرافية كبيرة يمكنها المطالبة بالسيادة. لقد تم تنظيم الهجرة في موجات، كل موجة لها خصائصها ومساهمتها في بناء المشروع.

أ. موجات الهجرة (العليا): جيش من المستوطنين

العليا الثالثة (1919-1923): بعد الحرب العالمية الأولى، وصل حوالي 40,000 مهاجر جديد، معظمهم من الشباب من روسيا وبولندا. كانوا مشبعين بالأفكار الاشتراكية، وأسسوا الكيبوتسات (المزارع الجماعية) والهستدروت (اتحاد العمال). لقد وضعوا الأساس للبنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية لـ"اليبشوف" (المجتمع اليهودي في فلسطين). [1]

العليا الرابعة (1924-1929): شهدت هذه الموجة وصول حوالي 82,000 مهاجر، معظمهم من الطبقة الوسطى من بولندا. استقر هؤلاء في المدن، وخاصة تل أبيب، وأسسوا مشاريع تجارية وصناعية صغيرة. لقد ساهموا في تطوير الاقتصاد الحضري للمجتمع اليهودي. [2]

العليا الخامسة (1929-1939): كانت هذه هي الموجة الأكبر والأكثر تأثيراً. فمع صعود النازية في ألمانيا، فر حوالي 250,000 يهودي إلى فلسطين، معظمهم من المهنيين

والأكاديميين ورجال الأعمال الألمان. لقد جلبوا معهم خبراتهم ورؤوس أموالهم، وأحدثوا طفرة نوعية في اقتصاد الييشوف وثقافته. [3]

بحلول عام 1939، ارتفع عدد السكان اليهود في فلسطين من حوالي 56,000 عام 1918 إلى ما يقرب من 450,000، أي من 8% إلى حوالي 30% من إجمالي السكان. لقد نجحت الصهيونية في تغيير الواقع الديموغرافي للبلاد بشكل جذري.

ب. "الهجرة غير الشرعية": كسر القيود البريطانية

عندما بدأت بريطانيا، تحت ضغط المقاومة العربية، في فرض قيود على الهجرة اليهودية (خاصة بعد صدور "الكتاب الأبيض" عام 1939)، لم تستسلم الحركة الصهيونية. بل قامت بتنظيم شبكة واسعة لـ"الهجرة غير الشرعية" (عليا بت)، باستخدام سفن متهالكة لنقل عشرات الآلاف من اللاجئين اليهود، وخاصة الناجين من الهولوكوست، إلى فلسطين. لقد كانت هذه العملية تخدم هدفين: إنقاذ اليهود، وفي نفس الوقت إحراج بريطانيا دولياً والضغط عليها لفتح أبواب فلسطين. [4]

ج. رد الفعل الفلسطيني: الخوف من "الغزو" الديموغرافي

شاهد الفلسطينيون هذا التدفق البشري بقلق متزايد. لقد رأوا فيه "غزواً" ديموغرافياً يهدف إلى تجريدهم من أغلبيتهم العددية في وطنهم. كانت هتافاتهم في المظاهرات تعبر عن هذا الخوف: "فلسطين بلادنا واليهود كلابنا". لقد طالبوا مراراً وتكراراً بوقف الهجرة اليهودية، لكن السلطات البريطانية، التي كانت ملتزمة بوعد بلفور، تجاهلت مطالبهم في معظم الأحيان. كان هذا الخوف من التغيير الديموغرافي هو المحرك الرئيسي للمقاومة الفلسطينية طوال فترة الانتداب.

"تخليص" الأرض من أهلها

كانت الأداة الثانية هي السيطرة على الأرض. لم تكن الصهيونية تهدف فقط إلى جلب المهاجرين، بل إلى توطينهم على أرض مملوكة لليهود بشكل حصري. لقد أطلقوا على عملية شراء الأراضي اسم "تخليص الأرض" (Geulat Ha-Aretz)، وهو مصطلح ديني يعني "خلاص" أو "فداء" الأرض. كان الهدف هو خلق منطقة يهودية متصلة جغرافياً، تكون نواة للدولة المستقبلية.

أ. الصندوق القومي اليهودي: الذراع العقاري للمشروع

كانت الأداة الرئيسية لشراء الأراضي هي "الصندوق القومي اليهودي" (Keren Kayemeth LeIsrael – KKL)، الذي تأسس عام 1901. كان الصندوق يجمع التبرعات من يهود العالم من خلال "الصناديق الزرقاء" التي كانت توزع في كل بيت ومدرسة يهودية. كانت مبادئ الصندوق صارمة: أي أرض يشتريها الصندوق تصبح ملكية أبدية للشعب اليهودي، لا يمكن بيعها أو تأجيرها لغير اليهود. [5]

ب. من أين تم شراء الأراضي؟

من المفارقات أن معظم الأراضي التي اشتراها الصهاينة لم يتم شراؤها من الفلاحين الفلسطينيين الصغار، بل من كبار المالكين الإقطاعيين الغائبين، الذين كانوا يعيشون في بيروت ودمشق والقاهرة. كانت عائلات مثل سرسق وتويني واليازجي، التي كانت تملك مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة في فلسطين، هي التي باعت هذه الأراضي للصهاينة مقابل أسعار خيالية، غير مكترثة بمصير آلاف الفلاحين الذين كانوا يعيشون ويعملون في هذه الأراضي منذ قرون. [6]

عندما كانت تتم عملية البيع، كان الصندوق القومي اليهودي يقوم بطرد الفلاحين الفلسطينيين من الأرض بالقوة، مستخدماً الشرطة البريطانية في كثير من الأحيان. كان هؤلاء الفلاحون، الذين أصبحوا بلا أرض وبلا عمل، يتجهون إلى المدن للبحث عن عمل، ويشكلون حزاماً من الفقر والبؤس حول مدن مثل حيفا ويافا، ويصبحون وقوداً للثورات والاحتجاجات.

ج. "العمل العبري": سياسة الفصل العنصري

لم يكتف الصهاينة بشراء الأرض وطرد الفلاحين، بل طبقوا أيضاً سياسة "العمل العبري" (Avoda Ivrit). كانت هذه السياسة، التي قادها حزب "أهدوت هعفودا" الاشتراكي، تهدف إلى ضمان أن يعمل اليهود فقط في المستوطنات والمصانع اليهودية. كان يتم تنظيم إضرابات ومقاطعات ضد أصحاب المزارع اليهود الذين كانوا يوظفون عمالاً عرباً، لأنهم كانوا أرخص. كان الهدف هو خلق اقتصاد يهودي منفصل تماماً، لا يعتمد على العمالة العربية. لقد كانت هذه سياسة فصل عنصري اقتصادية، تهدف إلى عزل المجتمعين عن بعضهما البعض، ومنع أي إمكانية للتعايش. [7]

بحلول نهاية الانتداب، كان اليهود قد تمكنوا من السيطرة على حوالي 7% فقط من أراضي فلسطين. قد تبدو هذه نسبة صغيرة، لكنها كانت تشمل بعضاً من أخصب الأراضي الساحلية، وكانت تشكل قاعدة استراتيجية حيوية للدولة المستقبلية. الأهم من ذلك، أن عملية شراء الأراضي وطرد الفلاحين قد خلقت مشكلة لاجئين داخلية، وأججت مشاعر الكراهية والعداء بين الطرفين، وجعلت فكرة التقسيم والحل السلمي شبه مستحيلة.

اقتصاد منفصل وخنق المجتمع الفلسطيني

كانت الأداة الثالثة هي بناء اقتصاد يهودي قوي ومنفصل، يهدف إلى تمكين اليیشوف، وفي نفس الوقت إضعاف الاقتصاد الفلسطيني وخنقه. لقد تم ذلك من خلال إنشاء مؤسسات اقتصادية مركزية، وتوجيه رؤوس الأموال اليهودية لخدمة المشروع الصهيوني.

أ. الهستدروت: إمبراطورية اقتصادية واجتماعية

كانت المؤسسة الاقتصادية الأهم هي "الهستدروت" (اتحاد العمال العام)، الذي تأسس عام 1920. لم يكن الهستدروت مجرد نقابة عمالية، بل كان إمبراطورية اقتصادية واجتماعية ضخمة. كان يملك ويدير بنك "هبوعليم" (بنك العمال)، وشركة البناء "سوليل

بونيه"، وشركة التسويق الزراعي "تنوفا"، وشركة النقل "إيجد"، بالإضافة إلى شبكة واسعة من المدارس والمستشفيات والنوادي الرياضية. [8]

كان الهستدروت يسيطر على كل جانب من جوانب حياة العامل اليهودي، من المهد إلى اللحد. وكان أيضاً الأداة الرئيسية لتطبيق سياسة "العمل العبري" والفصل الاقتصادي. لقد كان بمثابة دولة اشتراكية مصغرة، توفر الخدمات لأعضائها، وتعمل على بناء اقتصاد يهودي مستقل تماماً عن الاقتصاد العربي.

ب. الوكالة اليهودية: حكومة الظل الاقتصادية

كانت "الوكالة اليهودية"، التي تم الاعتراف بها في صك الانتداب كهيئة رسمية تمثل اليهود، هي حكومة الظل التي تدير المشروع الصهيوني. كانت الوكالة مسؤولة عن تنظيم الهجرة، وتوزيع رؤوس الأموال التي كانت تأتي من الخارج، وتوجيه الاستثمارات نحو المشاريع التي تخدم الهدف القومي. لقد عملت كحكومة مركزية للييشوف، تخطط وتنفذ وتنسق عملية بناء الدولة. [9]

ج. التأثير على الاقتصاد الفلسطيني

في المقابل، كان الاقتصاد الفلسطيني اقتصاداً تقليدياً، يعتمد على الزراعة، ويفتقر إلى المؤسسات المركزية ورؤوس الأموال. لم يكن هناك بنوك فلسطينية قوية، أو شركات بناء كبيرة، أو حكومة فلسطينية تدعم المزارعين والصناعيين. لقد ترك الاقتصاد الفلسطيني ليواجه المنافسة غير المتكافئة مع الاقتصاد الصهيوني المنظم والمدعوم.

كانت النتيجة هي تهميش الاقتصاد الفلسطيني بشكل تدريجي. فبينما كانت تل أبيب تنمو وتزدهر كمدينة يهودية حديثة، كانت المدن الفلسطينية مثل يافا وحيفا تفقد مكانتها. وبينما كانت المستوطنات اليهودية تستخدم أحدث التقنيات الزراعية، كان الفلاح الفلسطيني لا يزال يستخدم الأدوات التقليدية. لقد خلق هذا التطور الاقتصادي غير المتكافئ هوة واسعة بين المجتمعين، وزاد من شعور الفلسطينيين بالغبن والتهميش. [10]

بناء جيش سري

أدركت الحركة الصهيونية منذ البداية أن مشروعها لا يمكن أن يتحقق إلا بالقوة. فمهما كانت الإنجازات الدبلوماسية والاقتصادية، فإنها لن تكون كافية لفرض السيادة على شعب يرفض وجودها. لذلك، كان بناء قوة عسكرية سرية، قادرة على الدفاع عن

المستوطنات اليهودية، وفي النهاية قادرة على خوض حرب ضد العرب، جزءاً لا يتجزأ من استراتيجية بناء الدولة.

أ. الهاغاناه: من ميليشيا دفاعية إلى جيش منظم

كانت القوة العسكرية الرئيسية هي "الهاغاناه" (الدفاع)، التي تأسست عام 1920 كرد فعل على هجمات عربية على المستوطنات اليهودية. في البداية، كانت الهاغاناه ميليشيا صغيرة وسرية، تهدف إلى حماية المستوطنات. لكنها تطورت تدريجياً، تحت قيادة الهستدروت والوكالة اليهودية، لتصبح جيشاً سرياً منظماً، له قيادة مركزية، ووحدات استخبارات، ومصانع أسلحة سرية. [11]

خلال الثورة الفلسطينية الكبرى (1936-1939)، تعاونت الهاغاناه بشكل وثيق مع الجيش البريطاني لقمع الثورة. قام الضابط البريطاني أورد وينغيت، وهو صهيوني مسيحي متطرف، بتدريب وحدات خاصة من الهاغاناه، عُرفت بـ"فرق الليل الخاصة"، على تكتيكات حرب العصابات والهجمات الليلية ضد القرى الفلسطينية. لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تنتقل فيها الهاغاناه من الدفاع إلى الهجوم. [12]

ب. الإيتسل والليحي: المنظمات الإرهابية

إلى جانب الهاغاناه، التي كانت تعتبر القوة "الرسمية" للييشوف، كانت هناك منظمتان يمينيتان متطرفة، لم تكونا تخضعان لسلطة الوكالة اليهودية. كانت الأولى هي "الإيتسل" (المنظمة العسكرية القومية)، التي تأسست عام 1931 بقيادة زئيف جابوتنسكي، ثم لاحقاً مناحيم بيغن. كانت الإيتسل ترفض سياسة "ضبط النفس" التي تتبعها الهاغاناه، وتؤمن بـ"العين بالعين"، وتقوم بعمليات انتقامية ضد المدنيين العرب. [13]

أما المنظمة الثانية، والأكثر تطرفاً، فكانت "ليحي" (مقاتلون من أجل حرية إسرائيل)، التي انشقت عن الإيتسل عام 1940 بقيادة أبراهام شتيرن (ولذلك كانت تعرف أيضاً بـ"عصابة شتيرن"). كانت الليحي ترى في بريطانيا العدو الرئيسي، وقامت بسلسلة من الاغتيالات والهجمات الإرهابية ضد المسؤولين والجنود البريطانيين. بل إنها حاولت الاتصال بالنازيين خلال الحرب العالمية الثانية، على أساس أن "عدو عدوي صديقي". [14]

رغم أن قيادة الييشوف الرسمية كانت تدين أعمال الإ يتسل والليحي علناً، إلا أنها كانت في كثير من الأحيان تتعاون معها سراً. لقد كانت هذه المنظمات تقوم بـ "الأعمال القذرة" التي لم تكن القيادة الرسمية تريد أن تتورط فيها بشكل مباشر. لقد كانت تشكل معاً ذراعاً عسكرياً متعدد الرؤوس، قادراً على ممارسة الدفاع والهجوم والإرهاب في آن واحد.

بحلول عام 1947، كان لدى الييشوف جيش شبه رسمي (الهاغاناه) يضم عشرات الآلاف من المقاتلين المدربين والمسلحين، بالإضافة إلى منظمات إرهابية ذات خبرة. في المقابل، كان الفلسطينيون قد تم نزع سلاحهم بالكامل من قبل البريطانيين بعد ثورة 1936. لقد كانت موازين القوى العسكرية تميل لصالح الصهاينة، مما مهد الطريق للنكبة.

المقاومة الفلسطينية

أمام هذا المشروع الصهيوني المنظم والمدعوم من بريطانيا، لم يقف الفلسطينيون مكتوفي الأيدي. لقد قاوموا بكل ما لديهم من وسائل، من الاحتجاجات السلمية إلى الإضرابات العامة، وصولاً إلى الثورة المسلحة. لكن مقاومتهم كانت، منذ البداية، محكوماً عليها بالفشل، لعدة أسباب هيكلية.

أ. قيادة منقسمة وتقليدية

كانت القيادة الفلسطينية منقسمة بين عائلتين أرستقراطيتين متنافستين في القدس: الحسينيون والنشاشيبيون. كان الصراع بين هاتين العائلتين على النفوذ والمناصب أهم في كثير من الأحيان من مواجهة الخطر الصهيوني. كانت هذه القيادة أيضاً قيادة تقليدية، تعتمد على الوجاهة والنفوذ الشخصي، وتفتقر إلى الرؤية الاستراتيجية والقدرة على بناء مؤسسات حديثة وفعالة، على عكس القيادة الصهيونية. [15]

كان الحاج أمين الحسيني، الذي عينه البريطانيون مفتياً للقدس ورئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى، هو الشخصية الأبرز في القيادة الفلسطينية. ورغم شعبيته، إلا أنه كان شخصية مثيرة للجدل، اتسمت مواقفه بالتشدد وعدم المرونة، وفشل في بناء جبهة وطنية موحدة. [16]

ب. ثورة 1936-1939: الانتفاضة الكبرى

كانت الثورة الفلسطينية الكبرى (1936-1939) هي ذروة المقاومة الفلسطينية ضد الانتداب البريطاني والمشروع الصهيوني. بدأت الثورة بإضراب عام شامل استمر ستة أشهر، ثم تطورت إلى ثورة مسلحة في الأرياف. لقد كانت ثورة شعبية حقيقية، شارك فيها الفلاحون والعمال والمثقفون. لقد تمكن الثوار من السيطرة على أجزاء واسعة من الريف الفلسطيني، وألحقوا خسائر كبيرة بالبريطانيين والصهاينة. [17]

لكن الثورة قمعت بوحشية من قبل الجيش البريطاني، الذي استخدم كل وسائل القمع، من نسف المنازل إلى الاعتقالات الجماعية والتعذيب والإعدام. كما تعاونت الهاغاناه بشكل وثيق مع البريطانيين في قمع الثورة. بحلول عام 1939، كانت الثورة قد سحقت. كانت نتائجها كارثية على الفلسطينيين. فقد قتل منهم أكثر من 5,000 شخص، وسجن عشرات الآلاف، وتم نزع سلاحهم بالكامل. والأهم من ذلك، أن النخبة السياسية والعسكرية الفلسطينية تم القضاء عليها أو نفيها. لقد تركت الثورة المجتمع الفلسطيني منهاراً ومجرداً من قيادته ومن قدرته على الدفاع عن نفسه، عشية الحرب العالمية الثانية والنكبة.

ج. الاعتماد على الأنظمة العربية:

بعد فشل ثورة 1936، بدأ الفلسطينيون يعلقون آمالهم بشكل متزايد على تدخل الدول العربية لإنقاذهم. لكن هذا الاعتماد كان في غير محله. فالأنظمة العربية كانت هي نفسها حديثة الاستقلال، وضعيفة، وتخضع للنفوذ البريطاني. كانت هذه الأنظمة منقسمة على نفسها، ولكل منها طموحاتها ومصالحها الخاصة. لقد استخدمت قضية فلسطين للتنافس فيما بينها، ولتحقيق مكاسب سياسية داخلية، لكنها لم تكن مستعدة أو قادرة على خوض حرب حقيقية من أجل فلسطين. لقد كان وعدها بـ "رمي اليهود في البحر" مجرد خطاب للاستهلاك المحلي، لم يكن له أي أساس على أرض الواقع. هذا الاعتماد على "الأخوة" العرب سيثبت أنه وهم قاتل في عام 1948. [18]

حرب المواقع وحرب المناورة

يمكن فهم الصراع بين الصهاينة والفلسطينيين خلال فترة الانتداب باستخدام مفهومين من المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي: "حرب المواقع" (War of Position) و"حرب المناورة" (War of Manoeuvre). [19]

الصهيونية و"حرب المواقع": أدركت الحركة الصهيونية أنها لا تستطيع الاستيلاء على السلطة في فلسطين بـ "حرب مناورة" سريعة، أي بهجوم مباشر. لذلك، اتبعت استراتيجية "حرب المواقع". كانت هذه حرباً طويلة الأمد، تهدف إلى بناء شبكة كثيفة من المؤسسات والهياكل (المجتمع المدني)، التي تشكل "خنادق" و"حصوناً" للدولة المستقبلية. كانت كل مؤسسة - الجامعة العبرية، الهستدروت، الهاغاناه، الصندوق القومي - بمثابة "موقع" يتم الاستيلاء عليه وتعزيزه، قبل الانتقال إلى الموقع التالي. لقد كانت عملية بناء هيمنة ثقافية وسياسية واقتصادية بطيئة وممنهجة، تهدف إلى تطويق المجتمع الفلسطيني وإضعافه، قبل شن الهجوم النهائي. لقد فازت الصهيونية بالحرب قبل أن تبدأ، لأنها فازت في "حرب المواقع".

الفلسطينيون و"حرب المناورة" الفاشلة: في المقابل، اعتمد الفلسطينيون على "حرب المناورة" - أي على المواجهات المباشرة والعفوية مع السلطة البريطانية والمشروع الصهيوني. كانت ثورة 1936 هي المثال الأبرز على ذلك. لقد كانت محاولة للاستيلاء على السلطة بالقوة، دون وجود بنية تحتية مؤسسية قوية تدعمها. عندما فشلت هذه "المناورة"، لم يكن لدى الفلسطينيين أي "مواقع" محصنة يلجأون إليها. لقد كانوا مكشوفين

تماماً أمام الهجوم المضاد. لقد افتقروا إلى "مجتمع مدني" قوي - إلى مؤسسات تعليمية واقتصادية وعسكرية مستقلة - يمكن أن تشكل قاعدة لصمودهم. لقد وضعوا كل رهاناتهم على المواجهة المباشرة، وعندما خسروها، خسروا كل شيء.

النقطة العمياء الفلسطينية:

كانت النقطة العمياء القاتلة للقيادة الفلسطينية هي فشلها في فهم طبيعة المشروع الصهيوني. لقد تعاملوا معه كما لو كان مجرد جماعة مهاجرين أخرى، أو كأداة في يد الإمبريالية البريطانية. لم يدركوا أنه كان حركة قومية حديثة، ذات أهداف إقصائية، وتتمتع بقدرات تنظيمية وتعبوية فائقة. لقد استمروا في الاعتقاد بأنهم إذا تمكنوا من إقناع بريطانيا بالعدول عن سياستها، فإن المشكلة ستحل. لم يفهموا أن الصهيونية كانت مشروعاً مستقلاً، له ديناميكيته الخاصة، وأنه لن يختفي حتى لو تخلت عنه بريطانيا. هذا الفشل في فهم العدو هو الذي جعل مقاومتهم غير فعالة، وأدى بهم في النهاية إلى الكارثة.

دولة جاهزة للإعلان

عندما أحالت بريطانيا قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة في عام 1947، كانت نتيجة الصراع محسومة عملياً. لقد نجحت الحركة الصهيونية، خلال ثلاثين عاماً من الانتداب، في بناء "دولة داخل دولة". كانت هذه الدولة تمتلك:

شعباً: مجتمع يهودي يبلغ تعداده حوالي 600,000 نسمة، أي ما يقرب من ثلث السكان.

أرضاً: سيطرة على مساحات استراتيجية من الأراضي الخصبة.

اقتصاداً: اقتصاد حديث ومنظم ومستقل.

حكومة: وكالة يهودية تعمل كحكومة ظل فعالة.

جيشاً: قوة عسكرية مدربة ومسلحة وجاهزة للحرب.

في المقابل، كان المجتمع الفلسطيني مجتمعاً مفككاً، بلا قيادة فعالة، وبلا مؤسسات قوية، وبلا قوة عسكرية. لقد تم إضعافه وتجريده من أسلحته بشكل ممنهج.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: كيف تمكنت أقلية مهاجرة من بناء دولة كاملة الأركان تحت أنف وسمع القوة المنتدبة، وفي مواجهة مقاومة مستمرة من الأغلبية الأصلية؟

مع نهاية الانتداب البريطاني، أصبحت المواجهة بين المشروع الصهيوني والشعب الفلسطيني حتمية. لقد صوتت الأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين، الذي أعطى الصهاينة الشرعية الدولية التي كانوا ينتظرونها. لكن الصهاينة لم يكونوا ينوون الالتزام بحدود التقسيم. لقد كانت لديهم خطة سرية، "خطة دالت"، التي كانت تهدف إلى تطهير فلسطين عرقياً من أكبر عدد ممكن من سكانها العرب، للاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من الأرض. الفصل التالي، "النكبة: ولادة إسرائيل وموت فلسطين"، سيكشف عن تفاصيل هذه الخطة، وكيف تم تنفيذها بوحشية، مما أدى إلى تدمير المجتمع الفلسطيني، وولادة دولة إسرائيل على أنقاضه.

مراجع الفصل التاسع:

- [1] Segev, Tom. *One Palestine, Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate*. Metropolitan Books, 2000.
- [2] Ibid.
- [3] Laqueur, Walter. *A History of Zionism*. Schocken Books, 2003.
- [4] Halamish, Aviva. *The Yishuv: The Pre-State Jewish Community in Palestine and the Zionist Movement*. Brandeis University Press, 2021.
- [5] Lehn, Walter, and Uri Davis. *The Jewish National Fund*. Kegan Paul International, 1988.
- [6] Porath, Yehoshua. *The Palestinian Arab National Movement: From Riots to Rebellion,* 1929-1939. Frank Cass, 1977.

- [7] Shafir, Gershon. *Land, Labor and the Origins of the Israeli-Palestinian Conflict,* 1882-1914. University of California Press, 1996.
- [8] Lockman, Zachary. *Comrades and Enemies*: *Arab and Jewish Workers in Palestine,* 1906-1948. University of California Press, 1996.
- [9] Horowitz, Dan, and Moshe Lissak. *Origins of the Israeli Polity*: *Palestine Under the Mandate*. University of Chicago Press, 1978.
- [10] Khalidi, Rashid. *Palestinian Identity*: *The Construction of Modern National Consciousness*. Columbia University Press, 1997.
- [11] Milstein, Uri. *History of the War of Independence, Vol*. 1: *A Nation Girds for War*. University Press of America, 1996.

- [12] Morris, Benny. *Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Conflict*, 1881-2001. Vintage Books, 2001.
- [13] Begin, Menachem. *The Revolt*. Dell Publishing, 1978.
- [14] Heller, Joseph. *The Stern Gang: Ideology, Politics and Terror*, 1940-1949. Frank Cass, 1995.
- [15] Mattar, Philip. *The Mufti of Jerusalem: Al-Hajj Amin al-Husayni and the Palestinian National Movement*. Columbia University Press, 1988.
- [16] Ibid.
- [17] Swedenburg, Ted. *Memories of Revolt: The* 1936-1939 *Rebellion and the Palestinian National Past*. University of Arkansas Press, 2003.
- [18] Shlaim, Avi. *Collusion Across the Jordan: King Abdullah, the Zionist Movement, and the Partition of Palestine*. Columbia University Press, 1988.

- [19] Gramsci, Antonio. *Selections from the Prison Notebooks*. Edited and translated by Quintin Hoare and Geoffrey Nowell Smith. International Publishers, 1971. (This is a theoretical reference for the concepts, not directly about Palestine).

(١٠)

عقلية الضحية المنتصرة

من غرف الغاز إلى قمة القيادة

في عام 1961، جلس العالم مذهولاً وهو يتابع محاكمة أدولف أيخمان، مهندس "الحل الأخير" النازي، في القدس. لم تكن مجرد محاكمة لمجرم حرب، بل كانت مسرحية سياسية عالمية، أخرجتها دولة إسرائيل ببراعة فائقة. على منصة الشهود، لم يقف الناجون من الهولوكوست كضحايا ضعفاء يطلبون الشفقة، بل كشهود أقوياء يروون قصة صمودهم وانتصارهم. كانت الرسالة واضحة: اليهودي القديم، الذي كان يساق كالخراف إلى الموت، قد مات. وولد مكانه "اليهودي الجديد"، الإسرائيلي، الذي يحمل السلاح، ويحاكم جلاديه، ويتحكم في مصيره. [1]

كانت محاكمة أيخمان هي التتويج لعملية تحول نفسي عميقة ومعقدة، بدأت في معسكرات الموت في أوروبا، وانتهت في ساحات المعارك في فلسطين. إنها قصة "عقلية الضحية المنتصرة"، وهي عقلية فريدة ومتناقضة، تشكل جوهر الهوية الإسرائيلية. هذه العقلية، من ناحية، تتغذى على شعور دائم بالاضطهاد والخطر الوجودي، وترى في كل نقد معاداة للسامية، وفي كل عدو هتلر جديد. ومن ناحية أخرى، هي عقلية منتصرة، تؤمن بالقوة كحل وحيد، وتبرر أي عمل، مهما كان عنيفاً، باسم "الدفاع عن النفس" و"منع هولوكوست آخر".

هذا المزيج المتفجر من الشعور بالضعف ومن عبادة القوة هو الذي يفسر الكثير من السلوك الإسرائيلي. فهو يفسر كيف يمكن لدولة تمتلك أحدث الأسلحة النووية أن تشعر بأنها مهددة بالزوال. ويفسر كيف يمكن لجيشها، أحد أقوى جيوش العالم، أن يصور نفسه دائماً على أنه "الجيش الأكثر أخلاقية في العالم"، حتى وهو يرتكب أفظع الجرائم. ويفسر كيف يمكن لمجتمع بأكمله أن يعيش في حالة إنكار شبه كامل لمعاناة الشعب الذي احتله وشرده.

هذا الفصل سيغوص في أعماق النفسية الإسرائيلية، ليكشف عن الجذور التاريخية والفكرية لـ "عقلية الضحية المنتصرة". سنرى كيف تم بناء هذه العقلية بشكل منهجي من خلال التعليم والإعلام والسياسة. وسنحلل كيف أصبحت هذه العقلية أداة فعالة لتبرير الاحتلال والعنف، ولتحصين المجتمع الإسرائيلي ضد أي شعور بالذنب أو المسؤولية الأخلاقية. إنها قصة كيف يمكن للألم، عندما يتم استغلاله سياسياً، أن يتحول من مصدر للتعاطف إلى أداة للقمع.

الهولوكوست كدين مدني: "تذكر ولا تنسى"

أصبحت ذكرى الهولوكوست (أو "الكارثة" كما تعرف بالعبرية: الشواة) هي الدين المدني لدولة إسرائيل. إنها ليست مجرد حدث تاريخي، بل هي أسطورة تأسيسية، ونقطة مرجعية مقدسة، تحدد هوية الدولة وتبرر وجودها. لقد تم تحويل وصية "تذكر ولا تنسى" من وصية دينية إلى عقيدة سياسية، تستخدم لتشكيل وعي الأجيال الجديدة، ولحشد الدعم الدولي.

أ. "من الهولوكوست إلى البعث": السردية الصهيونية الرسمية

لقد قامت الصهيونية ببناء سردية رسمية تربط بشكل مباشر بين الهولوكوست وقيام دولة إسرائيل. تقول هذه السردية، التي يتم تدريسها في كل المدارس الإسرائيلية، إن الهولوكوست كان النتيجة الحتمية لـ 2000 عام من حياة الشتات والضعف. وأن الحل الوحيد لهذه المشكلة هو قيام دولة يهودية قوية، قادرة على الدفاع عن نفسها. في هذه السردية، تصبح إسرائيل هي "البعث" (تكوفا) بعد "الكارثة" (الشواة). إنها الانتصار على هتلر، والضمانة الوحيدة لعدم تكرار المأساة. [2]

هذه السردية، رغم قوتها العاطفية، هي سردية انتقائية ومضللة. فهي تتجاهل حقيقة أن المشروع الصهيوني بدأ قبل الهولوكوست بعقود. وهي تتجاهل حقيقة أن معظم الناجين من الهولوكوست كانوا يفضلون الذهاب إلى أمريكا، وليس إلى فلسطين. وهي تتجاهل، الأهم من ذلك كله، أنها تحول مأساة إنسانية عالمية إلى أصل قومي خاص، يستخدم لتبرير مشروع استعماري. [3]

ب. طقوس الذاكرة: صناعة الوعي

يتم ترسيخ هذه السردية من خلال شبكة كثيفة من طقوس الذاكرة. "يوم ذكرى الكارثة والبطولة" هو يوم مقدس في إسرائيل، تتوقف فيه الحياة لمدة دقيقتين، وتدوي صفارات الإنذار في جميع أنحاء البلاد، ويقف الجميع في صمت. متحف "ياد فاشيم" في القدس هو مزار وطني، يزوره كل طالب وجندي وسائح أجنبي. تم تصميم المتحف بعناية فائقة ليأخذ الزائر في رحلة عاطفية، تبدأ من الظلام واليأس في أوروبا، وتنتهي بالضوء والأمل في القدس، مع إطلالة بانورامية على تلالها. [4]

الرحلات المنظمة لطلاب المدارس الثانوية إلى معسكرات الموت في بولندا هي طقس عبور أساسي في حياة الشباب الإسرائيلي. هناك، في أوشفيتز وبيركيناو، يلف الطلاب أنفسهم بالأعلام الإسرائيلية، وينشدون النشيد الوطني "هاتيكفا" (الأمل). إنها رسالة قوية: "نحن هنا، لقد انتصرنا". إنها لحظة يتم فيها تحويل الألم إلى قوة، والضعف إلى فخر قومي. [5]

ج. إساءة استخدام الذاكرة: تبرير الحاضر

لقد أدى هذا التوظيف السياسي المكثف لذاكرة الهولوكوست إلى ما يسميه البعض "إساءة استخدام الذاكرة". لقد أصبحت ذكرى الهولوكوست تستخدم كدرع لحماية إسرائيل من أي نقد. فأي محاولة لمقارنة السياسات الإسرائيلية بسياسات أخرى، أو لانتقاد معاملتها للفلسطينيين، يتم رفضها فوراً باعتبارها "معاداة للسامية" أو "إنكاراً للهولوكوست".

لقد أصبح قادة إسرائيل يستخدمون الهولوكوست بشكل روتيني لتبرير سياساتهم. فمناحيم بيغن شبه ياسر عرفات بهتلر في مخبئه في بيروت. وبنيامين نتنياهو شبه الاتفاق النووي مع إيران باتفاق ميونيخ مع هتلر. لقد أصبح كل عدو هو هتلر، وكل تهديد هو هولوكوست جديد. هذا الاستخدام المفرط والمبتذل لذاكرة الهولوكوست لا يؤدي فقط إلى إفراغها من معناها الإنساني العالمي، بل يحولها أيضاً إلى أداة لخدمة سياسات القمع والاحتلال. [6]

اليهودي الجديد:

كانت الصهيونية، منذ بدايتها، ثورة ضد "اليهودي القديم"، يهودي الشتات (الغالوت). لقد رأت فيه شخصية سلبية، ضعيفة، خانعة، تعيش على هامش التاريخ. وسعت إلى خلق "يهودي جديد"، يكون نقيضاً تاماً لسلفه. هذا "اليهودي الجديد" هو "الصابرا" (التين الشوكي)، الذي يولد في إسرائيل، خشناً من الخارج، حلواً من الداخل. إنه فلاح ومحارب، مرتبط بالأرض، قوي، واثق، لا يخشى استخدام القوة.

أ. الصابرا: نقيض يهودي الشتات

لقد تم تمجيد "الصابرا" في الأدب والفن الإسرائيلي كنموذج مثالي. إنه شاب أسمر، مفتول العضلات، قليل الكلام، عملي، يحتقر الثقافة الأوروبية "المتدهورة" التي جاء منها آباؤه. إنه يمثل قطيعة كاملة مع الماضي اليهودي. لقد تم بناء هذه الصورة من خلال حركات الشبية الصهيونية، ومن خلال الخدمة العسكرية الإلزامية، التي كانت بمثابة "بوتقة صهر" تحول المهاجرين من مختلف الثقافات إلى "إسرائيليين" جدد. [7]

كان هذا التمجيد لـ"اليهودي الجديد" مصحوباً باحتقار ونفي لـ"اليهودي القديم". لقد كان يُنظر إلى الناجين من الهولوكوست، في السنوات الأولى للدولة، بشيء من الشك والاحتقار. كان يُنظر إليهم على أنهم "غبار بشري"، وكان يُتهمون بأنهم ذهبوا "كالأغنام إلى الذبح"، ولم يقاوموا. لقد كانت محاكمة أيخمان، في جزء منها، محاولة من جيل "الصابرا" الحاكم (بقيادة بن غوريون) لتعليم هؤلاء الناجين كيف يروون قصتهم بالطريقة "الصحيحة"، أي بطريقة تخدم السردية الصهيونية. [8]

ب. القوة كقيمة عليا: "الجيش الأكثر أخلاقية في العالم"

في عالم "اليهودي الجديد"، أصبحت القوة هي القيمة العليا. لقد أصبح الجيش هو المؤسسة الأكثر احتراماً في المجتمع الإسرائيلي، وأصبح "الأمن" هو الكلمة السحرية التي تبرر كل شيء. لقد تم بناء أسطورة "طهارة السلاح" (Tohar Ha-Neshek)، التي تدعي أن الجيش الإسرائيلي هو "الجيش الأكثر أخلاقية في العالم"، وأنه لا يستخدم القوة إلا للدفاع عن النفس، وبأقصى درجات ضبط النفس.

هذه الأسطورة، التي يتم الترويج لها باستمرار في الإعلام والمدارس، تتعارض بشكل صارخ مع الواقع الدموي للاحتلال. لكنها ضرورية للحفاظ على الصورة الذاتية الإيجابية للمجتمع الإسرائيلي. فهي تسمح للجندي الشاب الذي يخدم في الأراضي المحتلة، والذي يقوم بقمع المظاهرات واعتقال الأطفال وهدم المنازل، بأن يرى نفسه كـ"مدافع" وليس كـ"محتل". إنها آلية دفاع نفسي جماعية، تحمي المجتمع من مواجهة الحقيقة البشعة لأفعاله. [9]

ج. إنكار النكبة: الخوف من المرآة

إن عبادة القوة وتمجيد "اليهودي الجديد" مرتبطان بشكل مباشر بإنكار معاناة الآخر. فإذا كانت إسرائيل هي الضحية المطلقة للتاريخ، وإذا كان اليهود هم الشعب المختار الذي عاد إلى أرضه، فإن هذا لا يترك أي مكان في السردية لمعاناة الفلسطينيين. لذلك، كان لا بد من إنكار النكبة، أو على الأقل تبريرها.

في السردية الصهيونية الرسمية، لم يتم طرد الفلسطينيين، بل "هربوا" بناءً على أوامر من القادة العرب. لم يتم تدمير قراهم، بل كانت "مهجورة". لم تكن هناك مذابح، بل كانت

مجرد "حوادث معزولة" في خضم حرب "دفاعية". هذا الإنكار المنهجي للنكبة، الذي استمر لعقود، كان ضرورياً للحفاظ على صورة إسرائيل كضحية بريئة. فالاعتراف بأن ولادة إسرائيل كانت هي نفسها "كارثة" لشعب آخر، من شأنه أن يحطم هذه الصورة، ويجبر الإسرائيليين على النظر في المرآة، ورؤية وجه الجلاد في انعكاس صورتهم كضحية. [10]

عقدة الحصار وتبرير العدوان

تتغذى عقلية الضحية المنتصرة على شعور دائم بالحصار والتهديد الوجودي. إنها رؤية للعالم تقوم على فرضية أن "العالم كله ضدنا" (Kulam Negdenu)، وأن إسرائيل هي فيلا في غابة، محاطة بأعداء متوحشين يريدون تدميرها. هذا الشعور بالحصار، الذي يتم تضخيمه باستمرار من قبل القادة السياسيين ووسائل الإعلام، يخدم عدة أغراض.

أ. شيطنة العدو: من العرب إلى "الإرهاب"

لكي تستمر عقلية الحصار، لا بد من وجود عدو دائم يتم شيطنته. في البداية، كان هذا العدو هو "العربي" بشكل عام، الذي تم تصويره على أنه شخص بدائي، غير عقلاني، متعطش للدماء. بعد حرب 1967، أصبح العدو هو "الفلسطيني"، الذي تم تصويره على

أنه "إرهابي". وفي السنوات الأخيرة، أصبح العدو هو "الإسلام الراديكالي"، الذي تمثله إيران وحماس وحزب الله. [11]

إن شيطنة العدو تجعل من الممكن تجريده من إنسانيته، وتبرير أي عمل عنف ضده. فالمرء لا يتفاوض مع "الإرهابيين"، بل "يسحقهم". والمرء لا يتعايش مع "محور الشر"، بل "يستأصله". هذه اللغة التبسيطية والديماغوجية تمنع أي فهم حقيقي لجذور الصراع، وتجعل الحل السياسي شبه مستحيل.

ب. "لا يوجد شريك للسلام": رفض المبادرات

إن الشعور الدائم بالحصار يؤدي حتماً إلى عقيدة "لا يوجد شريك للسلام". فإذا كان الطرف الآخر لا يريد السلام، بل يريد تدميرك، فإن أي تنازل من جانبك هو علامة ضعف، وأي مبادرة سلام هي فخ. لقد استخدمت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة هذه الحجة لرفض كل مبادرات السلام العربية والفلسطينية تقريباً، من مبادرة الملك فهد عام 1981، إلى مبادرة السلام العربية عام 2002. [12]

إن مقولة "لا يوجد شريك" هي نبوءة تحقق ذاتها. فعندما تعامل الطرف الآخر باستمرار على أنه عدو لا يمكن الوثوق به، وعندما ترفض كل مبادراته، فإنه سيتحول في النهاية إلى العدو الذي كنت تتوقعه. إنها استراتيجية مريحة للغاية، لأنها تعفي إسرائيل من أي مسؤولية عن استمرار الصراع، وتلقي باللوم كله على الطرف الآخر.

ج. الدعم الأمريكي غير المشروط: التمكين الخارجي

لم تكن عقلية الضحية المنتصرة لتستمر لولا الدعم الأمريكي غير المشروط. لقد وفرت الولايات المتحدة لإسرائيل الغطاء الدبلوماسي (من خلال استخدام حق الفيتو في مجلس الأمن)، والمساعدات العسكرية والاقتصادية الهائلة، التي مكنتها من الاستمرار في احتلالها وتحدي القانون الدولي دون أي عواقب حقيقية. [13]

هذا الدعم نابع من عدة عوامل، منها قوة اللوبي الصهيوني في أمريكا (إيباك)، والتعاطف المسيحي الإنجيلي مع إسرائيل، والمصالح الاستراتيجية المشتركة في الشرق الأوسط. لكن النتيجة هي أن هذا الدعم قد أفسد إسرائيل، وجعلها تشعر بأنها فوق القانون. لقد سمح لها بأن تتصرف كضحية، بينما هي في الواقع قوة إقليمية عظمى.

لقد مكنها من الجمع بين مزايا الضحية (التعاطف الدولي) ومزايا المنتصر (القدرة على فرض الأمر الواقع بالقوة). إنه التمكين الخارجي الذي يسمح لعقلية الضحية المنتصرة بالازدهار.

التماهي مع المعتدي وإنكار الظل

يمكن فهم عقلية الضحية المنتصرة من خلال مفهومين من علم النفس التحليلي: "التماهي مع المعتدي" (Identification with the aggressor) و"إنكار الظل" (Denial of the shadow).

التماهي مع المعتدي: هذا المفهوم، الذي طورته آنا فرويد، يصف آلية دفاع نفسي يقوم فيها الشخص الذي تعرض لصدمة بتبني سلوكيات وسمات المعتدي. إنه يفعل ذلك لكي يتغلب على شعوره بالعجز والخوف، ويستعيد شعوراً بالقوة والسيطرة. يمكن القول إن الصهيونية، كرد فعل على قرون من الاضطهاد في أوروبا، قامت بـ "التماهي مع المعتدي" الأوروبي. لقد تبنت منطقه القومي، وعقليته الاستعمارية، وإيمانه بالقوة كحل نهائي. لقد قررت أن تصبح مثل جلاديها - قوية، عدوانية، لا ترحم - لكي لا تكون ضحية

مرة أخرى. [14] المشكلة في هذه الآلية هي أنها تحول الضحية إلى نسخة طبق الأصل من جلادها، وتجعلها تعيد إنتاج نفس العنف الذي تعرضت له، ولكن هذه المرة ضد ضحية جديدة.

إنكار الظل: في علم النفس اليونغي، يشير "الظل" (The Shadow) إلى الجانب المظلم والمكبوت من شخصيتنا، والذي نرفض الاعتراف به. كلما أنكرنا ظلنا، كلما زادت قوته، وكلما أسقطناه على الآخرين. لقد قامت إسرائيل ببناء هويتها بالكامل على صورة الضحية البريئة والنقية. لقد أنكرت "ظلها" - أي جانبها المظلم، جانب المعتدي، المحتل، العنصري. وبدلاً من مواجهة هذا الظل، قامت بإسقاطه بالكامل على الفلسطينيين. لقد أصبح الفلسطينيون هم تجسيداً لكل ما هو سلبي ومظلم: الإرهاب، الكراهية، اللاعقلانية. هذا الإسقاط يسمح لإسرائيل بالحفاظ على صورتها الذاتية الإيجابية، ولكنه يجعل أي تعاطف أو اعتراف بإنسانية الآخر أمراً مستحيلاً. [15]

النتيجة: مجتمع في حالة إنكار

إن الجمع بين التماهي مع المعتدي وإنكار الظل يخلق مجتمعاً يعيش في حالة من الإنكار العميق. إنه مجتمع يرى نفسه دائماً على أنه الضحية، حتى وهو يمارس أبشع أشكال القمع. إنه مجتمع فقد القدرة على التعاطف، وفقد القدرة على رؤية نفسه كما يراه الآخرون. إنه مجتمع محاصر، ليس فقط من قبل أعدائه الخارجيين، ولكن أيضاً من قبل شياطينه الداخلية التي يرفض مواجهتها. هذه هي المأساة الحقيقية لعقلية الضحية المنتصرة: أنها تحول الضحية إلى سجين لماضيها، وتمنعها من تحقيق سلام حقيقي، مع نفسها ومع جيرانها.

سيف ودرع

تعتبر "عقلية الضحية المنتصرة" هي السلاح النفسي الأكثر فاعلية الذي طورته الصهيونية. إنها درع وسيف في آن واحد. هي درع يحمي المجتمع الإسرائيلي من النقد الخارجي ومن الشعور بالذنب الداخلي. وهي سيف يبرر استخدام القوة المفرطة ضد الفلسطينيين، ويحصن إسرائيل ضد أي ضغط دولي.

يمكن تلخيص مكونات هذه العقلية في النقاط التالية:

تقديس الهولوكوست: تحويل ذكرى الهولوكوست إلى دين مدني يبرر وجود الدولة وسياساتها.

عبادة القوة: تمجيد "اليهودي الجديد" (الصابرا) واحتقار "يهودي الشتات"، والإيمان بأن القوة هي الحل الوحيد.

عقدة الحصار: الشعور الدائم بأن "العالم كله ضدنا"، مما يبرر شيطنة العدو ورفض السلام.

الإنكار النفسي: إنكار معاناة الفلسطينيين (النكبة) وإنكار الجانب المظلم من أفعال إسرائيل ("الظل").

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: كيف يمكن لمجتمع أن يجمع بين شعور عميق بالاضطهاد وممارسة منهجية للقمع، دون أن ينهار تحت وطأة هذا التناقض الأخلاقي؟

إن عقلية الضحية المنتصرة لا تعمل فقط كآلية دفاع نفسي، بل تعمل أيضاً كأساس لأيديولوجية سياسية متطرفة، وهي "الصهيونية الدينية". هذه الأيديولوجية، التي كانت

هامشية في بدايات الحركة الصهيونية، أصبحت اليوم هي القوة المهيمنة في السياسة الإسرائيلية. إنها تجمع بين القومية العلمانية وعلم اللاهوت اليهودي، وتؤمن بأن "أرض إسرائيل الكاملة" هي وعد إلهي، وأن الاستيطان في هذه الأرض هو وصية دينية. الفصل التالي، "الصهيونية الدينية: عندما يلتقي الله والوطن"، سيحلل صعود هذه الأيديولوجية الخطيرة، وكيف حولت الصراع من صراع سياسي على الأرض إلى حرب دينية مقدسة، لا تقبل أي حل وسط.

مراجع الفصل العاشر:

- [1] Arendt, Hannah. *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil*. Penguin Classics, 2006.
- [2] Segev, Tom. *The Seventh Million: The Israelis and the Holocaust*. Hill and Wang, 2000.
- [3] Finkelstein, Norman G. *The Holocaust Industry: Reflections on the Exploitation of Jewish Suffering*. Verso, 2003.
- [4] Young, James E. *The Texture of Memory: Holocaust Memorials and Meaning*. Yale University Press, 1993.
- [5] Feldman, Jackie. *Above the Death Pits, Beneath the Flag: Youth Voyages to Poland and the Performance of Israeli National Identity*. Berghahn Books, 2008.
- [6] Zertal, Idith. *Israel's Holocaust and the Politics of Nationhood*. Cambridge University Press, 2005.

- [7] Almog, Oz. *The Sabra: The Creation of the New Jew*. University of California Press, 2000.
- [8] Segev, Tom. *The Seventh Million*.
- [9] Levy, Yagil. *Israel's Death Hierarchy: The Militarization of Society*. NYU Press, 2021.
- [10] Pappe, Ilan. *The Ethnic Cleansing of Palestine*. Oneworld Publications, 2006.
- [11] Said, Edward W. *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World*. Pantheon Books, 1981.
- [12] Shlaim, Avi. *The Iron Wall: Israel and the Arab World*. W. W. Norton & Company, 2014.
- [13] Mearsheimer, John J., and Stephen M. Walt. *The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy*. Farrar, Straus and Giroux, 2007.

- [14] Cherki, Alice. *Frantz Fanon: A Portrait*. Cornell University Press, 2006. (This reference discusses Fanon's use of psychoanalytic concepts, including identification with the aggressor, in the context of colonialism).
- [15] Zweig, Connie, and Jeremiah Abrams, eds. *Meeting the Shadow: The Hidden Power of the Dark Side of Human Nature*. Tarcher, 1991. (This is a general reference on the concept of the shadow in Jungian psychology).

(١١)

الصهيونية الدينية

من هامش التاريخ إلى قلب السلطة

في ليلة مظلمة من عام 1995، اغتيل رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين. لم يكن القاتل فلسطينياً، بل كان شاباً إسرائيلياً متديناً، اسمه يغال عمير. كان عمير طالباً في جامعة بار إيلان الدينية، وتلميذاً لمدرسة فكرية جديدة-قديمة، كانت قد بدأت تسيطر على إسرائيل: الصهيونية الدينية. عندما سئل عمير عن سبب فعلته، أجاب ببساطة أنه كان ينفذ "أمر الله". ففي نظره، كان رابين "خائناً"، لأنه كان على وشك التنازل عن أجزاء من "أرض إسرائيل الكاملة" للفلسطينيين في اتفاقيات أوسلو. وهذا، في عقيدة الصهيونية الدينية، هو خطيئة لا تغتفر. [1]

كان اغتيال رابين بمثابة زلزال سياسي، كشف عن الصدع العميق الذي كان يقسم المجتمع الإسرائيلي. لقد كانت لحظة الحقيقة التي أظهرت كيف تحولت الصهيونية الدينية، التي كانت في يوم من الأيام حركة هامشية ومترددة، إلى قوة سياسية وأيديولوجية هائلة، قادرة على تحدي سلطة الدولة، وعلى ارتكاب العنف السياسي باسم الله.

كانت الصهيونية في بدايتها حركة علمانية، بل ومعادية للدين في كثير من الأحيان. كان معظم قادتها، من هرتزل إلى بن غوريون، اشتراكيين ملحدين، يرون في الدين اليهودي التقليدي جزءاً من "مشكلة الشتات" التي يجب التغلب عليها. لكن بعد حرب عام 1967، واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية، حدث "انفجار مسيحاني" في إسرائيل. لقد رأى الصهاينة المتدينون في هذا النصر العسكري الساحق "إشارة من السماء"، ودليلاً على أن "الخلاص" قد بدأ. لقد تحولوا من حركة سلبية، كانت تنتظر مجيء المسيح، إلى حركة نشطة، تؤمن بأن عليها "تسريع نهاية التاريخ" من خلال استيطان "الأراضي المحررة".

هذا الفصل سيقتفي أثر هذا التحول الدراماتيكي. سنرى كيف تمكنت الصهيونية الدينية من "تهويد" الصهيونية العلمانية، وتحويل الصراع من صراع سياسي قابل للحل إلى حرب دينية مقدسة. سنحلل أفكار الأب الروحي لهذه الحركة، الحاخام تسفي يهودا كوك، الذي علم أتباعه أن "دولة إسرائيل هي كرسي عرش الرب في العالم". وسنرى كيف قامت حركة المستوطنين "غوش إيمونيم" (كتلة الإيمان) بترجمة هذه الأفكار اللاهوتية إلى حقائق على الأرض، من خلال إقامة مستوطنات في قلب المناطق الفلسطينية المكتظة بالسكان. إنها قصة زواج خطير بين اللاهوت والسياسة، بين الحماس الديني والقوة العسكرية، وهو الزواج الذي قاد إسرائيل إلى طريق التطرف والعنف، وجعل حل الدولتين شبه مستحيل.

الصهيونية في مواجهة اليهودية

في بداياتها، كانت العلاقة بين الصهيونية واليهودية الأرثوذكسية علاقة عدائية. لقد رأت المؤسسة الدينية في الصهيونية حركة علمانية خطيرة، بل وهرطقة. فالصهيونية، في نظرهم، كانت تحاول "التعجيل بالنهاية" (דחיקת הקץ)، أي محاولة إقامة دولة يهودية بوسائل بشرية، بدلاً من انتظار مجيء المسيح الذي سيقوم بذلك بمعجزة إلهية. لقد كانت

الصهيونية تمثل ثورة ضد التقليد اليهودي الذي كان يقوم على السلبية السياسية وانتظار الخلاص.

أ. الحاخام كوك الأب: محاولة التوفيق الأولى

كان أول من حاول بناء جسر بين الصهيونية واليهودية هو الحاخام أبراهام إسحاق كوك (1865-1935)، الذي كان أول حاخام أشكنازي رئيسي في فلسطين تحت الانتداب. كان الحاخام كوك شخصية فريدة، فهو من ناحية كان عالماً دينياً تقليدياً، ومن ناحية أخرى كان شاعراً وصوفياً ومنفتحاً على الأفكار الحديثة. لقد رأى في الصهاينة العلمانيين، رغم إلحادهم، أدوات غير واعية في يد العناية الإلهية. لقد كانوا، في نظره، "حمير المسيح"، الذين يقومون بالعمل المادي لبناء الأرض، تمهيداً للخلاص الروحي الذي سيأتي لاحقاً. [2]

لقد طور الحاخام كوك لاهوتاً جديداً، يرى في "القداسة" (Kedusha) ليس فقط في النصوص الدينية، بل أيضاً في الأرض، وفي الأمة، وفي الدولة. لقد قال إن الصهيونية هي جزء من عملية "التوبة" (Teshuva) الجماعية للشعب اليهودي، وعودته إلى الله من

خلال عودته إلى أرضه. لقد كانت محاولة جريئة لـ "تأميم" الدين اليهودي، و"تهويد" القومية الصهيونية. [3]

ب. الصهيونية الدينية المبكرة: بين الاندماج والعزلة

رغم أفكار الحاخام كوك، ظل معظم الصهاينة المتدينين على هامش الحركة الصهيونية. لقد انقسموا إلى تيارين رئيسيين. التيار الأول، ممثلاً بحركة "المزراحي" (المركز الروحي)، قرر الانضمام إلى المنظمة الصهيونية العالمية، والعمل من داخلها لضمان الحفاظ على الطابع اليهودي للدولة المستقبلية. كان شعارهم: "أرض إسرائيل لشعب إسرائيل حسب توراة إسرائيل". [4] أما التيار الثاني، ممثلاً بحركة "أغودات يسرائيل" (رابطة إسرائيل)، فقد رفض الصهيونية تماماً، واعتبرها هرطقة، وقرر عدم المشاركة في المشروع الصهيوني. [5]

حتى بعد قيام الدولة عام 1948، ظل الصهاينة المتدينون في موقع الشريك الأصغر في الحكومات التي قادها حزب "ماباي" العلماني. لقد كانوا يركزون على قضايا "الدين والدولة"، مثل قوانين الزواج والطلاق، والالتزام بـ "الكوشير" (الطعام الحلال) في

مؤسسات الدولة، والحفاظ على قدسية يوم السبت. لم يكن لديهم طموح لقيادة الدولة، أو لتحديد سياستها الخارجية والأمنية. لقد كانوا، كما وصفهم البعض، "يلعبون في ملعب الصهيونية العلمانية، ولكن بقبعاتهم الدينية".

كل هذا تغير بشكل دراماتيكي بعد حرب الأيام الستة.

حرب 1967

كانت حرب يونيو 1967 بمثابة صدمة كهربائية للمجتمع الإسرائيلي، وخاصة للقطاع الديني. ففي غضون ستة أيام فقط، تمكن الجيش الإسرائيلي من هزيمة ثلاثة جيوش عربية، واحتلال الضفة الغربية (بما في ذلك القدس الشرقية)، وقطاع غزة، وشبه جزيرة سيناء، ومرتفعات الجولان. لقد كان نصراً عسكرياً ساحقاً، بدا للكثيرين على أنه "معجزة" إلهية.

أ. الحاخام تسفي يهودا كوك: لاهوت أرض إسرائيل الكاملة

كان الشخص الذي قدم التفسير اللاهوتي لهذا النصر هو الحاخام تسفي يهودا كوك (1891-1982)، ابن الحاخام أبراهام إسحاق كوك. كان تسفي يهودا نسخة أكثر

تشدداً وتطرفاً من والده. قبل ثلاثة أسابيع فقط من اندلاع الحرب، في يوم استقلال إسرائيل، ألقى الحاخام تسفي يهودا خطبة نارية في مدرسته الدينية "مركز هاراف" في القدس. في هذه الخطبة، بكى بحرقة على حقيقة أن "قلب أرضنا" - يهودا والسامرة (الضفة الغربية)، والخليل وشكيم وأريحا - لا يزال في أيدي "الغرباء". لقد صرخ قائلاً: "أين خليلنا؟ أين شكيمنا؟ أين أريحانا؟ هل نسيناهم؟ لن نتخلى عنهم أبداً!". [6]

عندما اندلعت الحرب بعد ثلاثة أسابيع، واحتلت إسرائيل هذه الأراضي، رأى تلاميذ الحاخام في ذلك تحقيقاً لنبوءته. لقد أصبح الحاخام تسفي يهودا هو النبي الجديد، ومدرسته "مركز هاراف" هي المركز الروحي لجيل جديد من الصهاينة المتدينين.

لقد طور الحاخام تسفي يهودا لاهوتاً جديداً، أكثر تطرفاً من لاهوت والده. فبينما كان والده يرى في الدولة مجرد "مرحلة" على طريق الخلاص، رأى تسفي يهودا في الدولة نفسها "بداية الخلاص". لقد علم تلاميذه أن احتلال "أرض إسرائيل الكاملة" هو وصية إلهية، وأن التنازل عن أي جزء منها هو خيانة لله وللتوراة. لقد قال إن "قدسية" الدولة

و"قدسية" الجيش تفوق قدسية الأفراد. لقد خلق ديناً جديداً، ديناً يعبد الدولة والأرض والجيش. [7]

ب. غوش إيمونيم: حركة المستوطنين

بعد حرب عام 1973 (حرب يوم الغفران)، التي حطمت أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر، شعر الكثير من الإسرائيليين بالإحباط واليأس. في هذا الفراغ الروحي، ظهرت حركة جديدة، خرجت من رحم مدرسة "مركز هاراف". كانت هذه الحركة هي "غوش إيمونيم" (كتلة الإيمان)[8] .

كانت غوش إيمونيم حركة من الشباب المتدينين، الذين كانوا يؤمنون بأن عليهم أخذ زمام المبادرة، و"فرض" الخلاص على التاريخ، من خلال استيطان "يهودا والسامرة". لم ينتظروا إذناً من الحكومة، بل بدأوا في إقامة مستوطنات في قلب المناطق الفلسطينية، في تحدٍ مباشر للقانون الدولي وللسياسة الرسمية للحكومة الإسرائيلية (التي كانت في البداية مترددة في السماح بالاستيطان في المناطق المكتظة بالسكان).

كانت أولى محاولاتهم في سبسطية، بالقرب من نابلس، عام 1974. لقد حاولوا الاستيطان هناك ثماني مرات، وفي كل مرة كان الجيش يقوم بإخلائهم. لكنهم كانوا يعودون، بإصرار وعناد، حتى رضخت الحكومة في النهاية، وسمحت لهم بالبقاء. لقد كانت تلك هي اللحظة التي بدأت فيها "الدولة العميقة" للمستوطنين تفرض إرادتها على الدولة الرسمية. [9]

ج. التحالف مع اليمين العلماني

في عام 1977، حدث انقلاب سياسي في إسرائيل. لأول مرة في تاريخ الدولة، فاز حزب الليكود اليميني، بقيادة مناحيم بيغن، في الانتخابات. كان بيغن، الذي جاء من خلفية يمينية علمانية (حركة الإيتسل)، يشارك المستوطنين إيمانهم بـ "أرض إسرائيل الكاملة"، ولكن من منطلق قومي وليس دينياً. لقد شكل بيغن تحالفاً تاريخياً مع غوش إيمونيم. لقد رأى فيهم "رواداً حقيقيين"، وقدم لهم الدعم المالي والسياسي والعسكري اللازم لتوسيع مشروعهم الاستيطاني. [10]

لقد كان هذا هو الزواج الذي غير وجه إسرائيل. لقد التقت القومية اليمينية العلمانية مع المسيحانية الدينية. لقد أصبح المستوطنون هم الذراع الطويلة للحكومة الإسرائيلية، التي استخدمتهم لفرض حقائق على الأرض، ومنع أي إمكانية لقيام دولة فلسطينية. لقد بدأ مشروع الاستيطان، الذي كان في يوم من الأيام مشروعاً هامشياً لمجموعة من المتطرفين الدينيين، يتحول إلى سياسة رسمية للدولة.

لاهوت القوة وتبرير الاحتلال والعنف

لم تكتف الصهيونية الدينية بتقديم تبرير لاهوتي للاستيطان، بل طورت أيضاً لاهوتاً جديداً يبرر الهيمنة على غير اليهود، واستخدام العنف ضدهم. لقد قامت بإحياء وتفسير نصوص ومفاهيم من التراث اليهودي كانت قد نسيت أو همشت، واستخدمتها لخدمة مشروعها السياسي.

أ. "حرب ميتزفا": الحرب المقدسة

أحد أهم المفاهيم التي تم إحياؤها هو مفهوم "حرب ميتزفا" (Milchemet Mitzvah)، أي الحرب التي هي وصية دينية واجبة. في الفقه اليهودي التقليدي، كانت هذه الحرب تقتصر على حالات الدفاع عن النفس القصوى. لكن حاخامات الصهيونية الدينية

قاموا بتوسيع هذا المفهوم ليشمل "حرب تحرير أرض إسرائيل". لقد جادلوا بأن الحرب من أجل احتلال واستيطان أرض إسرائيل الكاملة هي حرب مقدسة، وأن كل من يشارك فيها يقوم بـ"ميتزفا" (عمل صالح). [11]

هذا المفهوم يغير طبيعة الخدمة العسكرية. فالجندي لم يعد مجرد مواطن يدافع عن دولته، بل أصبح محارباً مقدساً ينفذ أمر الله. وهذا يفسر لماذا أصبح الجنود المتدينون يشكلون نسبة متزايدة في الوحدات القتالية في الجيش الإسرائيلي، ولماذا هم الأكثر حماساً لتنفيذ المهام في الأراضي المحتلة.

ب. "قانون الغريب": التمييز ضد غير اليهود

لقد قامت الصهيونية الدينية أيضاً بإعادة تفسير القوانين المتعلقة بوضع غير اليهود (الغوييم) في الدولة اليهودية. لقد جادل بعض الحاخامات المتطرفين، مثل مائير كاهانا، بأن هذه القوانين تبرر التمييز ضد العرب، وحرمانهم من حقوقهم السياسية، بل وحتى طردهم من البلاد. لقد استندوا إلى نصوص توراتية تتحدث عن ضرورة "تطهير" الأرض من سكانها الأصليين الكنعانيين. [12]

ورغم أن معظم حاخامات الصهيونية الدينية لا يتبنون هذا التفسير المتطرف، إلا أن منطقهم الأساسي لا يختلف كثيراً. فهم يؤمنون بأن لليهود حقوقاً خاصة في أرض إسرائيل، وأن حقوق غير اليهود هي حقوق ثانوية ومشروطة. هذا المنطق هو الذي يبرر نظام الفصل العنصري (الأبارتهايد) القائم في الضفة الغربية، حيث يتمتع المستوطنون اليهود بكامل حقوق المواطنة الإسرائيلية، بينما يعيش الفلسطينيون تحت نظام حكم عسكري، محرومين من أبسط حقوقهم.

الإرهاب اليهودي: عندما يصبح العنف مقدساً

إن أخطر نتيجة لهذا اللاهوت الجديد هي ظهور الإرهاب اليهودي. فعندما تصبح الأرض مقدسة، وعندما يصبح التنازل عنها خيانة لله، وعندما يصبح العدو شيطاناً، فإن العنف يصبح ليس فقط مبرراً، بل واجباً دينياً. لقد شهدت إسرائيل سلسلة من الأعمال الإرهابية التي ارتكبها متطرفون يهود باسم هذه الأيديولوجية:

التنظيم السري اليهودي (1980-1984): مجموعة من كبار قادة غوش إيمونيم خططوا لنسف قبة الصخرة، وقاموا بزرع قنابل في سيارات رؤساء بلديات فلسطينيين، مما أدى إلى تشويههم. [13]

مذبحة الحرم الإبراهيمي (1994): قام باروخ غولدشتاين، وهو طبيب ومستوطن من الخليل، بقتل 29 مصلياً فلسطينياً في الحرم الإبراهيمي، قبل أن يتم قتله. أصبح قبر غولدشتاين مزاراً للمتطرفين اليهود. [14]

اغتيال رابين (1995): كما ذكرنا، كان هذا هو العمل الإرهابي الأكثر تأثيراً، لأنه كان موجهاً ضد رأس الدولة.

جريمة حرق عائلة دوابشة (2015): قام مستوطنون بإلقاء قنابل حارقة على منزل عائلة فلسطينية في قرية دوما، مما أدى إلى مقتل رضيع ووالديه حرقاً. [15]

هذه الأعمال، رغم أن مرتكبيها هم أقلية متطرفة، إلا أنها ليست مجرد انحرافات فردية. إنها النتيجة المنطقية لأيديولوجية تقدس الأرض وتعبد القوة وتجرد الآخر من إنسانيته. إنها تكشف عن الوجه الحقيقي للصهيونية الدينية: وجه متعصب وعنيف، لا يختلف في جوهره عن أي أصولية دينية أخرى.

عودة المكبوت الديني

يمكن فهم صعود الصهيونية الدينية على أنه "عودة المكبوت" (Return of the Repressed) في النفسية الصهيونية. حاولت الصهيونية العلمانية، في بدايتها، أن تكبت وتنفي البعد الديني لليهودية. لقد أرادت أن تخلق "يهودياً جديداً"، طبيعياً، عقلانياً، متحرراً من خرافات الماضي. وحاولت أن تبني هوية قومية على أساس اللغة والأرض والتاريخ، وليس على أساس الدين.

لكن هذا الكبت لم ينجح. فاليهودية، في جوهرها، ليست مجرد دين، بل هي "حضارة دينية". من المستحيل فصل الهوية اليهودية عن تاريخها ونصوصها وطقوسها الدينية. لقد كان المشروع الصهيوني العلماني، في جوهره، مشروعاً متناقضاً. فهو من ناحية كان يرفض

الدين، ومن ناحية أخرى كان يستند إلى سردية دينية (وعد الله لأبراهيم، مملكة داوود، العودة إلى صهيون). لقد كان الصهاينة العلمانيون، كما قال الفيلسوف يشعياهو ليبوفيتش، "يستخدمون اللغة الدينية دون أن يؤمنوا بها". [16]

بعد حرب 1967، عاد هذا "المكبوت الديني" لينفجر بقوة. لقد قدمت الصهيونية الدينية للصهيونية العلمانية ما كانت تفتقر إليه: المعنى. لقد أعطت للمشروع الصهيوني بعداً ميتافيزيقياً، وحولته من مجرد مشروع قومي عادي إلى مشروع خلاص إلهي. لقد ملأت الفراغ الروحي الذي تركته الاشتراكية العلمانية بعد أن فقدت بريقها.

الصهيونية الدينية كـ"أيديولوجيا" بالمعنى الماركسي:

يمكن أيضاً تحليل الصهيونية الدينية كـ"أيديولوجيا" بالمعنى الماركسي للكلمة، أي كـ"وعي زائف" يخدم مصالح طبقة معينة. في هذه الحالة، تخدم أيديولوجية الصهيونية الدينية مصالح حركة المستوطنين، التي هي بدورها طليعة المشروع الاستعماري الإسرائيلي. إن هذه الأيديولوجية تقوم بـ"تغليف" المصالح المادية (الاستيلاء على الأرض والموارد) بغلاف ديني مقدس. إنها تحول الصراع على الأرض، وهو صراع سياسي واقتصادي،

إلى حرب دينية. وهذا مفيد جداً، لأنه يرفع الصراع من مستوى المصالح الدنيوية إلى مستوى المطلقات السماوية. فالمرء يمكن أن يتفاوض على قطعة أرض، ولكنه لا يمكن أن يتفاوض على وصية إلهية. [17]

إن الصهيونية الدينية هي، في نهاية المطاف، الأيديولوجيا المثالية للاستعمار الاستيطاني. فهي توفر للمستوطن ليس فقط التبرير السياسي، بل أيضاً اليقين الروحي. إنه لا يسرق أرضاً، بل "يحررها". إنه لا يطرد شعباً، بل ينفذ خطة الله. إنه لا يرتكب جريمة، بل يقوم بعمل مقدس. هذه هي القوة المرعبة للأيديولوجيا: قدرتها على تحويل الشر إلى خير، والظلم إلى عدالة.

اختطاف الصهيونية

لقد قامت الصهيونية الدينية بـ "اختطاف" المشروع الصهيوني. لقد حولته من حركة قومية علمانية، كانت لا تزال تحتفظ ببعض بقايا الضمير الليبرالي، إلى حركة أصولية متطرفة، لا تعترف بأي قيود قانونية أو أخلاقية. يمكن تلخيص هذا التحول في النقاط التالية:

من العلمانية إلى المسيحانية: تحول الصراع من صراع سياسي على الأرض إلى حرب دينية مقدسة من أجل "أرض إسرائيل الكاملة".

من الهامش إلى المركز: صعود الصهيونية الدينية من حركة هامشية إلى القوة المهيمنة في السياسة والمجتمع الإسرائيلي.

لاهوت القوة: تطوير لاهوت جديد يبرر الاستيطان والاحتلال والعنف ضد غير اليهود.

عودة المكبوت: انفجار البعد الديني المكبوت في الهوية الصهيونية، وملء الفراغ الروحي الذي تركته العلمانية.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: كيف تمكنت أقلية دينية متطرفة من فرض رؤيتها على الأغلبية العلمانية، وتحويل دولة حديثة وديمقراطية (للغاية) إلى دولة شبه ثيوقراطية، تسير نحو الهاوية باسم الدين؟

إن صعود الصهيونية الدينية، بعقيدتها القائمة على التفوق اليهودي والحق الإلهي في الأرض، هو مجرد تعبير واحد عن ظاهرة أوسع وأعمق في المجتمع الإسرائيلي: أسطورة التفوق. هذه الأسطورة، التي تتجلى في مجالات مختلفة، من التكنولوجيا إلى الجيش، ومن الثقافة إلى الأخلاق، هي التي تشكل جوهر "الاستثناء" الإسرائيلي. إنها الإيمان بأن إسرائيل ليست كبقية الدول، وأنها تخضع لقوانين مختلفة، وأن لها الحق في فعل ما لا يحق لغيرها. الفصل التالي، "أسطورة التفوق: الاستثناء الإسرائيلي"، سيقوم بتشريح هذه الأسطورة، وكشف عن جذورها النفسية والتاريخية، وبيان كيف أصبحت هي التبرير النهائي لنظام الفصل العنصري والاحتلال.

مراجع الفصل الحادي عشر:

- [1] Sprinzak, Ehud. *Brother Against Brother*: *Violence and Extremism in Israeli Politics from Altalena to the Rabin Assassination*. The Free Press, 1999.
- [2] Luz, Ehud. *Wrestling with an Angel*: *Power, Morality, and Jewish Identity*. Yale University Press, 2003.
- [3] Ravitzky, Aviezer. *Messianism, Zionism, and Jewish Religious Radicalism*. University of Chicago Press, 1996.
- [4] Friedman, Menachem. "The Mizrahi: A Religious-Zionist Party." In *The Elections in Israel* 1973, edited by Asher Arian. Jerusalem Academic Press, 1975.
- [5] Ibid.
- [6] The famous speech of Rabbi Zvi Yehuda Kook is cited in many sources, including Gideon Aran, "From Religious Zionism to Zionist Religion," in *The Israeli State and Society*:

Boundaries and Frontiers, edited by Baruch Kimmerling (SUNY Press, 1989).

- [7] Aran, Gideon. "Jewish Zionist Fundamentalism: The Bloc of the Faithful in Israel (Gush Emunim)." In *Fundamentalisms Observed,* edited by Martin E. Marty and R. Scott Appleby. University of Chicago Press, 1991.
- [8] Ibid.
- [9] Lustick, Ian S. *For the Land and the Lord: Jewish Fundamentalism in Israel*. Council on Foreign Relations, 1988.
- [10] Shlaim, Avi. *The Iron Wall: Israel and the Arab World*. W. W. Norton & Company, 2014.
- [11] Ravitzky, Aviezer. *Messianism, Zionism, and Jewish Religious Radicalism*.
- [12] Kahane, Meir. *They Must Go*. Grosset & Dunlap, 1981.

- [13] Pedahzur, Ami, and Arie Perliger. *Jewish Terrorism in Israel*. Columbia University Press, 2009.
- [14] Ibid.
- [15] Ibid.
- [16] Leibowitz, Yeshayahu. *Judaism, Human Values, and the Jewish State*. Harvard University Press, 1992.
- [17] Zizek, Slavoj. *The Sublime Object of Ideology*. Verso, 1989. (This is a theoretical reference for the concept of ideology, not directly about Zionism).

(١٢)

أسطورة التفوق - الاستثناء الإسرائيلي

فيلا في الغابة

في عام 2003، أثار رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك، إيهود باراك، عاصفة من الجدل عندما وصف إسرائيل بأنها "فيلا في الغابة". قال باراك: "إسرائيل هي فيلا في الغابة. نحن فيلا جميلة، متطورة، في وسط غابة متوحشة. وعلينا أن نفعل كل ما هو ضروري لحماية أنفسنا". [1] كانت هذه الاستعارة صادمة في صراحتها، لكنها كانت أيضاً كاشفة للغاية. فهي تلخص بشكل بليغ جوهر "أسطورة التفوق" الإسرائيلية: الإيمان بأن إسرائيل هي كيان متفوق حضارياً وأخلاقياً، محاط بعالم عربي متخلف وعدائي، وأن هذا التفوق يمنحها الحق في التصرف بطرق لا تخضع لنفس المعايير التي تنطبق على الدول الأخرى.

هذه "العقلية الاستثنائية" (Exceptionalism) ليست مجرد شعور بالغطرسة، بل هي أيديولوجيا متكاملة، وآلية دفاع نفسي معقدة، تشكل أساس الهوية الوطنية الإسرائيلية. إنها الإيمان بأن إسرائيل، بسبب تاريخها الفريد (الهولوكوست)، ورسالتها الفريدة (العودة إلى صهيون)، و"جودتها" الفريدة (الديمقراطية، والابتكار، والأخلاق)، هي دولة "لا مثيل لها". وبالتالي، لا يمكن الحكم عليها بنفس المقاييس التي يحكم بها على الدول "العادية".

تتجلى أسطورة التفوق هذه في كل جانب من جوانب الحياة الإسرائيلية. في المجال العسكري، تتجلى في أسطورة "الجيش الأكثر أخلاقية في العالم". وفي المجال التكنولوجي، تتجلى في أسطورة "أمة الشركات الناشئة" (Start-up Nation). وفي المجال الثقافي، تتجلى في أسطورة "الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط". وفي المجال الأخلاقي، تتجلى في أسطورة "النور الذي يهدي الأمم" (Or LaGoyim).

المشكلة في هذه الأسطورة هي أنها، مثل كل الأساطير، تتطلب إنكاراً منهجياً للواقع. فهي تتطلب إنكار حقيقة أن هذه "الفيلا" الجميلة قد بنيت على أنقاض قرى شعب آخر.

وهي تتطلب إنكار حقيقة أن هذا "الجيش الأخلاقي" يدير احتلالاً وحشياً منذ أكثر من نصف قرن. وهي تتطلب إنكار حقيقة أن هذه "الديمقراطية" هي ديمقراطية لليهود فقط، ونظام فصل عنصري لغيرهم. وهي تتطلب إنكار حقيقة أن هذا "النور" الأخلاقي قد انطفأ منذ فترة طويلة، وحل محله ظلام القومية المتطرفة والعنصرية.

هذا الفصل سيقوم بتشريح أسطورة التفوق الإسرائيلية. سنكشف عن جذورها في الفكر اليهودي التقليدي (عقيدة "الشعب المختار") وفي الفكر الصهيوني العلماني (عقيدة "اليهودي الجديد"). وسنرى كيف يتم الترويج لهذه الأسطورة من خلال نظام التعليم، ووسائل الإعلام، وحملات العلاقات العامة الدولية (الهاسبارا). والأهم من ذلك، سنحلل كيف تعمل هذه الأسطورة كآلية دفاع نفسي، تحمي المجتمع الإسرائيلي من مواجهة الحقيقة المزعجة لأفعاله، وتسمح له بالجمع بين صورة الذات الإيجابية وممارسة القمع، دون أن ينهار تحت وطأة التناقض المعرفي.

من الشعب المختار إلى اليهودي الجديد

لم تنشأ أسطورة التفوق الإسرائيلية من فراغ. بل لها جذور عميقة في تاريخ الفكر اليهودي، سواء الديني أو العلماني. إنها نتاج التقاء تيارين: عقيدة "الشعب المختار" الدينية، وعقيدة "اليهودي الجديد" الصهيونية.

أ. "الشعب المختار": من المسؤولية الروحية إلى التفوق القومي

إن فكرة "الشعب المختار" (Am Segula) هي إحدى الأفكار المركزية في اليهودية. في التفسير التقليدي، لم تكن هذه الفكرة تعني تفوقاً عرقياً أو قومياً، بل كانت تعني مسؤولية روحية خاصة. لقد اختار الله بني إسرائيل ليكونوا "مملكة كهنة وأمة مقدسة"، أي ليكونوا حاملين لرسالته الأخلاقية إلى العالم. لقد كان اختياراً يفرض عبئاً ومسؤولية، وليس امتيازاً وتفوقاً. [2]

لكن الصهيونية قامت بـ "علمنة" هذه الفكرة الدينية، وتحويلها إلى عقيدة تفوق قومي. لقد تم تجريد فكرة "الاختيار" من مضمونها الروحي والأخلاقي، وأصبحت تعني أن الشعب اليهودي هو شعب "فريد" و"استثنائي"، له حقوق تاريخية وسياسية لا يملكها

غيره. لقد تم تحويل المسؤولية إلى امتياز، والتواضع إلى غطرسة. لقد أصبح "الشعب المختار" يعني "الشعب الأفضل". [3]

ب. "اليهودي الجديد": التفوق من خلال القوة

كما رأينا في الفصل العاشر، سعت الصهيونية إلى خلق "يهودي جديد" يكون نقيضاً ليهودي الشتات. كان هذا "اليهودي الجديد" (الصابرا) متفوقاً ليس فقط على اليهودي القديم، بل أيضاً على جيرانه العرب. لقد كان يمثل الحداثة والعقلانية والتقدم، في مواجهة "الشرق" المتخلف والبدائي. لقد كان يمثل القوة والفعالية، في مواجهة الضعف والعجز.

لقد تم بناء أسطورة التفوق هذه على أساس الإنجازات الملموسة للمشروع الصهيوني. لقد تمكن المهاجرون اليهود، في غضون عقود قليلة، من تحويل "الصحراء إلى جنة" (كما تقول الأسطورة)، وبناء اقتصاد حديث، وإنشاء جيش قوي، وهزيمة الجيوش العربية مراراً وتكراراً. هذه النجاحات، التي لا يمكن إنكارها، عززت الشعور بالتفوق، وأكدت

صحة الرؤية الصهيونية. لقد أصبح الإسرائيليون يرون في أنفسهم "عمالقة"، وفي العرب "أقزاماً". [4]

ج. "الديمقراطية الوحيدة": التفوق السياسي

أحد أهم مكونات أسطورة التفوق هو الادعاء بأن إسرائيل هي "الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط". يتم استخدام هذه الحجة باستمرار لتصوير إسرائيل على أنها جزء من "العالم الغربي المتحضر"، في مواجهة "الاستبداد العربي".

لكن هذه الحجة تتجاهل حقيقة أن "ديمقراطية" إسرائيل هي ديمقراطية إثنية، أي ديمقراطية لليهود فقط. فالمواطنون الفلسطينيون داخل إسرائيل (عرب 48) يعانون من تمييز منهجي في كل مجالات الحياة. أما الفلسطينيون في الأراضي المحتلة، فهم يعيشون تحت نظام حكم عسكري، محرومين من أي حقوق سياسية. إن وصف هذا النظام بأنه "ديمقراطية" هو تشويه للكلمة. إنه، كما وصفه العديد من المراقبين الإسرائيليين والدوليين، نظام "فصل عنصري" (أبارتهايد). [5]

إن الإصرار على وصف إسرائيل بـ "الديمقراطية الوحيدة" هو مثال صارخ على العقلية الاستثنائية. فهو يفترض أن الديمقراطية يمكن أن تتعايش مع الاحتلال والفصل العنصري، وأن حقوق الإنسان يمكن أن تقتصر على مجموعة عرقية واحدة. إنه تعريف للديمقراطية يفرغها من أي مضمون عالمي، ويحولها إلى أداة لخدمة التفوق القومي.

الهاسبارا وغسيل السمعة

لا تكتفي إسرائيل بالشعور بالتفوق، بل تعمل بنشاط على تسويق هذه الصورة للعالم. يتم ذلك من خلال شبكة واسعة ومعقدة من الدعاية والعلاقات العامة، تعرف بـ "الهاسبارا" (Hasbara) ، وهي كلمة عبرية تعني "الشرح" أو "التفسير". لكنها في الواقع تعني أكثر من ذلك بكثير. إنها استراتيجية شاملة لـ "غسيل السمعة" (Whitewashing)، تهدف إلى تلميع صورة إسرائيل، وتبرير سياساتها، وشيطنة أعدائها.

أ. الهاسبارا: جيش الدعاية الإسرائيلي

تتم إدارة الهاسبارا من قبل عدة جهات حكومية، بما في ذلك وزارة الخارجية، ووزارة الشؤون الاستراتيجية، ومكتب رئيس الوزراء، ووحدة المتحدث باسم الجيش. لكنها لا تقتصر على الجهات الرسمية. بل تشمل أيضاً شبكة واسعة من المنظمات غير الحكومية،

واللوبيات، والناشطين المتطوعين في جميع أنحاء العالم. في السنوات الأخيرة، أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي هي الساحة الرئيسية لعمل الهاسبارا، حيث يتم تجنيد آلاف "الجنود الرقميين" للدفاع عن إسرائيل ومهاجمة منتقديها على فيسبوك وتويتر ويوتيوب. [6]

تستخدم الهاسبارا مجموعة من التقنيات الدعائية الكلاسيكية:

الانتقائية (Cherry-picking): التركيز على الجوانب الإيجابية في إسرائيل (التكنولوجيا، حقوق المثليين، الديمقراطية) وتجاهل الجوانب السلبية (الاحتلال، الفصل العنصري، جرائم الحرب).

ماذا عن (Whataboutism): الرد على أي نقد لإسرائيل بالإشارة إلى انتهاكات حقوق الإنسان في الدول العربية أو الإسلامية ("ماذا عن سوريا؟ ماذا عن إيران؟").

لعب دور الضحية (Playing the victim): تصوير إسرائيل دائماً على أنها الطرف المدافع، الذي يتصرف فقط كرد فعل على "الإرهاب" الفلسطيني.

اتهام المنتقدين بمعاداة السامية: استخدام تهمة معاداة السامية كسلاح لإسكات أي نقد جدي لسياسات إسرائيل. [7]

ب. "الغسيل الوردي" (Pinkwashing): استخدام حقوق المثليين لتبييض الاحتلال

أحد أبرز الأمثلة على تقنيات الهاسبارا هو ما يعرف بـ"الغسيل الوردي" (Pinkwashing). تقوم إسرائيل بالترويج لنفسها على أنها "جنة المثليين" في الشرق الأوسط، وتستضيف مسيرات فخر ضخمة في تل أبيب، وتتباهى بسجلها (المتقدم نسبياً) في مجال حقوق المثليين. الهدف من هذه الحملة هو صرف الانتباه عن انتهاكاتها لحقوق الفلسطينيين، وتقديم نفسها على أنها دولة ليبرالية وتقدمية. [8]

إنها حجة خبيثة، لأنها تستغل قضية عادلة (حقوق المثليين) حسب المفهوم الغربي لخدمة قضية غير عادلة (الاحتلال). إنها تقول للعالم: "لا يمكن أن نكون سيئين، فنحن نعامل المثليين بشكل جيد". إنها محاولة لـ "تبييض" الاحتلال باستخدام ألوان قوس قزح. لكن كما يشير الناشطون الفلسطينيون، فإن الجدار الفاصل لا يميز بين مثلي ومغاير، والرصاصة لا تسأل عن ميولك الجنسية. إن حقوق الإنسان كل لا يتجزأ.

ج. "أمة الشركات الناشئة": التفوق التكنولوجي كغطاء

مثال آخر هو الترويج لأسطورة "أمة الشركات الناشئة" (Start-up Nation). لقد حققت إسرائيل بالفعل نجاحاً مذهلاً في مجال التكنولوجيا الفائقة، وأصبحت مركزاً عالمياً للابتكار. لكن الهاسبارا تستخدم هذا النجاح كدليل على التفوق الإسرائيلي، وكغطاء لصرف الانتباه عن حقيقة أن الكثير من هذه التكنولوجيا يتم تطويرها واختبارها في سياق الاحتلال. [9]

فالجيش الإسرائيلي هو المحرك الرئيسي لصناعة التكنولوجيا الفائقة. والعديد من الشركات الناشئة يتم تأسيسها من قبل خريجي الوحدات الاستخباراتية والتكنولوجية في الجيش، مثل وحدة 8200 (المكافئة لوكالة الأمن القومي الأمريكية). والعديد من المنتجات، من الطائرات بدون طيار إلى برامج التجسس والمراقبة، يتم اختبارها على الفلسطينيين في الأراضي المحتلة، قبل أن يتم بيعها في السوق العالمية. إن "أمة الشركات الناشئة" هي أيضاً "أمة الاحتلال"، والوجهان مرتبطان بشكل وثيق. [10]

العمى الأخلاقي وكيف يحمي التفوق النفس من الذنب؟

إن أسطورة التفوق ليست مجرد أداة للدعاية الخارجية، بل هي أيضاً آلية دفاع نفسي داخلية. إنها الدرع الذي يحمي النفسية الإسرائيلية من الشعور بالذنب والعار، ويسمح للمجتمع بمواصلة حياته "الطبيعية" في ظل واقع غير طبيعي على الإطلاق.

أ. التنافر المعرفي: التعايش مع التناقض

يعيش المجتمع الإسرائيلي في حالة من التنافر المعرفي (Cognitive Dissonance). فمن ناحية، يرى الإسرائيليون أنفسهم على أنهم شعب أخلاقي، متحضر، محب للسلام. ومن ناحية أخرى، هم يديرون احتلالاً عسكرياً، ويمارسون القمع، وينتخبون حكومات يمينية متطرفة. هذا التناقض بين الصورة الذاتية والسلوك الفعلي يخلق توتراً نفسياً لا يطاق.

لحل هذا التنافر، يلجأ العقل إلى مجموعة من التبريرات. وهنا يأتي دور أسطورة التفوق. فهي تقول للإسرائيلي: "نعم، نحن نحتل شعباً آخر، ولكن هذا ضروري لأمننا. ونعم، نحن نستخدم القوة، ولكن جيشنا هو الأكثر أخلاقية في العالم. ونعم، هناك معاناة،

ولكنها خطأ الفلسطينيين الذين يرفضون السلام. ونحن، في نهاية المطاف، أفضل منهم، ولذلك يحق لنا ما لا يحق لهم". [11]

ب. "إطلاق النار والبكاء": آلية تفريغ الذنب

إحدى الآليات النفسية المثيرة للاهتمام التي طورها المجتمع الإسرائيلي للتعامل مع الذنب هي ظاهرة "إطلاق النار والبكاء" (Yorim u-Bochim). بعد كل حرب أو عملية عسكرية، يظهر الجنود في وسائل الإعلام، ويتحدثون عن "القرارات الصعبة" التي اضطروا لاتخاذها، وعن "المعضلات الأخلاقية" التي واجهوها. إنهم "يبكون" على الضحايا، ولكنهم يبررون "إطلاق النار".

هذه الظاهرة، التي تبدو وكأنها تعبير عن حساسية أخلاقية، هي في الواقع العكس تماماً. إنها آلية لتفريغ الذنب، وتأكيد البراءة. إنها تقول: "انظروا كم نحن حساسون وأخلاقيون، حتى ونحن نقتل. نحن لسنا وحوشاً، بل ضحايا للظروف". إنها طريقة للجمع بين متعة القوة وبراءة الضحية. إنها ذروة النفاق الأخلاقي. [12]

ج. إنكار الواقع: الجدار النفسي

في النهاية، فإن الطريقة الأكثر فعالية للتعامل مع الواقع المزعج هي إنكاره تماماً. لقد بنى معظم الإسرائيليين (اليهود) جداراً نفسياً بينهم وبين الاحتلال. فهم يعيشون حياتهم في تل أبيب والقدس الغربية، ويذهبون إلى الشاطئ والمقاهي، ويتحدثون عن أسعار العقارات والسياسة الحزبية، ويتجاهلون تماماً ما يحدث على بعد بضعة كيلومترات، خلف الجدار الفاصل.

لقد أصبح الاحتلال "غير مرئي" بالنسبة لمعظم الإسرائيليين. إنه شيء يحدث "هناك"، في عالم آخر، يقوم به "الجيش"، ولا علاقة له بحياتهم اليومية. هذا الإنكار ليس مجرد جهل، بل هو خيار واعٍ. إنه قرار بعدم المعرفة، وعدم الرؤية، وعدم التفكير. إنه الطريقة الوحيدة للحفاظ على "الفيلا" نظيفة ومرتبة، دون الاضطرار إلى النظر إلى "الغابة" المظلمة التي تحيط بها، والتي هي من صنع أيديهم. [13]

النرجسية الجماعية وعقدة الاستعلاء

يمكن تحليل أسطورة التفوق الإسرائيلية من خلال مفهوم "النرجسية الجماعية" (Collective Narcissism). النرجسية، على المستوى الفردي، هي اضطراب شخصية يتميز بشعور متضخم بأهمية الذات، وحاجة ماسة للإعجاب، وانعدام التعاطف مع الآخرين. أما النرجسية الجماعية، فهي تطبيق هذا المفهوم على مستوى المجموعة. إنها الإيمان بأن المجموعة التي ينتمي إليها الفرد هي مجموعة استثنائية ومتفوقة، وأنها لا تحظى بالتقدير الذي تستحقه من الآخرين. [14]

تتميز النرجسية الجماعية بعدة سمات تنطبق بشكل كبير على المجتمع الإسرائيلي:

الحساسية المفرطة للنقد: ترى المجموعة النرجسية أي نقد على أنه هجوم خبيث وغير مبرر. وهذا يفسر لماذا يتم تصنيف أي نقد لإسرائيل على أنه "معاداة للسامية".

العدوانية تجاه "الآخر": تميل المجموعة النرجسية إلى العدوانية تجاه المجموعات الأخرى، خاصة عندما تشعر بأن تفوقها مهدد. وهذا يفسر العدوانية الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين وأي شخص يتضامن معهم.

انعدام التعاطف: لا تستطيع المجموعة النرجسية أن ترى الأمور من وجهة نظر الآخرين، أو أن تتعاطف مع معاناتهم. وهذا يفسر العمى الأخلاقي الإسرائيلي تجاه معاناة الفلسطينيين.

الحاجة المستمرة للتأكيد الخارجي: رغم شعورها بالتفوق، تحتاج المجموعة النرجسية باستمرار إلى تأكيد هذا التفوق من قبل الآخرين. وهذا يفسر الهوس الإسرائيلي بالهاسبارا، والحاجة الدائمة إلى "الفوز" في معركة الرأي العام.

عقدة الاستعلاء كتعويض عن عقدة النقص:

من منظور علم النفس الأديلري، يمكن رؤية "عقدة الاستعلاء" (Superiority Complex) الإسرائيلية على أنها آلية تعويض عن "عقدة نقص" (Inferiority Complex) تاريخية. لقد عانى اليهود لقرون من الاضطهاد والشعور بالدونية في أوروبا. جاءت الصهيونية كرد فعل على هذا الشعور، وسعت إلى "تطبيع" الشعب اليهودي، وجعله "أمة ككل الأمم".

لكن هذا السعي إلى التطبيع تحول إلى سعي إلى التفوق. لقد كان هناك إفراط في التعويض (Overcompensation). فبدلاً من أن يصبحوا "طبيعيين"، أرادوا أن يصبحوا "الأفضل". لقد تحولت عقدة النقص إلى عقدة استعلاء. هذه العقدة هي التي تغذي أسطورة التفوق، وهي التي تجعل من الصعب على الإسرائيليين الاعتراف بأي خطأ، أو رؤية الفلسطينيين كبشر متساوين. فالاعتراف بالمساواة يعني التخلي عن التفوق، والعودة إلى الشعور بالنقص، وهذا أمر لا يطاق من الناحية النفسية. [15]

إن أسطورة التفوق، في نهاية المطاف، هي قناع يخفي وجهاً خائفاً وغير آمن. إنها محاولة يائسة للهروب من تاريخ طويل من الضعف والصدمات. لكن هذا الهروب له ثمن باهظ: فقدان البصيرة الأخلاقية، والوقوع في نفس الخطيئة التي ارتكبها الجلادون في الماضي: خطيئة الغطرسة وتجريد الآخر من إنسانيته.

القناع الذي يخفي الفراغ

تعتبر "أسطورة التفوق" هي القناع الذي يرتديه المجتمع الإسرائيلي ليخفي التناقضات العميقة التي يعيشها. إنها أيديولوجيا متكاملة وآلية دفاع نفسي فعالة، تسمح لإسرائيل

باجمع بين صورة الذات الإيجابية وممارسة القمع. يمكن تلخيص مكونات هذه الأسطورة في النقاط التالية:

الجذور المزدوجة: الجمع بين عقيدة "الشعب المختار" الدينية وعقيدة "اليهودي الجديد" العلمانية لخلق شعور بالتفوق القومي.

صناعة التفوق: استخدام "الهاسبارا" (الدعاية) لترويج صورة إسرائيل كدولة متقدمة وديمقراطية وأخلاقية، وتبييض الاحتلال من خلال حملات مثل "الغسيل الوردي" و"أمة الشركات الناشئة".

العمى الأخلاقي: استخدام آليات دفاع نفسي مثل التنافر المعرفي، و"إطلاق النار والبكاء"، وإنكار الواقع، لحماية النفس من الشعور بالذنب.

النرجسية الجماعية: تطوير شخصية قومية نرجسية، تتميز بالغطرسة، والحساسية للنقد، وانعدام التعاطف، والعدوانية تجاه الآخر.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: إلى متى يمكن لمجتمع أن يعيش على أسطورة؟ وماذا يحدث عندما يتصدع قناع التفوق، ويبدأ الواقع القبيح في الظهور؟

إن أسطورة التفوق ليست مجرد فكرة مجردة، بل لها تجليات مادية ومؤسسية. وأهم هذه التجليات هو الجيش الإسرائيلي. فالجيش ليس مجرد أداة للدفاع، بل هو مؤسسة مركزية تشكل كل جانب من جوانب الحياة في إسرائيل. إنه بوتقة الصهر التي تصنع "الإسرائيلي الجديد"، والمختبر الذي تطور فيه التكنولوجيا، والمحرك الذي يدفع الاقتصاد، والأكاديمية التي تخرج القادة السياسيين. الفصل التالي، "الجيش الذي يملك دولة: عسكرة المجتمع الإسرائيلي"، سيحلل الدور المركزي للجيش، وكيف أدت عسكرة المجتمع إلى ترسيخ ثقافة القوة والعنف، وجعلت من المستحيل تقريباً تصور حل للصراع لا يعتمد على القوة العسكرية.

مراجع الفصل الثاني عشر:

- [1] The quote from Ehud Barak has been widely reported. See, for example, Ari Shavit, *My Promised Land: The Triumph and Tragedy of Israel* (Spiegel & Grau, 2013).
- [2] Hartman, David. *A Living Covenant: The Innovative Spirit in Traditional Judaism*. Jewish Lights Publishing, 1997.
- [3] Domb, Cyril, ed. *The Challenge of Orthodox Judaism: The Thought of Rabbi Joseph B. Soloveitchik*. Ktav Publishing House, 1982.
- [4] Gertz, Nurith. *Myths in Israeli Culture: Captives of a Dream*. Vallentine Mitchell, 2000.
- [5] See reports by B'Tselem ("A regime of Jewish supremacy from the Jordan River to the Mediterranean Sea: This is apartheid," 2021) and Human Rights Watch ("A Threshold

Crossed: Israeli Authorities and the Crimes of Apartheid and Persecution," 2021).

- [6] Kraidy, Marwan M. *The Naked Blogger of Cairo: Creative Insurgency in the Arab World*. Harvard University Press, 2016. (This book discusses digital activism and hasbara).
- [7] Beinart, Peter. "The New McCarthyism." *The New York Review of Books*, June 24, 2021.
- [8] Puar, Jasbir K. *Terrorist Assemblages: Homonationalism in Queer Times*. Duke University Press, 2007. (Puar coined the term "homonationalism," which is related to pinkwashing).
- [9] Senor, Dan, and Saul Singer. *Start-up Nation: The Story of Israel's Economic Miracle*. Twelve, 2011.
- [10] Halper, Jeff. *War Against the People: Israel, the Palestinians and Global Pacification*. Pluto Press, 2015.

- [11] Festinger, Leon. *A Theory of Cognitive Dissonance*. Stanford University Press, 1957.
- [12] The term "shooting and crying" is discussed in many works on Israeli society. See, for example, Oz, Amos, *In the Land of Israel* (Harcourt, 1983).
- [13] Gordon, Neve. *Israel's Occupation*. University of California Press, 2008.
- [14] Golec de Zavala, Agnieszka, et al. "Collective Narcissism and Its Social Consequences." *Journal of Personality and Social Psychology* 97, no. 6 (2009): 1074–96.
- [15] Adler, Alfred. *The Practice and Theory of Individual Psychology*. Harcourt, Brace & World, 1927.

(١٣)

عسكرة المجتمع الإسرائيلي

أكثر من مجرد جيش

في معظم الدول الديمقراطية، يعتبر الجيش أداة في يد الدولة، خاضعاً للسلطة المدنية، ومهمته محددة بالدفاع عن الحدود. أما في إسرائيل، فالصورة معكوسة تماماً. فالجيش الإسرائيلي، أو "قوات الدفاع الإسرائيلية" (צה"ל - تساهل)، ليس مجرد أداة، بل هو قلب الدولة، وروح الأمة، والمؤسسة الأكثر هيمنة وتأثيراً في المجتمع. لقد قيل عن بروسيا في القرن الثامن عشر إنها "جيش يملك دولة، وليست دولة تملك جيشاً". هذا الوصف ينطبق على إسرائيل اليوم أكثر من أي دولة أخرى في العالم. [1]

الجيش في إسرائيل هو كل شيء تقريباً. هو أكبر رب عمل، وأكبر مستثمر في التكنولوجيا، وأكبر مالك للأراضي. هو بوتقة الصهر التي تحول المهاجرين الجدد إلى

"إسرائيليين". هو الأكاديمية التي تخرج النخبة السياسية والاقتصادية. هو المختبر الذي يتم فيه تطوير واختبار الأسلحة والتقنيات التي تغذي "أمة الشركات الناشئة". وهو، قبل كل شيء، الكاهن الأكبر لديانة "الأمن"، التي أصبحت العقيدة الرسمية للدولة.

هذه الظاهرة، التي تعرف بـ"عسكرة المجتمع" (Militarization)، لها جذور عميقة في التاريخ الصهيوني. فمنذ البداية، كان المشروع الصهيوني مشروعاً عسكرياً بقدر ما كان مشروعاً استيطانياً. لقد أدرك القادة الصهاينة الأوائل أن حلمهم بإقامة دولة يهودية في قلب العالم العربي لا يمكن أن يتحقق إلا بالقوة. لقد عبدوا "جداراً حديدياً" من القوة العسكرية، يكون هو الضمانة الوحيدة لبقائهم وهيمنتهم.

لكن هذه العسكرة الشاملة كان لها ثمن باهظ. لقد أدت إلى طمس الخطوط الفاصلة بين ما هو مدني وما هو عسكري، بين ما هو سياسي وما هو أمني. لقد أدت إلى خلق ثقافة تؤمن بأن القوة هي الحل الأول والأخير لكل المشاكل. لقد أدت إلى تهميش الأصوات الداعية إلى السلام، وصعود الجنرالات إلى قمة الهرم السياسي. حولت المجتمع

بأسره إلى ثكنة عسكرية كبيرة، يعيش أفرادها في حالة تأهب دائم، ويرون في كل جار عدواً محتملاً.

هذا الفصل سيحلل ظاهرة عسكرة المجتمع الإسرائيلي. سنقتفي أثرها من ميليشيات "الهاغاناه" و"الإ يتسل" قبل قيام الدولة، إلى الجيش النظامي الذي يدير اليوم احتلالاً معقداً ومكلفاً. سنرى كيف أصبح الجيش هو المؤسسة المهيمنة في السياسة والاقتصاد والثقافة. وسنحلل كيف أدت هذه العسكرة إلى تشويه قيم المجتمع، وتآكل ديمقراطيته (الهشة أصلاً)، وجعلت من السلام هدفاً بعيد المنال. إنها قصة كيف ابتلع الجيش الدولة، وحول الحلم الصهيوني إلى كابوس عسكري لا نهاية له.

جيش الشعب: بوتقة الصهر القومية

يطلق على الجيش الإسرائيلي لقب "جيش الشعب" (צבא העם - تسافا هعام). هذا اللقب ليس مجرد شعار، بل هو يعكس حقيقة أساسية: أن الجيش هو تجسيد لـ"الأمة المسلحة". فالخدمة العسكرية في إسرائيل ليست مجرد واجب، بل هي طقس عبور، ومصدر للفخر، وشرط أساسي للمواطنة الكاملة. ومن لا يخدم في الجيش (باستثناءات معينة) يُنظر إليه على أنه مواطن من الدرجة الثانية.

أ. الخدمة الإلزامية: مصنع "الإسرائيلي الجديد"

تعتبر الخدمة العسكرية إلزامية لجميع المواطنين اليهود (الرجال لمدة ثلاث سنوات، والنساء لمدة سنتين). هذه الخدمة الطويلة والمكثفة تعمل كـ "بوتقة صهر" (Melting Pot)، يتم فيها تحويل الشباب من خلفيات عرقية وثقافية مختلفة (أشكناز، مزراحيم، فلاشا، روس) إلى "إسرائيليين" متجانسين. في الجيش، يتعلمون اللغة العبرية، ويتشربون السردية الصهيونية، ويبنون علاقات اجتماعية تدوم مدى الحياة. الجيش هو المدرسة الحقيقية التي تصنع الهوية الإسرائيلية. [2]

لكن هذه "بوتقة الصهر" هي أيضاً أداة للإقصاء. فالمواطنون الفلسطينيون في إسرائيل (عرب 48) معفيون من الخدمة العسكرية (باستثناء الدروز والبدو)، وهذا الإعفاء يستخدم كذريعة لتبرير التمييز ضدهم في التوظيف والتعليم والمزايا الاجتماعية. الرسالة واضحة: من لا يساهم في "عبء الأمن"، لا يستحق الحقوق الكاملة. [3]

ب. الاحتياط: طمس الحدود بين الجندي والمواطن

بعد انتهاء الخدمة الإلزامية، يستمر معظم الإسرائيليين في الخدمة في قوات الاحتياط حتى سن الأربعين. هذا يعني أن المواطن العادي - الطبيب، والمحامي، والمعلم، ورجل الأعمال - يمكن استدعاؤه في أي لحظة ليخلع ملابسه المدنية ويرتدي بزته العسكرية. هذا النظام يطمس الخطوط الفاصلة بين الحياة المدنية والحياة العسكرية. فالجندي هو مواطن، والمواطن هو جندي محتمل. لا يوجد مكان يمكن الهروب إليه من قبضة الجيش. [4]

إن نظام الاحتياط يخلق أيضاً حالة من "التواطؤ الجماعي". فغالبية السكان الذكور متورطون بشكل مباشر في الحفاظ على الاحتلال. إنهم ليسوا مجرد مراقبين سلبيين، بل هم مشاركون نشطون. هذا يجعل من الصعب عليهم انتقاد سياسات الجيش أو الحكومة، لأنهم بذلك ينتقدون أنفسهم. إنه يخلق مجتمعاً لا يستطيع أن يرى الخطأ في أفعاله، لأن الجميع متورطون فيه.

ج. "الأمن" كدين: الكاهن الأكبر وجنرالاته

في مجتمع يعيش في حالة حصار دائم (حقيقي أو متخيل)، يصبح "الأمن" (ביטחון - بيتاحون) هو القيمة العليا، التي تتفوق على كل القيم الأخرى، بما في ذلك الديمقراطية وحقوق الإنسان. ويصبح الجيش، بصفته المسؤول عن توفير الأمن، هو المؤسسة الأكثر قداسة واحتراماً. يصبح الجيش هو الكاهن الأكبر، والجنرالات هم أنبياؤه.

الخطاب الأمني يهيمن على كل جوانب الحياة في إسرائيل. فأي قضية سياسية أو اجتماعية يتم تأطيرها من منظور أمني. هل يجب بناء مستوطنات جديدة؟ الجواب يعتمد على "الاعتبارات الأمنية". هل يجب التفاوض مع الفلسطينيين؟ الجواب يعتمد على "الترتيبات الأمنية". هل يجب انتقاد سلوك الجنود؟ هذا "يضر بالأمن القومي". فالأمن هو الكلمة السحرية التي تسكت كل نقاش، وتبرر كل قمع. [5]

الجنرالات يحكمون وهيمنة الجيش على السياسة

في إسرائيل، لا يكتفي الجيش بالدفاع عن الدولة، بل هو يحكمها فعلياً. فالنخبة العسكرية تهيمن على النخبة السياسية. والجنرالات المتقاعدون ينتقلون مباشرة من رئاسة الأركان

إلى رئاسة الوزراء أو وزارة الدفاع. هذه الظاهرة، التي تعرف بـ "الباب الدوار" بين الجيش والسياسة، تضمن أن العقلية العسكرية هي التي تحدد قرارات الدولة.

أ. "الباب الدوار": من رئاسة الأركان إلى رئاسة الوزراء

إن قائمة رؤساء الوزراء ووزراء الدفاع الذين جاءوا من خلفية عسكرية رفيعة هي قائمة طويلة ومثيرة للقلق: إسحاق رابين، موشيه ديان، أرييل شارون، إيهود باراك، بني غانتس، وغيرهم الكثير. هؤلاء القادة، الذين أمضوا حياتهم كلها في الجيش، يحملون معهم إلى المكتب السياسي عقليتهم العسكرية، التي تقوم على مبادئ القوة، والحلول الصفرية، وعدم الثقة بالطرف الآخر. [6]

لذلك نجد إن هيمنة الجنرالات على السياسة تجعل من الصعب التوصل إلى حلول سياسية للصراع. فالجنرالات، بحكم تدريبهم، يميلون إلى رؤية العالم من خلال فوهة البندقية. تجدهم يفضلون "إدارة الصراع" على "حل الصراع". ويفضلون الحلول العسكرية قصيرة المدى على الحلول السياسية طويلة المدى. وبالتالي هذا يعني استمرار الحرب، لأن الحرب هي البيئة التي يفهمونها ويزدهرون فيها.

ب. "التقدير الاستراتيجي": الجيش يحدد الواقع

لا تقتصر هيمنة الجيش على وجود الجنرالات في الحكومة، بل تتجلى أيضاً في سيطرة الجيش على المعلومات والتحليلات التي تشكل أساس عملية صنع القرار. إن "شعبة الاستخبارات العسكرية" (أمان) هي الجهة التي تقدم "التقدير الاستراتيجي" السنوي للحكومة. هذا التقدير هو الذي يحدد من هو العدو، وما هي التهديدات، وما هي الخيارات المتاحة. [7]

فإن سيطرة الجيش على المعلومات تخلق "نفقاً معرفياً" لصناع القرار. فهم لا يرون من الواقع إلا ما يسمح لهم الجيش برؤيته. وهذا الواقع هو دائماً واقع متشائم، مليء بالتهديدات والأخطار، ويتطلب المزيد من القوة والمزيد من السلاح. فالجيش لا يكتفي بتحليل الواقع، بل هو يصنعه على صورته ومثاله.

ج. الرقابة العسكرية: إسكات الأصوات الناقدة

لضمان عدم تحدي روايته الرسمية، يمارس الجيش رقابة صارمة على وسائل الإعلام. "الرقيب العسكري" هو ضابط في الجيش له سلطة منع نشر أي معلومات يعتبرها "ضارة بالأمن القومي". ورغم أن هذه الرقابة قد خفت في السنوات الأخيرة، إلا أنها لا تزال موجودة، وتستخدم لإسكات الأصوات الناقدة، ومنع كشف جرائم الجيش. [8]

بالإضافة إلى الرقابة الرسمية، هناك رقابة ذاتية يمارسها الصحفيون أنفسهم. فالصحفي الذي يريد أن يحافظ على مصادره في الجيش، وأن يحصل على السبق الصحفي الحصري، يعرف أنه يجب عليه أن يتبع "الخط الرسمي". ومن يجرؤ على الخروج عن هذا الخط، يتم تهميشه واتهامه بـ"الخيانة". النتيجة هي إعلام وطني، يتبنى في معظمه وجهة نظر الجيش، ويعمل كأداة للدعاية وليس كسلطة رابعة تراقب السلطة. [9]

كيف يغذي الجيش "أمة الشركات الناشئة"

إن هيمنة الجيش لا تقتصر على السياسة، بل تمتد إلى الاقتصاد. فالجيش هو المحرك الرئيسي للاقتصاد الإسرائيلي، وخاصة لقطاع التكنولوجيا الفائقة الذي تتباهى به إسرائيل. إن "أمة الشركات الناشئة" هي، في جزء كبير منها، نتاج "أمة الجيش".

أ. المجمع الصناعي-العسكري: حلقة مغلقة

يوجد في إسرائيل ما أطلق عليه الرئيس الأمريكي أيزنهاور "المجمع الصناعي-العسكري" (Military-Industrial Complex). هذا المجمع هو شبكة من العلاقات والمصالح المتبادلة بين الجيش، والصناعات العسكرية، والحكومة. الجيش يحدد الاحتياجات، والصناعات العسكرية (مثل "إلبيت" و"رفائيل" و"الصناعات الجوية الإسرائيلية") تطور وتنتج الأسلحة، والحكومة تمول كل ذلك من أموال دافعي الضرائب، وتساعد في تسويق هذه الأسلحة في الخارج. [10]

حلقة مغلقة، يستفيد منها الجميع (داخل المجمع). فالجيش يحصل على أحدث الأسلحة، والشركات تحقق أرباحاً طائلة، والجنرالات المتقاعدون يجدون وظائف مربحة في مجالس إدارة هذه الشركات. أما الخاسر الأكبر، فهو عملية السلام، لأن هذا المجمع لديه مصلحة مباشرة في استمرار الصراع، لأن الصراع يعني المزيد من الطلب على الأسلحة، والمزيد من الأرباح.

ب. وحدة 8200: الحاضنة التكنولوجية

تعتبر "وحدة 8200" التابعة للاستخبارات العسكرية هي أكبر وحدة في الجيش الإسرائيلي، وهي مسؤولة عن التجسس الإلكتروني والحرب السيبرانية. تعتبر هذه الوحدة هي الحاضنة التكنولوجية للنخبة الإسرائيلية. فالشباب الأكثر ذكاءً وموهبة يتم اختيارهم للخدمة في هذه الوحدة، حيث يتلقون تدريباً متقدماً في مجال الكمبيوتر والبرمجة والبيانات الضخمة. [11]

بعد تسريحهم من الجيش، يقوم خريجو وحدة 8200 بتأسيس شركات ناشئة في قطاع التكنولوجيا الفائقة، مستخدمين الخبرات والتقنيات والعلاقات التي اكتسبوها في الجيش. فقائمة الشركات الناجحة التي أسسها خريجو هذه الوحدة هي قائمة لا تنتهي (مثل "تشيك بوينت" و"ويز" و"N SO Group"). هذه الشركات يحولون المعرفة العسكرية إلى أرباح تجارية. إن "أمة الشركات الناشئة" هي، في الواقع، خصخصة للخبرة العسكرية. [12]

ج. الاحتلال كمختبر: "تم اختباره في المعركة"

إن أخطر جانب في العلاقة بين الجيش والاقتصاد هو استخدام الأراضي الفلسطينية المحتلة كـ"مختبر" لتجربة الأسلحة والتقنيات الجديدة. فالشركات العسكرية الإسرائيلية تسوق منتجاتها للعالم تحت شعار "تم اختباره في المعركة" (Battle-tested). وهذا يعني أن هذه الأسلحة، من الطائرات بدون طيار إلى برامج التجسس، قد تم استخدامها بالفعل ضد الفلسطينيين. [13]

الاحتلال ليس مجرد عبء أمني، بل هو أيضاً فرصة اقتصادية. سوق ضخم، ومجال لا نهائي للتجريب. يتم اختبار كل شيء على الفلسطينيين: أنظمة المراقبة، وتقنيات التعرف على الوجه، والأسلحة "غير الفتاكة"، وأساليب السيطرة على الحشود. ثم يتم تصدير هذه المنتجات والخبرات إلى دول أخرى في العالم، الدول التي ترغب في قمع شعوبها أو السيطرة على أقلياتها. حولت إسرائيل الاحتلال إلى "ماركة" عالمية، وأصبحت رائدة في صناعة "أمننة" العالم. [14]

ثقافة القوة وإنكار الضعف

ظاهرة عسكرة المجتمع الإسرائيلي ليست مجرد ظاهرة سياسية واقتصادية، بل هي أيضاً ظاهرة نفسية وثقافية. فهي تعكس "ثقافة القوة" التي أصبحت تهيمن على النفسية الإسرائيلية، والتي هي بدورها رد فعل على تاريخ طويل من الضعف والعجز.

1. عبادة القوة كتعويض عن صدمة الهولوكوست:

كما رأينا في الفصول السابقة، شكلت الهولوكوست صدمة قوية في الوعي اليهودي. فقد خلقت شعوراً بالعجز المطلق، ورعباً من تكرار التاريخ. جاءت الصهيونية، وخاصة في نسختها العسكرية، كرد فعل تعويضي على هذه الصدمة. فأصبحت القوة العسكرية هي الضمانة الوحيدة لعدم تكرار الهولوكوست. وأصبح الجيش هو الترياق الذي يشفي جرح الضعف. [15]

هذه العبادة للقوة هي آلية دفاع مفهومة، لكنها آلية خطيرة. فهي تؤدي إلى ما يسميه المحلل النفسي إريك فروم "متلازمة النمو الخبيث" (Malignant Aggression)، حيث يصبح العنف ليس مجرد وسيلة للدفاع، بل غاية في حد ذاته، ومصدراً للشعور بالحياة

والقوة. إنها تؤدي إلى عقلية ترى في كل مشكلة مسماراً، وفي القوة العسكرية المطرقة الوحيدة المتاحة.

2. إنكار الضعف وتشييد "الرجل الخارق" الإسرائيلي:

عبادة القوة مرتبطة بشكل مباشر بإنكار أي شكل من أشكال الضعف. ففي الثقافة العسكرية الإسرائيلية، يعتبر الضعف خطيئة. والجندي الذي يظهر الخوف أو التردد أو الشك يتعرض للازدراء. لقد تم بناء صورة نمطية لـ "الجندي الإسرائيلي" على أنه "رجل خارق" (Super-man)، لا يعرف الخوف، ولا يرتكب الأخطاء، وقادر على التغلب على أي عقبة.

هذا الإنكار للضعف يخلق شخصية قومية هشة ونرجسية. فهي لا تستطيع الاعتراف بالخطأ، أو تحمل النقد، أو إظهار التعاطف. إنها شخصية تحتاج باستمرار إلى إثبات تفوقها وقوتها، لأنها تخشى من أن أي اعتراف بالضعف سيؤدي إلى انهيارها. هذا يفسر لماذا يتفاعل الجيش الإسرائيلي بغضب شديد مع أي تقرير لمنظمة حقوقية، أو أي تحقيق في جرائمه. فهذه التقارير لا تهدد فقط صورته، بل تهدد أساس وجوده النفسي. [16]

3. العسكرة كآلية لـ"إدارة" الصراع بدلاً من حله:

نهاية القول، نجد أن عسكرة المجتمع تخدم وظيفة سياسية ونفسية جذرية: فهي تسمح لإسرائيل بـ "إدارة" الصراع مع الفلسطينيين إلى أجل غير مسمى، بدلاً من حله. فالصراع، من منظور عسكري، هو حالة طبيعية ودائمة. والحلول العسكرية هي دائماً حلول مؤقتة، تهدف إلى "استعادة الهدوء" أو "تحقيق الردع"، وليس إلى معالجة الأسباب الجذرية للمشكلة.

هذه العقلية مريحة جداً للطبقة السياسية والعسكرية في إسرائيل. فهي تعفيهم من اتخاذ قرارات سياسية صعبة، مثل تفكيك المستوطنات، أو الانسحاب من الأراضي المحتلة، أو الاعتراف بحقوق الفلسطينيين. بدلاً من ذلك، يمكنهم الاستمرار في "جز العشب" (Mowing the lawn)، أي شن عمليات عسكرية دورية ضد الفلسطينيين، لإبقائهم ضعفاء ومنقسمين، ومنعهم من تشكيل أي تهديد حقيقي. اذن هي استراتيجية للحفاظ على الوضع الراهن، الذي تستفيد منه إسرائيل بشكل كبير. واستراتيجية تضمن استمرار الاحتلال، واستمرار الحرب، إلى الأبد. [17]

عندما يبتلع الجيش الدولة

الجيش الإسرائيلي ليس مجرد جيش، بل هو دولة داخل الدولة، أو بالأحرى، هو الدولة نفسها. لقد أدت ظاهرة عسكرة المجتمع إلى طمس الحدود بين المدني والعسكري، وإلى هيمنة العقلية الأمنية على كل جوانب الحياة. يمكن تلخيص هذه الظاهرة في النقاط التالية:

جيش الشعب: استخدام الخدمة الإلزامية والاحتياط كأدوات لصنع الهوية القومية، ولإقصاء من لا يخدم، ولخلق حالة من التواطؤ الجماعي.

هيمنة الجنرالات: سيطرة النخبة العسكرية على النخبة السياسية، من خلال "الباب الدوار"، والتحكم في المعلومات، والرقابة على الإعلام.

اقتصاد الحرب: تشابك المصالح بين الجيش والصناعات العسكرية، واستخدام الاحتلال كمختبر لتطوير وتصدير أسلحة وتقنيات قمع.

ثقافة القوة: عبادة القوة كتعويض عن صدمة تاريخية، وإنكار الضعف، وتفضيل "إدارة الصراع" على حله.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: هل يمكن لدولة يهيمن عليها الجيش أن تحقق السلام؟ أم أن طبيعتها العسكرية تحتم عليها أن تعيش في حالة حرب دائمة، مع جيرانها ومع نفسها؟

إن هيمنة الجيش الإسرائيلي لم تكن ممكنة لولا الدعم الهائل وغير المشروط الذي تتلقاه من راعيها الأكبر: الولايات المتحدة الأمريكية. هذا الدعم ليس مجرد دعم مالي وعسكري، بل هو دعم دبلوماسي وأيديولوجي، يوفر لإسرائيل الغطاء اللازم للاستمرار في سياساتها. الفصل التالي، "الراعي الأمريكي: شيك على بياض"، سيحلل طبيعة هذا التحالف الاستراتيجي الفريد، وسيكشف عن الأسباب التي تدفع الولايات المتحدة إلى دعم إسرائيل بشكل أعمى، وكيف أصبح هذا الدعم عقبة أساسية في طريق السلام، وأداة لتمكين إسرائيل من الاستمرار في مشروعها الاستعماري دون أي رادع.

مراجع الفصل الثالث عشر:

- [1] The quote about Prussia is often attributed to the French Enlightenment writer Voltaire. Its application to Israel is discussed in Uri Ben-Eliezer, *The Making of Israeli Militarism* (Indiana University Press, 1998).
- [2] Kimmerling, Baruch. *The Invention and Decline of Israeliness*: *State, Society, and the Military*. University of California Press, 2001.
- [3] Peled, Yoav. "Ethnic Democracy and the Legal Construction of Citizenship: Arab Citizens of Israel." *American Political Science Review* 86, no. 2 (1992): 432–43.
- [4] Peri, Yoram. *Generals in the Cabinet Room*: *How the Military Shapes Israeli Policy*. United States Institute of Peace Press, 2006.

- [5] Bar-Tal, Daniel, and Dikla Antebi. "Beliefs About Negative Intentions of the World: A Study of the Israeli Siege Mentality." *Political Psychology* 13, no. 4 (1992): 633–45.
- [6] Peri, Yoram. *Generals in the Cabinet Room*.
- [7] Oren, Amir. "The IDF Chief of Staff: A Profile." *Israel Studies* 5, no. 1 (2000): 136–66.
- [8] Naor, Arye. "Israeli Military Censorship and the Media, 1948–98." In *The Military and the Media,* edited by Hew Strachan. Routledge, 2000.
- [9] Wolfsfeld, Gadi. *Media and the Path to Peace*. Cambridge University Press, 2004.
- [10] Lev-Grinberg, Oren. *The Politics of Military-Industrial Relations in Israel*. Routledge, 2021.

- [11] Gili, Gal, and Tamir Libel. "Unit 8200: A breeding ground for Israel's high-tech industry." *Journal of Strategic Studies* 42, no. 6 (2019): 833-856.
- [12] NSO Group, the creator of the Pegasus spyware, is a prominent example. See reports by Citizen Lab and Amnesty International.
- [13] Halper, Jeff. *War Against the People*: *Israel, the Palestinians and Global Pacification*. Pluto Press, 2015.
- [14] Ibid.
- [15] Segev, Tom. *The Seventh Million*: *The Israelis and the Holocaust*. Hill and Wang, 2000.
- [16] Bar-On, Dan. *The "Others" Within Us*: *A Socio-Psychological Perspective on Changes in Israeli Identity*. Cambridge University Press, 2008.

- [17] The term "mowing the lawn" is widely used in Israeli security discourse. See, for example, Eyal Weizman, *Hollow Land: Israel's Architecture of Occupation* (Verso, 2012).

(١٤)

الراعي الأمريكي - شيك على بياض

إحدى عشرة دقيقة هزت العالم

في مساء يوم 14 مايو 1948، كان الرئيس الأمريكي هاري ترومان يجلس في المكتب البيضاوي، متجاهلاً نصائح كل مستشاريه تقريباً. وزير خارجيته، الجنرال جورج مارشال، رجل الدولة الأسطوري الذي أعادت خطته بناء أوروبا، هدد بالاستقالة العلنية إذا اعترف ترومان بالدولة اليهودية الوليدة. حذره مارشال قائلاً: "إذا فعلت ذلك، سأصوت ضدك في الانتخابات". لقد كان يرى في هذا الاعتراف كارثة استراتيجية، ستؤدي إلى إشعال حرب لا نهاية لها، وتدمير مصالح أمريكا في العالم العربي لعقود قادمة. [1]

لكن ترومان كان مصمماً. بعد إحدى عشرة دقيقة فقط من إعلان ديفيد بن غوريون قيام دولة إسرائيل في تل أبيب، أصدر البيت الأبيض بياناً مقتضباً من سطرين، يعترف فيه بالدولة الجديدة. كانت لحظة تاريخية، غيرت مسار الشرق الأوسط إلى الأبد. لقد كانت تلك الدقائق الإحدى عشرة هي البذرة التي نمت لتصبح "العلاقة الخاصة" الأكثر غرابة وتكلفة في تاريخ السياسة الخارجية الأمريكية. [2]

لم يكن قرار ترومان مجرد نزوة. لقد كان نتاج ضغط هائل من اللوبي الصهيوني، الذي كان يعمل بلا كلل في واشنطن، مستخدماً كل أساليب الإقناع والابتزاز. وكان أيضاً نتاج حسابات سياسية باردة، حيث كان ترومان يواجه معركة انتخابية شرسة، ويحتاج بشدة إلى أصوات و أموال الجالية اليهودية. وفوق كل ذلك، كان هناك شعور بالذنب المسيحي تجاه ما حدث لليهود في الهولوكوست، ورغبة في "فعل الشيء الصحيح" تجاه "شعب الله المختار".

منذ تلك اللحظة، تحولت الولايات المتحدة تدريجياً من داعم حذر إلى راعٍ غير مشروط، وحليف استراتيجي، وممكّن رئيسي للمشروع الصهيوني. قدمت لإسرائيل شيكاً على

بياض، مالياً وعسكرياً ودبلوماسياً، سمح لها بشن الحروب، واحتلال الأراضي، وتحدي القانون الدولي، دون أي خوف من العقاب. أصبحت القوة العظمى في العالم، في كثير من الأحيان، مجرد أداة في يد دولة صغيرة وعنيدة، تستخدمها لتحقيق أهدافها الخاصة، حتى لو كانت تتعارض مع مصالح راعيها.

هذا الفصل سيغوص في أعماق هذه العلاقة المرضية. سنكشف كيف تمكن اللوبي الإسرائيلي من إحكام قبضته على الكونغرس الأمريكي، وتحويله إلى ما يشبه "برلماناً إسرائيلياً" رديفاً. سنحلل التحالف الغريب بين الصهاينة اليهود والمسيحيين الإنجيليين، الذين يرون في إسرائيل تحقيقاً لنبوءات نهاية الزمان. وسنقدم الأرقام الصادمة للدعم الأمريكي، الذي تجاوز 318 مليار دولار، والذي جعل من الجيش الإسرائيلي أحد أقوى الجيوش في العالم. تروي القصة كيف فقدت أمريكا سيادتها في الشرق الأوسط، وأصبحت خادماً مطيعاً لمشروع لا يخدم قيمها ولا مصالحها. إنها قصة "الذيل الذي يهز الكلب".

كيف اشترت إسرائيل واشنطن

لا يمكن فهم السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط دون فهم الدور المركزي الذي تلعبه لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية، المعروفة اختصاراً بـ "إيباك" (AIPAC). هذه المنظمة، التي تأسست في الخمسينيات، تحولت على مر العقود إلى أقوى جماعة ضغط في واشنطن، وأصبحت يد إسرائيل الخفية التي تحرك خيوط السياسة الخارجية الأمريكية.

أ. آلة المال والترهيب: العصا والجزرة

تعتمد قوة إيباك على استراتيجية بسيطة وفعالة: مكافأة الأصدقاء ومعاقبة الأعداء. من خلال شبكة معقدة من لجان العمل السياسي (PACs) والمانحين الأثرياء، تقوم إيباك بتوجيه ملايين الدولارات إلى الحملات الانتخابية للسياسيين (من كلا الحزبين) الذين يظهرون ولاءً مطلقاً لإسرائيل. وفي المقابل، تشن حملات شرسة ومنظمة لهزيمة أي سياسي يجرؤ على انتقاد إسرائيل أو التشكيك في حجم المساعدات المقدمة لها. [3]

لقد تعلم أعضاء الكونغرس الدرس جيداً. فهم يعرفون أن تحدي إيباك يعني الانتحار السياسي. رأوا كيف تم تدمير المستقبل السياسي لسيناتورات وأعضاء كونغرس مرموقين، مثل تشارلز بيرسي، وبول فيندلي، وسينثيا ماكيني، لمجرد أنهم تجرأوا على تبني مواقف معتدلة تجاه الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. [4] النتيجة هي أن الغالبية العظمى من أعضاء الكونغرس يصوتون بشكل آلي على أي تشريع يدعمه إيباك، ويتسابقون لإظهار ولائهم لإسرائيل، حتى لو كان ذلك على حساب المصالح الأمريكية.

ب. "العبودية السياسية": عندما يصبح الكونغرس أداة

وصلت هيمنة إيباك إلى درجة أن العديد من المراقبين يصفون أعضاء الكونغرس بأنهم "عبيد" لإسرائيل. في عام 2015، عندما قرر رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو إلقاء خطاب أمام الكونغرس لمهاجمة الاتفاق النووي الإيراني، لم يجرؤ معظم الأعضاء الديمقراطيين، الذين كان رئيسهم (أوباما) هو مهندس الاتفاق، على مقاطعة الجلسة. لقد جلسوا وصفقوا بحرارة لزعيم أجنبي يهين رئيسهم في عقر داره. كانت لحظة كاشفة للعبودية السياسية التي وصلت إليها واشنطن. [5]

هذه الهيمنة لا تقتصر على الكونغرس. فاللوبي يمارس ضغطاً هائلاً على الإدارة الأمريكية، وعلى وسائل الإعلام، وعلى الجامعات ومراكز الأبحاث. فهو يعمل على خنق أي نقاش مفتوح وصريح حول السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط. وقد نجح في خلق مناخ من الخوف، حيث يتم وصم أي انتقاد لإسرائيل بأنه "معاداة للسامية"، وهي تهمة كفيلة بإنهاء أي مسيرة مهنية في الولايات المتحدة.

ج. ما وراء إيباك: شبكة الأخطبوط

إيباك ليس سوى رأس الحربة في شبكة واسعة من المنظمات التي تعمل لخدمة مصالح إسرائيل. هناك "مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية الكبرى"، و"رابطة مكافحة التشهير" (ADL)، و"اللجنة اليهودية الأمريكية" (AJC)، وعشرات المنظمات الأخرى. هذه الشبكة، التي يطلق عليها أحياناً "المؤسسة اليهودية"، تعمل بشكل منسق للسيطرة على الخطاب العام، ومحاربة أي انحراف عن الخط الرسمي الإسرائيلي. [6]

فهم يمولون مراكز أبحاث (مثل معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى)، ويضغطون على الجامعات لفصل الأساتذة الذين ينتقدون إسرائيل، ويقاضون الطلاب الناشطين

من أجل حقوق الفلسطينيين، وينظمون رحلات مجانية لأعضاء الكونغرس والصحفيين لـ"غسيل أدمغتهم" في إسرائيل. عملية سيطرة شاملة، تهدف إلى ضمان عدم وجود أي ضوء نهار بين السياسة الأمريكية والسياسة الإسرائيلية.

تحالف الصهاينة اليهود والمسيحيون الإنجيليون

إذا كان اللوبي اليهودي هو العقل المدبر للسياسة الأمريكية، فإن المسيحيين الإنجيليين هم عضلاتها. هذا التحالف غير المتوقع بين مجموعة علمانية إلى حد كبير ومجموعة دينية أصولية هو أحد أهم ركائز الدعم الأمريكي لإسرائيل، خاصة داخل الحزب الجمهوري.

أ. لاهوت نهاية الزمان: إسرائيل كأداة للخلاص

تؤمن شريحة كبيرة من المسيحيين الإنجيليين في أمريكا، تقدر بعشرات الملايين، بتفسير حرفي لنبوءات الكتاب المقدس يعرف بـ "التدبيرية" (Dispensationalism). وفقاً لهذا اللاهوت، فإن قيام دولة إسرائيل عام 1948 و"استعادة" اليهود لـ "أرض الميعاد" هو شرط أساسي لوقوع سلسلة من أحداث نهاية الزمان: بناء الهيكل الثالث على أنقاض المسجد الأقصى، ثم معركة هرمجدون، وأخيراً المجيء الثاني للمسيح. [7]

من هذا المنظور، فإن دعم إسرائيل ليس مجرد خيار سياسي، بل هو واجب إلهي. إنه يسرّع من قدوم المسيح وخلاص المؤمنين. لذلك، فإن هؤلاء المسيحيين الصهاينة يدعمون إسرائيل بشكل أعمى، ويدعمون سياساتها الأكثر تطرفاً، مثل توسيع المستوطنات وضم الضفة الغربية، لأنهم يرون في ذلك تحقيقاً للخطة الإلهية. فهم لا يهتمون بحقوق الفلسطينيين أو بالسلام، لأنهم يعتقدون أن الحرب والمعاناة هي جزء ضروري من سيناريو نهاية العالم. [8]

ب. من جيري فالويل إلى جون هيغي: قساوسة في خدمة إسرائيل

تم تنظيم هذه القوة الدينية الهائلة سياسياً من قبل قساوسة كاريزماتيين، مثل جيري فالويل، وبات روبرتسون، وحالياً جون هيغي، مؤسس منظمة "مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل" (CUFI). هذه المنظمة تدعي أن لديها أكثر من 10 ملايين عضو، وهي أكبر منظمة مؤيدة لإسرائيل في الولايات المتحدة. [9]

يقوم هؤلاء القساوسة بحشد أتباعهم للتصويت للمرشحين الذين يدعمون إسرائيل، والضغط على أعضاء الكونغرس، والتبرع بملايين الدولارات للمستوطنات الإسرائيلية في الضفة

الغربية. لقد أصبحوا قوة لا يستهان بها في الحزب الجمهوري. ففي عام 2017، كان القس جون هيغي هو الذي أقنع الرئيس دونالد ترامب بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، في خطوة أثارت غضباً عالمياً، لكنها كانت تحقيقاً لحلم المسيحيين الصهاينة. [10]

ج. استغلال ساخر: عندما يصبح الدين أداة سياسية

من المفارقات أن القادة الإسرائيليين، ومعظمهم علمانيون، لا يؤمنون بهذه النبوءات الدينية. لكنهم يستغلونها بذكاء لتحقيق أهدافهم السياسية. فهم يرحبون بالدعم غير المشروط للمسيحيين الصهاينة، ويستقبلون قادتهم كأبطال، ويتجاهلون لاهوتهم الذي يقول إن اليهود الذين لا يعتنقون المسيحية في نهاية الزمان سيهلكون في النار الأبدية.

تحالف قائم على الاستغلال المتبادل. فالقادة الإسرائيليون يحصلون على دعم سياسي ومالي هائل. والقساوسة الإنجيليون يحصلون على النفوذ السياسي، ويشعرون بأنهم يشاركون في تحقيق الخطة الإلهية. أما الضحية، فهو الشعب الفلسطيني، الذي يتم

التضحية به على مذبح هذا التحالف غير المقدس بين الأصولية الدينية والمصالح السياسية الباردة.

أرقام صادمة ونتائج كارثية

نتيجة هذه الهيمنة السياسية والأيديولوجية هي تدفق غير مسبوق للمساعدات المالية والعسكرية من الولايات المتحدة إلى إسرائيل. هذا الدعم ليس مجرد تعبير عن الصداقة، بل هو الوقود الذي يسمح للمشروع الصهيوني بالاستمرار والتوسع، ويجعل من إسرائيل قوة عسكرية ضاربة، تتصرف بحصانة كاملة من أي مساءلة.

أ. 318 مليار دولار وأكثر: إدمان المساعدات

منذ عام 1948، قدمت الولايات المتحدة لإسرائيل مساعدات خارجية تراكمية بلغت 158 مليار دولار (بالقيمة الاسمية). ولكن عند تعديلها لمراعاة التضخم، يصل المبلغ إلى رقم فلكي: 318 مليار دولار حتى عام 2023. [11] هذا الرقم يجعل إسرائيل أكبر متلق للمساعدات الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية، متجاوزة دولاً أكبر وأفقر بكثير.

تتلقى إسرائيل حالياً 3.8 مليار دولار سنوياً كمساعدات عسكرية، بموجب اتفاق مدته عشر سنوات وقعه الرئيس أوباما. هذه المساعدات تسمح لإسرائيل بإنفاق جزء كبير منها على صناعاتها العسكرية الخاصة، بدلاً من شراء الأسلحة الأمريكية، مما يشكل دعماً مباشراً لاقتصادها. كما أنها تتلقى هذه الأموال في بداية كل سنة مالية، مما يسمح لها بكسب الفوائد على حساب دافعي الضرائب الأمريكيين. [12]

ب. التفوق العسكري النوعي: ضمان الهيمنة الإقليمية

لا يقتصر الدعم الأمريكي على المال، بل يشمل أيضاً تزويد إسرائيل بأحدث وأقوى الأسلحة في الترسانة الأمريكية. تلتزم الولايات المتحدة قانوناً بضمان "التفوق العسكري النوعي" (Qualitative Military Edge) لإسرائيل، مما يعني أن إسرائيل يجب أن تكون قادرة على هزيمة أي تحالف محتمل من الدول العربية. [13]

لهذا السبب، حصلت إسرائيل على طائرات F-35 الشبح المتقدمة قبل أي حليف آخر للولايات المتحدة. ولديها إمكانية الوصول إلى أحدث تقنيات الاستخبارات والتجسس الأمريكية. كما تتعاون الدولتان بشكل وثيق في تطوير أنظمة الدفاع الصاروخي، مثل

"القبة الحديدية" و"مقلاع داوود". هذا الدعم العسكري هو الذي يسمح لإسرائيل بالحفاظ على احتلالها، وشن حروب مدمرة على جيرانها (مثل لبنان وغزة)، وتهديد إيران بضربة عسكرية، دون أي رادع حقيقي.

ج. الفيتو الدائم: الحصانة من العدالة الدولية

بالإضافة إلى الدعم المالي والعسكري، توفر الولايات المتحدة لإسرائيل غطاءً دبلوماسياً حيوياً في المحافل الدولية، وخاصة في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. منذ عام 1972، استخدمت الولايات المتحدة حق النقض (الفيتو) أكثر من 53 مرة لمنع صدور قرارات تدين إسرائيل أو تدعوها إلى الانسحاب من الأراضي المحتلة أو وقف بناء المستوطنات. [14]

هذا الاستخدام المفرط للفيتو جعل من مجلس الأمن هيئة مشلولة وعاجزة عن تطبيق القانون الدولي على إسرائيل. فقد خلق شعوراً لدى القادة الإسرائيليين بأنهم فوق القانون، وأنهم يستطيعون فعل ما يريدون دون أي عواقب. حيث أصبحت الولايات

المتحدة هي المحامي الدولي لإسرائيل، الذي يدافع عن جرائمها، ويضمن إفلاتها من العقاب. هذا الشيك الدبلوماسي على بياض لا يقل أهمية عن الشيك المالي والعسكري.

عقدة الذنب كأداة للابتزاز

العلاقة بين أمريكا وإسرائيل ليست مجرد علاقة مصالح، بل هي علاقة نفسية معقدة، مبنية على الابتزاز العاطفي واستغلال عقدة الذنب التاريخية. فقد أتقنت إسرائيل فن استخدام الهولوكوست كأداة للضغط على الغرب، وخاصة أمريكا، للحصول على ما تريد، ولإسكات أي نقد.

1. الهولوكوست كسلاح أيديولوجي:

تم تحويل ذكرى الهولوكوست، وهي مأساة إنسانية مروعة، إلى سلاح أيديولوجي في يد الدولة الإسرائيلية. يتم استخدامها لتبرير كل أفعال إسرائيل، من قمع الفلسطينيين إلى شن الحروب. السردية بسيطة وقوية: "لقد تخلى العالم عنا في الهولوكوست، لذلك لا يمكننا أن نثق بأحد، ويجب أن نكون أقوياء بما يكفي للدفاع عن أنفسنا بأي وسيلة ضرورية". [15]

هذه السردية تخلق ابتزازاً أخلاقياً فعالاً. فهي تقول للأمريكيين والأوروبيين: "أنتم مدينون لنا بسبب ما فعلتموه (أو لم تفعلوه) في الماضي. والطريقة الوحيدة لتكفير ذنبكم هي دعمنا بشكل غير مشروط اليوم". أي تردد في الدعم يتم تفسيره على أنه عودة لمعاداة السامية، ونذير بهولوكوست جديد. هذا الاستخدام الساخر لمعاناة الماضي يخلق شللاً أخلاقياً في الغرب، ويمنع أي تقييم عقلاني للسياسات الإسرائيلية الحالية.

2. علاقة اعتمادية مرضية (Codependency):

كما ذكرنا سابقاً، يمكن وصف العلاقة بين أمريكا وإسرائيل بأنها علاقة اعتمادية مرضية. أمريكا هي "الممكّن" (Enabler) الذي يوفر الدعم الذي يسمح لإسرائيل بالاستمرار في سلوكها المدمر (الاحتلال). وهي تفعل ذلك لأنها تحصل على فوائد نفسية (الشعور بالفضيلة وتكفير الذنب) وسياسية (دعم اللوبي والإنجيليين). [16]

إسرائيل هي "المدمن" الذي يعتمد على هذا الدعم للبقاء. هذا الإدمان على المساعدات الأمريكية جعل إسرائيل دولة ضعيفة وغير قادرة على الاعتماد على نفسها. لقد أعفاها

من ضرورة بناء اقتصاد حقيقي ومستدام، ومن ضرورة التوصل إلى سلام حقيقي مع جيرانها. فهي تعيش على جهاز دعم حياة أمريكي، وأي انقطاع لهذا الدعم سيهدد وجودها.

3. فقدان السيادة الأمريكية:

النتيجة النهائية لهذه العلاقة المرضية هي فقدان الولايات المتحدة لسيادتها في واحدة من أهم مناطق العالم. لقد أصبحت سياستها في الشرق الأوسط لا تخدم مصالح الشعب الأمريكي، بل مصالح دولة أجنبية. وتم اختطاف عملية صنع القرار من قبل لوبي قوي، وتحالف ديني أصولي، وابتزاز عاطفي فعال.

هذا الوضع لا يضر فقط بالفلسطينيين، بل يضر أيضاً بالمصالح الأمريكية. فهو يغذي الكراهية ضد أمريكا في العالم العربي والإسلامي، ويجعلها هدفاً للإرهاب. ويورطها في صراعات لا ناقة لها فيها ولا جمل. وكذلك يقوض مصداقيتها كـ"وسيط نزيه" في عملية السلام. أصبح الذيل الإسرائيلي هو الذي يهز الكلب الأمريكي، والكلب يبدو سعيداً بذلك، لأنه لا يجرؤ على مواجهة الحقيقة المرة: حقيقة أنه فقد السيطرة على نفسه. [17]

الراعي الذي أصبح رهينة

إن "العلاقة الخاصة" بين الولايات المتحدة وإسرائيل هي حجر الزاوية في بنية القوة في الشرق الأوسط. العلاقة التي تسمح لإسرائيل بالبقاء والتوسع، وتضمن هيمنتها العسكرية، وتحميها من أي مساءلة دولية. هذه العلاقة ليست مجرد تحالف استراتيجي، بل هي نتاج شبكة معقدة من العوامل:

اللوبي القاهر: هيمنة إيباك والمنظمات الموالية لإسرائيل على الكونغرس والسياسة الأمريكية، من خلال المال والترهيب وخنق النقاش.

التحالف المقدس: التحالف بين الصهاينة اليهود والمسيحيين الإنجيليين، الذين يرون في دعم إسرائيل واجباً دينياً وتحقيقاً لنبوءات نهاية الزمان.

الشيك المالي والعسكري: المساعدات الهائلة التي تتجاوز 318 مليار دولار، والتي تضمن التفوق العسكري النوعي لإسرائيل، وتجعلها قوة إقليمية ضاربة.

الفيتو الدبلوماسي: الاستخدام الروتيني لحق النقض في مجلس الأمن لتوفير حصانة كاملة لإسرائيل من القانون الدولي.

الابتزاز النفسي: الاستغلال الساخر للهولوكوست وعقدة الذنب الغربية لخلق شلل أخلاقي وابتزاز عاطفي مستمر.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: إلى متى يمكن لهذه العلاقة المرضية أن تستمر؟ وهل هناك أي أمل في أن تستعيد الولايات المتحدة سيادتها، وتتبنى سياسة أكثر عدلاً وعقلانية، تخدم مصالحها الحقيقية ومصالح السلام؟

بينما كانت إسرائيل تحكم قبضتها على واشنطن، كانت تعمل أيضاً على تحييد وتطويع خصم آخر: العالم العربي. فبعد عقود من المواجهة والحروب، بدأت الأنظمة العربية، واحدة تلو الأخرى، في الاستسلام للمشروع الصهيوني، والتطبيع معه، بل والتحالف معه في الخفاء. الفصل التالي، "من المقاومة إلى الاستسلام: كيف باعت الأنظمة العربية فلسطين"، سيتتبع هذه الرحلة المأساوية من الرفض القومي إلى الخيانة الرسمية. سنرى كيف تم تحويل جامعة الدول العربية إلى أداة لتمرير المشاريع الأمريكية والإسرائيلية، وكيف أصبحت بعض الأنظمة العربية شريكة في حصار الشعب

الفلسطيني، وكيف تم التخلي عن القضية الفلسطينية من اجل المصالح الضيقة للحكام المستبدين. قصة السقوط الأخلاقي والسياسي للعالم العربي الرسمي.

مراجع الفصل الرابع عشر:

- [1] Donovan, Robert J. *Conflict and Crisis*: *The Presidency of Harry S. Truman*, 1945-1948. University of Missouri Press, 1996. The confrontation between Truman and Marshall is a well-documented historical event.
- [2] The White House statement was issued at 6:11 p.m. on May 14, 1948.
- [3] Mearsheimer, John J., and Stephen M. Walt. *The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy*. Farrar, Straus and Giroux, 2007.
- [4] Findley, Paul. *They Dare to Speak Out*: *People and Institutions Confront Israel's Lobby*. Lawrence Hill Books, 1985.
- [5] The speech by Benjamin Netanyahu to the U.S. Congress took place on March 3, 2015.

- [6] Goldberg, J.J. *Jewish Power: Inside the American Jewish Establishment*. Addison-Wesley, 1996.
- [7] Sizer, Stephen. *Christian Zionism: Road-map to Armageddon*? Inter-Varsity Press, 2004.
- [8] Wagner, Donald E. *Anxious for Armageddon: A Call to Partnership for Middle Eastern and Western Christians*. Herald Press, 1995.
- [9] Website of Christians United for Israel (CUFI), cufi.org.
- [10] The role of Hagee and other evangelical leaders in the Jerusalem embassy move was widely reported in 2017-2018.
- [11] Sharp, Jeremy M. "U.S. Foreign Aid to Israel." Congressional Research Service, updated March 1, 2022. The inflation-adjusted figure is calculated based on this data.
- [12] Ibid.

- [13] The commitment to Israel's QME was codified in U.S. law in the Naval Vessel Transfer Act of 2008.
- [14] "Subjects of UN Security Council Vetoes." Dag Hammarskjöld Library, United Nations. Data is regularly updated.
- [15] Finkelstein, Norman G. *The Holocaust Industry: Reflections on the Exploitation of Jewish Suffering*. Verso, 2000.
- [16] The concept of codependency is applied here as an analytical framework to the U.S.-Israel relationship.
- [17] Mearsheimer and Walt, *The Israel Lobby*.

(١٥)

كيف باعت الأنظمة العربية فلسطين

زلزال في القدس

في التاسع من نوفمبر عام 1977، وقف الرئيس المصري أنور السادات أمام مجلس الشعب المصري، وألقى قنبلة سياسية هزت العالم العربي من المحيط إلى الخليج. قال بصوت هادئ ولكن بحسم: "إني مستعد أن أذهب إلى بيتهم، إلى الكنيست ذاته ومناقشتهم". في البداية، ظن الكثيرون أنها مجرد مناورة كلامية، أو زلة لسان. لم يصدق أحد أن زعيم أكبر دولة عربية، التي خاضت أربع حروب ضد إسرائيل، يمكن أن يفكر مجرد التفكير في زيارة القدس المحتلة والاعتراف بالدولة الصهيونية. [1]

ولكن بعد عشرة أيام فقط، في العشرين من نوفمبر، هبطت طائرة الرئيس المصري في مطار بن غوريون. كان مشهداً سريالياً، أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع. السادات،

بطل حرب أكتوبر الذي حطم أسطورة الجيش الذي لا يقهر، يصافح بحرارة رئيسة الوزراء الإسرائيلية غولدا مائير، والجنرال موشيه ديان، وأرييل شارون. ثم وقف في قلب الكنيست الإسرائيلي، ليعلن نهاية عصر الحروب، وبداية عصر "السلام".

كانت تلك اللحظة بمثابة زلزال، ليس فقط لأنه كسر حاجزاً نفسياً وسياسياً استمر ثلاثين عاماً، بل لأنه كشف عن شرخ عميق في الروح العربية. كانت تلك الزيارة هي الإعلان الرسمي عن وفاة المشروع القومي العربي، الذي كان يرفع راية تحرير فلسطين. وكانت هي اللحظة التي بدأ فيها مسار طويل ومؤلم من التنازلات، والتراجعات، والخيبات، الذي حول الأنظمة العربية من عدو لدود لإسرائيل إلى شريك صامت، ثم إلى حليف علني.

هذا الفصل سيتتبع مسار هذا السقوط المأساوي. سنعود إلى حروب 1948 و1967، عندما كانت الجيوش العربية، رغم هزائمها، لا تزال تحمل حلماً بتحرير فلسطين. ثم سنرى كيف أدت هزيمة 1967 ووفاة جمال عبد الناصر إلى انهيار هذا الحلم، وصعود أنظمة واقعية وبراغماتية، ترى في القضية الفلسطينية عبئاً وليس قضية مركزية. سنحلل مبادرة

السلام العربية عام 2002، التي كانت في جوهرها عرضاً للاستسلام الجماعي. وأخيراً، سنصل إلى "اتفاقيات أبراهام" عام 2020، التي لم تكن مجرد تطبيع، بل كانت تحالفاً استراتيجياً بين بعض دول الخليج وإسرائيل، موجهاً ضد إيران، وضد ما تبقى من الحقوق الفلسطينية.

قصة تحول مؤلمة، من أمة كانت تحلم بأن تكون "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة"، إلى مجموعة من الدول القطرية المتناحرة، التي باعت قضيتها المركزية مقابل حماية عروشها، ورضا سيدها الأمريكي. قصة تحكي كيف أصبح العدو صديقاً، والأخ الفلسطيني غريباً ومنبوذاً. إنها قصة الخيانة الكبرى.

الحروب العربية الإسرائيلية

لم يكن الموقف العربي تجاه إسرائيل دائماً موقف ضعف واستسلام. في العقود الثلاثة الأولى بعد النكبة، كانت فكرة "تحرير فلسطين" هي الفكرة المركزية التي تحرك الجماهير والأنظمة العربية على حد سواء. فقد خاض العرب أربع حروب رئيسية ضد إسرائيل، كانت كل منها محطة في رحلة طويلة من الأمل إلى اليأس.

أ. حرب 1948: النكبة وبداية الصراع

عندما أعلنت إسرائيل قيام دولتها على 78% من أرض فلسطين التاريخية، تدخلت جيوش سبع دول عربية (مصر، وسوريا، والأردن، ولبنان، والعراق، والسعودية، واليمن) لمنع ذلك. ورغم أن هذه الجيوش كانت تعاني من ضعف التنسيق والتسليح، إلا أنها كانت مدفوعة بزخم شعبي هائل، وإيمان بأنها تخوض معركة مقدسة للدفاع عن شرف الأمة. [2]

لكن الحرب انتهت بهزيمة عربية مدوية، أو ما يعرف بـ "النكبة". فقد تمكنت الميليشيات الصهيونية، التي كانت أفضل تنظيماً وتسليحاً، من السيطرة على المزيد من الأراضي، وتشريد أكثر من 750,000 فلسطيني. كشفت هذه الحرب عن الضعف البنيوي للأنظمة العربية الملكية، ومهدت الطريق لسلسلة من الانقلابات العسكرية التي أوصلت جيلاً جديداً من القادة القوميين إلى السلطة، وعلى رأسهم جمال عبد الناصر في مصر. [3]

ب. حرب 1967: النكسة التي قصمت الظهر

كانت حرب الأيام الستة عام 1967 هي الضربة القاصمة للمشروع القومي العربي. في غضون أيام قليلة، تمكنت إسرائيل من تدمير جيوش مصر وسوريا والأردن، واحتلت ما تبقى من فلسطين (الضفة الغربية وقطاع غزة)، بالإضافة إلى شبه جزيرة سيناء المصرية وهضبة الجولان السورية. كانت هزيمة نكراء، ليس فقط بالمعنى العسكري، بل بالمعنى النفسي والسياسي. [4]

حطمت "النكسة" صورة الزعيم الكاريزمي جمال عبد الناصر، وكشفت عن خواء الخطاب القومي العربي. لقد شعر العرب بإذلال عميق، وبدأ الشك يتسرب إلى قدرتهم على مواجهة إسرائيل. ورغم أن جامعة الدول العربية، في قمة الخرطوم الشهيرة بعد الحرب، أعلنت "اللاءات الثلاث" (لا صلح، لا اعتراف، لا تفاوض)، إلا أن هذه اللاءات كانت تخفي حقيقة مرة: أن الخيار العسكري قد وصل إلى طريق مسدود. [5]

ج. حرب 1973: نصر تكتيكي وهزيمة استراتيجية

جاءت حرب أكتوبر (أو يوم الغفران) عام 1973 لترد بعض الاعتبار للجيوش العربية. ففي هجوم مفاجئ ومنسق، تمكنت القوات المصرية من عبور قناة السويس وتدمير خط بارليف، وتمكنت القوات السورية من التوغل في هضبة الجولان. حطمت هذه الحرب أسطورة "الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر"، وأثبتت أن العرب قادرون على القتال والتخطيط والتضحية. [6]

في ظهيرة يوم السبت، السادس من أكتوبر 1973، وبينما كانت إسرائيل بأكملها في حالة سبات بسبب يوم الغفران المقدس، انفجرت الجبهتان المصرية والسورية في وقت واحد. كان التخطيط سرياً ومحكماً لدرجة أن إسرائيل، التي طالما نخرت بأجهزتها الاستخباراتية، لم تتوقع شيئاً. فقد أمضى الرئيس المصري أنور السادات والرئيس السوري حافظ الأسد شهوراً في التحضير لهذه اللحظة، مستخدمين كل وسائل التمويه والخداع. كان السادات يتحدث علناً عن السلام والحلول الدبلوماسية، بينما كان جيشه يستعد للحرب في صمت. وكانت غولدا مائير، رئيسة وزراء إسرائيل، واثقة من أن العرب لن يجرؤوا على شن هجوم قبل عشر سنوات على الأقل. لكنها كانت مخطئة.

في الساعة الثانية وخمس دقائق ظهراً، انطلقت 240 طائرة مصرية تقصف المواقع الإسرائيلية في سيناء، بينما دوت أصوات المدفعية على طول قناة السويس. وفي الوقت نفسه، اندفعت 32,000 جندي مصري عبر القناة في قوارب مطاطية، تحت غطاء نيران كثيف. المهمة المستحيلة كانت اختراق "خط بارليف"، وهو سلسلة من التحصينات الضخمة التي بنتها إسرائيل على الضفة الشرقية للقناة، والتي كانت تُعتبر "منيعة". لكن المهندسين المصريين كانوا قد ابتكروا حلاً عبقرياً: استخدام خراطيم المياه عالية الضغط لتدمير السواتر الترابية الضخمة. في غضون ست ساعات فقط، عبر الجيش المصري القناة، واخترق خط بارليف، ورفع العلم المصري على الضفة الشرقية. كان مشهداً لم يتخيله أحد بعد هزيمة 1967: الجنود المصريون يهتفون "الله أكبر!" وهم يزيلون العلم الإسرائيلي ويرفعون مكانه علم مصر.

وعلى الجبهة الشمالية، كان المشهد لا يقل دراماتيكية. اندفعت 1,400 دبابة سورية باتجاه هضبة الجولان، محطمة الدفاعات الإسرائيلية، ومتقدمة عشرين كيلومتراً داخل الأراضي المحتلة. كانت الخطة السورية تهدف إلى استعادة القنيطرة، المدينة التي احتلتها إسرائيل عام 1967، وكان التقدم سريعاً ومفاجئاً. في تل أبيب، كانت الصدمة كبيرة. فللمرة الأولى منذ 1948، شعرت إسرائيل بأنها في خطر وجودي حقيقي. تحدث

موشيه ديان، وزير الدفاع ورمز الانتصار في 1967، عن "خطر سقوط إسرائيل"، وهو تصريح صادم من رجل كان يُعتبر الأسطورة العسكرية للدولة العبرية.

في العالم العربي، كان الفرح عارماً. في شوارع القاهرة ودمشق وبغداد والرباط، خرجت الجماهير تحتفل بما بدا وكأنه معجزة. "أخيراً! كسرنا أسطورة الجيش الذي لا يُقهر!" كانت العبارة التي تتردد في كل مكان. حتى أولئك الذين شكوا في قدرة العرب على القتال، وجدوا أنفسهم يبكون من الفرح. كان الانتصار، في أيامه الأولى، بمثابة انتقام للكرامة المهدورة في 1967، وإثباتاً على أن العرب قادرون على التخطيط والقتال والتضحية. وللمرة الأولى في تاريخ الصراع، استُخدم السلاح النفطي بفعالية. ففي السابع عشر من أكتوبر، أعلنت الدول العربية المنتجة للنفط حظراً نفطياً على الدول التي تدعم إسرائيل. ارتفعت أسعار النفط بنسبة 400%، ودخلت الدول الغربية في أزمة طاقة خانقة. بدا وكأن العرب، أخيراً، يملكون ورقة ضغط حقيقية.

لكن النشوة لم تدم طويلاً. فبعد الصدمة الأولى، بدأت إسرائيل في تعبئة قواتها الاحتياطية، واستعادة توازنها. وهنا تدخل الدعم الأمريكي غير المحدود. في الأيام ما بين 10 و13 أكتوبر، وبينما كانت إسرائيل تعاني من نقص حاد في الذخيرة والمعدات، اتصلت غولدا مائير بالرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، وقالت له بوضوح: "إما أن

تنقذونا، أو سنضطر لاستخدام السلاح النووي." كان التهديد واضحاً، ولم يكن لدى نيكسون خيار. فأمر بإطلاق عملية "Nickel Grass" ، وهي أضخم جسر جوي في التاريخ. على مدى أسابيع، هبطت الطائرات الأمريكية العملاقة من طراز C-5 و-C 141في قواعد إسرائيلية كل خمس عشرة دقيقة، محملة بأكثر من 22,000 طن من الأسلحة الأمريكية الحديثة: دباباتM60 ، وصواريخ TOW المضادة للدبابات، وقنابل ذكية، وطائرات F-4 Phantom جديدة من المصنع مباشرة. كان الأمر وكأن الولايات المتحدة نفسها دخلت الحرب ضد العرب.

في المقابل، كان الدعم السوفيتي للعرب أقل حماساً وأكثر حذراً. فرغم أن موسكو أرسلت أسلحة إلى مصر وسوريا، إلا أنها كانت حريصة على عدم استفزاز واشنطن، وتجنب تصعيد قد يقود إلى مواجهة مباشرة بين القوتين العظميين. الفارق كان واضحاً: أمريكا ملتزمة تماماً ببقاء إسرائيل، بينما الاتحاد السوفيتي يدعم العرب بحذر وتحفظ. وبحلول الخامس عشر من أكتوبر، كانت إسرائيل قد استعادت قوتها بالكامل، بل إنها أصبحت تملك أسلحة أكثر مما بدأت به الحرب. كان الميزان قد انقلب.

ثم جاءت اللحظة الفارقة. في ليلة الخامس عشر والسادس عشر من أكتوبر، نفذ الجنرال أرييل شارون، المعروف بجرأته وعدوانيته، عملية عسكرية محفوفة بالمخاطر. عبر بقواته

قناة السويس، لكن هذه المرة إلى الغرب، إلى الجانب المصري. استغل شارون ثغرة ضيقة بين جيشين مصريين، وتوسع فيها بسرعة. كانت الخطة جريئة ومحفوفة بالمخاطر، لكنها نجحت. في غضون أيام، تمكن الجيش الإسرائيلي من تطويق الجيش الثالث المصري بأكمله، وهو قوة قوامها 45,000 جندي، وقطع خطوط إمدادهم. أصبح الجنود المصريون محاصرين في الصحراء، بلا ماء ولا طعام ولا ذخيرة. والأسوأ من ذلك، أن القوات الإسرائيلية اقتربت من القاهرة، ووصلت إلى مسافة 101 كيلومتر فقط من العاصمة المصرية. النصر الذي بدا ساحقاً قبل أيام، تحول فجأة إلى كابوس.

كانت اللحظة حرجة للغاية، وكادت أن تتحول إلى كارثة إقليمية، بل وعالمية. فقد هدد الاتحاد السوفيتي بإرسال قوات عسكرية مباشرة لإنقاذ الجيش المصري المحاصر. ورداً على ذلك، وضع نيكسون القوات الأمريكية في حالة تأهب نووي(DEFCON 3) ، وهي المرة الأولى منذ أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962 التي يتم فيها اللجوء إلى هذا المستوى من الاستنفار. العالم كان على حافة حرب عالمية ثالثة، وكان الحل الوحيد هو وقف إطلاق النار فوراً. وهذا ما حدث. في الثاني والعشرين من أكتوبر، أصدر مجلس الأمن الدولي القرار 338، الذي دعا إلى وقف فوري للقتال. توقفت الحرب، لكن

الجيش الثالث المصري ظل محاصراً. استغرق الأمر أسابيع من المفاوضات الشاقة، عُرفت باسم "اتفاقيات الكيلو 101"، حتى تم فك الحصار وتبادل الأسرى.

كانت حرب 1973 هي آخر الحروب العربية الكبرى ضد إسرائيل. وكانت هي الرقصة الأخيرة للمشروع القومي العربي. فقد حطمت هذه الحرب أسطورة "الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر"، وأثبتت أن العرب قادرون على القتال والتخطيط والتضحية. لكن هذا النصر التكتيكي تحول في النهاية إلى هزيمة استراتيجية. فبعد امتصاص الصدمة الأولى، وبفضل جسر جوي أمريكي، تمكن الجيش الإسرائيلي من شن هجوم مضاد، وتطويق الجيش الثالث المصري، والوصول إلى مسافة 101 كيلومتر من القاهرة. وصلت الحرب إلى طريق مسدود، وفتحت الباب أمام الدبلوماسية الأمريكية، التي كانت تهدف إلى إخراج مصر من الصراع، وتكريس هيمنة إسرائيل.

السؤال الذي تردد بعد الحرب كان: من انتصر حقاً؟ العرب قالوا إنهم انتصروا، لأنهم عبروا القناة، ودمروا خط بارليف، وحطموا الأسطورة الإسرائيلية. وإسرائيل قالت إنها انتصرت، لأنها طوقت الجيش المصري، ووصلت إلى أبواب القاهرة، وأنهت الحرب في وضع أقوى مما بدأت به. لكن الحقيقة الأكثر دقة هي أن الحرب كانت نصراً نفسياً للعرب، لكنها هزيمة استراتيجية. فقد استعاد العرب بعض كرامتهم وثقتهم بأنفسهم،

لكنهم أدركوا أيضاً أن الطريق العسكري وصل إلى نهايته. مصر، التي كان جيشها محاصراً، واقتصادها منهاراً، لم يعد بإمكانها تحمل حرباً أخرى. والأهم من ذلك، أن الحرب أثبتت أن إسرائيل، مهما تعرضت للهزيمة في البداية، ستجد دائماً من ينقذها: الولايات المتحدة الأمريكية.

هنا تعلم السادات الدرس الذي سيشكل مستقبل المنطقة: "الحرب لا تسترجع الأرض، السلام يسترجعها. وأمريكا، وليس موسكو، هي التي تملك 99% من أوراق الحل."

وهذا القناعة، التي ولدت من رحم حرب 1973، كانت هي البذرة التي نمت لتصبح كامب ديفيد، وخروج مصر من الصراع، وبداية الانهيار الكبير للمشروع القومي العربي. بعدها، بدأ عصر جديد: عصر "السلام" المنفرد، والتطبيع التدريجي، والتخلي عن فلسطين.

موت المشروع القومي: من السادات إلى مبادرة السلام

وفاة جمال عبد الناصر عام 1970 لم تكن مجرد وفاة لرجل، بل كانت وفاة لمشروع. كان ناصر هو الرمز الأكبر للقومية العربية، ولحلم الوحدة والتحرير. وبعد رحيله، بدأ هذا الحلم في التلاشي، وحل محله واقع جديد، أكثر قتامة وبراغماتية.

أ. السادات و"السلام" المنفرد: الخروج من التاريخ

كان أنور السادات هو مهندس هذا التحول. لقد أدرك السادات، بعد حرب 1973، أن مصر لا تستطيع تحمل عبء الصراع إلى الأبد. لذلك قرر أن مصلحة مصر تقتضي الخروج من الصراع، والتحالف مع الولايات المتحدة، والحصول على المساعدات الاقتصادية والعسكرية. كانت رؤية براغماتية، لكنها كانت أيضاً أنانية وقصيرة النظر. [7]

أدت زيارة السادات للقدس واتفاقيات كامب ديفيد عام 1978 إلى إخراج أكبر وأقوى دولة عربية من معادلة الصراع. كان ذلك بمثابة طعنة في ظهر القضية الفلسطينية، وفي ظهر العالم العربي. علي اثر ذلك تم تجميد عضوية مصر في جامعة الدول العربية، ونقل مقرها من القاهرة إلى تونس. وأصبح السادات بطلاً في نظر الغرب، وخائناً في العالم العربي. وفي عام 1981، دفع حياته ثمناً لـ "السلام الشجاع" (الوصف الذي استُخدم في الغرب (خاصة في الولايات المتحدة وأوروبا) لاتفاقية السلام التي عقدها أنور السادات مع إسرائيل بعد زيارته للقدس وتوقيعه على اتفاقيات كامب

ديفيد)، عندما اغتاله الجماعات الإسلامية المعارضة لاتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل، خلال عرض عسكري.

ب. جامعة الدول العربية: من أداة للتحرير إلى نادي للحكام

كانت جامعة الدول العربية، التي تأسست عام 1945، هي الإطار الذي يفترض أن يجسد العمل العربي المشترك. وفي سنواتها الأولى، لعبت دوراً (محدوداً) في تنسيق المواقف العربية تجاه قضية فلسطين. لكن بعد خروج مصر، تحولت الجامعة تدريجياً إلى هيئة شكلية، لا حول لها ولا قوة. [8]

أصبحت الجامعة مجرد نادٍ للحكام العرب، يجتمعون فيه لإصدار بيانات الشجب والاستنكار، دون أن يكون لكلماتهم أي أثر على أرض الواقع. فقط أداة لتمرير الإرادة السعودية والخليجية، التي كانت تتماهى بشكل متزايد مع الإرادة الأمريكية. فقد فشلت الجامعة في منع الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982، وفشلت في وقف بناء المستوطنات، وفشلت ايضاً في حماية الفلسطينيين من القمع. وأصبحت شاهداً على موت التضامن العربي.

ج. مبادرة السلام العربية (2002): استسلام جماعي مقنع

في عام 2002، وفي خضم الانتفاضة الفلسطينية الثانية، أطلقت المملكة العربية السعودية، من قمة بيروت العربية، ما عرف بـ "مبادرة السلام العربية". كانت المبادرة تقترح تطبيعاً كاملاً للعلاقات بين جميع الدول العربية وإسرائيل، مقابل انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي المحتلة عام 1967، وإقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس الشرقية، وإيجاد حل "عادل" لمشكلة اللاجئين. [9]

للوهلة الأولى، بدت المبادرة وكأنها عرض سخي ومنطقي. لكنها في جوهرها كانت بمثابة استسلام جماعي. فبعد أكثر من خمسين عاماً من الصراع، كان العرب يعرضون على إسرائيل كل شيء (الاعتراف والتطبيع والسلام) مقابل الحد الأدنى من الحقوق الفلسطينية. كانت المبادرة تتويجاً لمسار طويل من التنازلات، واعترافاً ضمنياً بالهزيمة.

والأكثر دلالة هو أن إسرائيل، حتى هذا العرض السخي، رفضته بازدراء. بل تجاهله رئيس الوزراء آنذاك، أرييل شارون، واعتبره "غير قابل للتطبيق". فقد كانت إسرائيل،

المدعومة من الولايات المتحدة، تشعر بأنها ليست بحاجة إلى تقديم أي تنازلات. كانت تريد الأرض والسلام معاً، دون أن تدفع أي ثمن. وهذا الرفض الإسرائيلي كشف عن حقيقة مرة: أن المشكلة لم تكن في "التعنت العربي"، بل في الغطرسة الإسرائيلية، التي لا ترى في العرب شريكاً، بل مجرد مجموعة من المهزومين الذين يمكن إملاء الشروط عليهم.

الخيانة الكبرى واتفاقيات أبراهام وما بعدها

إذا كانت مبادرة السلام العربية هي الاستسلام المقنع، فإن "اتفاقيات أبراهام" التي تم توقيعها في عام 2020 كانت هي الخيانة العلنية والفاضحة. لأول مرة في تاريخ الصراع، قامت دول عربية (الإمارات والبحرين، ثم تبعتهما السودان والمغرب) بتطبيع علاقاتها مع إسرائيل دون أي مقابل للفلسطينيين، بل وفي سياق تحالف استراتيجي موجه ضد قوى إقليمية أخرى.

أ. محمد بن زايد و"السلام" الجديد: تحالف المصالح ضد المبادئ

كان مهندس هذه الاتفاقيات هو ولي عهد أبوظبي (الذي أصبح رئيساً فيما بعد) محمد بن زايد. كان بن زايد يمثل جيلاً جديداً من القادة الخليجيين، الذين لا يشعرون بأي

ارتباط عاطفي أو أيديولوجي بالقضية الفلسطينية. بل يرون في إسرائيل شريكاً طبيعياً في مواجهة "الخطر" الإيراني، ومصدراً للتكنولوجيا المتقدمة والخبرات الأمنية. [10]

تم تسويق اتفاقيات أبراهام على أنها "اختراق تاريخي من أجل السلام". لكنها في الواقع كانت صفقة تجارية وأمنية، تم فيها مقايضة القضية الفلسطينية بمصالح اقتصادية واستراتيجية ضيقة. وادعت الإمارات أنها وقعت الاتفاق مقابل تعليق إسرائيل لخططها لضم أجزاء من الضفة الغربية. لكن رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو سارع إلى نفي ذلك، وأكد أن الضم لا يزال على الطاولة. وكانت هذه مجرد ورقة توت لتغطية عورة الخيانة. [11]

ب. من "عدو الأمة" إلى "ابن العم": تغيير الخطاب

رافق اتفاقيات أبراهام تغيير جذري في الخطاب الإعلامي والسياسي في دول الخليج. فبعد أن كانت إسرائيل توصف بـ "العدو الصهيوني" و"الكيان الغاصب"، أصبحت فجأة "دولة صديقة" و"شريك في السلام". وأصبح الفلسطينيون، الذين كانوا "أشقاء"

و"أصحاب قضية عادلة"، يوصفون بأنهم "جاحدون" و"فاسدون" و"عقبة في طريق السلام".

تم تجنيد جيش من الإعلاميين والمثقفين (أو ما يعرف بـ "الذباب الإلكتروني") لتبرير التطبيع، ومهاجمة كل من يعارضه. وتم الترويج لسردية جديدة تقول إن القضية الفلسطينية ليست قضية العرب، وأن على الفلسطينيين أن "يحلوا مشاكلهم بأنفسهم". كان ذلك محاولة لغسل أدمغة الجماهير العربية، وتجريدها من وعيها وهويتها، وجعلها تتقبل ما كان يعتبر خيانة عظمى. [12]

ج. مقارنة صادمة: 1948 مقابل 2023

المقارنة بين الموقف العربي في عام 1948 والموقف العربي في عام 2023 هي مقارنة مؤلمة وصادمة. في عام 1948، وبرغم ضعف الدول العربية، هبت سبع دول عربية لنجدة فلسطين، وخاضت حرباً من أجلها. أما في عام 2023، فإن بعض أغنى وأقوى الدول العربية تتسابق للتطبيع مع إسرائيل، وتتحالف معها، وتشارك في حصار الفلسطينيين، وتعتبر حركات المقاومة الفلسطينية "منظمات إرهابية".

هذا التحول المأساوي يلخص قصة انهيار الأمة. ويوضح كيف تم استبدال المبادئ بالمصالح، والكرامة بالبراغماتية، والوحدة بالانقسام. لقد تحولت الأنظمة العربية من حامٍ (ولو فاشل) للقضية الفلسطينية، إلى حارس للسجن الإسرائيلي الكبير. وأصبحوا جزءاً من المشكلة، وليس جزءاً من الحل.

العام	الحدث الرئيسي	دلالته
1948	7 دول عربية تحارب إسرائيل	ذروة التضامن القومي (رغم الهزيمة)
1967	هزيمة ساحقة للعرب واحتلال باقي فلسطين	بداية انهيار المشروع القومي
1977	زيارة السادات للقدس	أول خرق لجدار الرفض العربي
2002	مبادرة السلام العربية	عرض الاستسلام الجماعي

العام	الحدث الرئيسي	دلالته
2020	اتفاقيات أبراهام	الخيانة العلنية والتحالف مع العدو

سيكولوجية الهزيمة والاستبداد

إن مسار الانهيار العربي لا يمكن تفسيره فقط بالعوامل السياسية والعسكرية. فهناك أبعاد نفسية عميقة تتعلق بسيكولوجية الهزيمة، وطبيعة الأنظمة الاستبدادية التي تحكم العالم العربي.

1. متلازمة ستوكهولم السياسية:

يمكن وصف علاقة بعض الأنظمة العربية بإسرائيل بأنها شكل من أشكال "متلازمة ستوكهولم" السياسية. في هذه المتلازمة، يتعاطف الرهينة مع خاطفه، بل ويدافع عنه. لقد تعرضت الأنظمة العربية لهزائم متكررة على يد إسرائيل. وبدلاً من الاستمرار في

المقاومة، بدأ بعضها في تبني وجهة نظر المنتصر، والتماهي معه. وأصبحوا يعتقدون أن إسرائيل قوية جداً، وأن لا فائدة من مقاومتها، وأن السبيل الوحيد للنجاة هو التحالف معها. [13]

هذا التعاطف مع الجلاد هو آلية دفاع نفسي للتعامل مع الشعور بالعجز والإذلال. فإذا لم أستطع هزيمته، فربما يمكنني الانضمام إليه. هذا يفسر لماذا أصبح بعض القادة العرب يتحدثون بإعجاب عن "قوة" إسرائيل و"تقدمها"، بينما يوجهون اللوم لشعبهم وللفلسطينيين على "تخلفهم" و"عنادهم".

2. الاستبداد والخوف من الشعوب:

إن العامل الأهم الذي يفسر خيانة الأنظمة العربية هو طبيعتها الاستبدادية. فهذه الأنظمة لا تستمد شرعيتها من شعوبها، بل من الدعم الخارجي (الأمريكي)، ومن قدرتها على قمع أي معارضة داخلية. لذلك، فإن هذه الأنظمة تخاف من شعوبها أكثر مما تخاف من إسرائيل. [14]

إن القضية الفلسطينية، بما تحمله من رمزية للتحرر والكرامة والمقاومة، تشكل تهديداً وجودياً لهذه الأنظمة. فهي تذكر الشعوب العربية بإمكانية الثورة ضد الظلم، سواء كان هذا الظلم خارجياً (الاحتلال الإسرائيلي) أو داخلياً (الاستبداد المحلي). لذلك، فإن التخلي عن فلسطين، والتحالف مع إسرائيل، هو وسيلة لهذه الأنظمة لقتل هذه الروح الثورية، ولإرسال رسالة لشعوبها بأن المقاومة غير مجدية، وأن عليهم أن يقبلوا بالوضع الراهن.

التحالف مع إسرائيل هو أيضاً وسيلة للحصول على رضا الولايات المتحدة، والتي هي الضامن الرئيسي لبقاء هذه الأنظمة. ووسيلة للحصول على التكنولوجيا والخبرات الأمنية الإسرائيلية، التي يمكن استخدامها لقمع الشعوب بشكل أكثر فعالية. وصفقة بين المستبدين: المستبد الإسرائيلي الذي يحتل أرضاً أجنبية، والمستبدون العرب الذين يحتلون شعوبهم. [15]

3. فقدان البوصلة الأخلاقية:

أدى هذا المسار الطويل من الهزائم والاستبداد إلى فقدان البوصلة الأخلاقية لدى النخب الحاكمة العربية. لقد تم استبدال لغة المبادئ والقيم بلغة المصالح والصفقات. لم يعد هناك حديث عن "الحق" و"العدل" و"الكرامة"، بل عن "الاستقرار" و"الازدهار" و"التهديدات المشتركة".

أصبح من الطبيعي أن يتحالف زعيم عربي مع رئيس وزراء إسرائيلي متطرف، وأن يبتسم له ويصافحه، بينما يتم قصف غزة أو اقتحام الأقصى. وأصبح من الطبيعي أن يتم تجريم المقاومة، وتخوين من يدعمها. وتم تطبيع الخيانة، حتى أصبحت هي السياسة الرسمية. وهذا هو الخطر الأكبر، لأنه لا يدمر فقط القضية الفلسطينية، بل يدمر الروح الأخلاقية للأمة بأكملها.

السقوط من القومية إلى القطرية

يروي هذا الفصل قصة السقوط المأساوي للعالم العربي، من حلم الوحدة والتحرير إلى واقع الانقسام والاستسلام. لقد كان مساراً طويلاً ومؤلماً، يمكن تلخيصه في المحطات التالية:

عصر الحروب (1948-1973): مرحلة المواجهة العسكرية، التي بدأت بحلم التحرير، وانتهت بكابوس الهزيمة، وكشفت عن الضعف البنيوي للأنظمة العربية.

السلام المنفرد (1977-1979): خروج مصر من الصراع، الذي شكل طعنة للمشروع القومي، وفتح الباب أمام مسار التنازلات.

الاستسلام الجماعي (2002): مبادرة السلام العربية، التي كانت بمثابة عرض للتطبيع الكامل مقابل الحد الأدنى من الحقوق الفلسطينية، والتي رفضتها إسرائيل بازدراء.

الخيانة العلنية (2020-الآن): اتفاقيات أبراهام، التي حولت بعض الدول العربية إلى حلفاء استراتيجيين لإسرائيل، وشركاء في حصار الفلسطينيين.

الأسباب العميقة: سيكولوجية الهزيمة، وطبيعة الأنظمة الاستبدادية التي تخاف من شعوبها أكثر من أعدائها، والتي ترى في التحالف مع إسرائيل وأمريكا ضمانة لبقائها.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: هل هذا هو الفصل الأخير من القصة؟ هل استسلم العالم العربي نهائياً للمشروع الصهيوني؟ أم أن هناك إمكانية لنهضة جديدة

تأتي من الشعوب وليس من الأنظمة، وتعيد الاعتبار للقضية الفلسطينية كقضية مركزية للأمة؟

في خضم هذا الانهيار العربي الرسمي، وفي ظل الاحتلال الإسرائيلي الذي يزداد وحشية، وفي ظل الدعم الأمريكي غير المشروط، ماذا بقي للفلسطينيين؟ لقد تُركوا وحدهم في الميدان، ليواجهوا مصيرهم. لكنهم لم يستسلموا. بل طوروا أشكالاً مختلفة من المقاومة، من الانتفاضة الشعبية إلى العمل المسلح، ومن المقاطعة الاقتصادية إلى النضال القانوني. الفصل التالي، "المقاومة تحت الاحتلال: من الحجر إلى الصاروخ"، سيروي قصة صمود الشعب الفلسطيني. سنرى كيف تمكن هذا الشعب، رغم كل الظروف المستحيلة، من إبقاء شعلة المقاومة متقدة، ومنع المشروع الصهيوني من تحقيق انتصاره النهائي. قصة شعب يرفض أن يموت، ويصر على أن الحرية، مهما طال الزمن، آتية لا ريب فيها.

مراجع الفصل الخامس عشر:

- [1] The speech by Anwar Sadat to the Egyptian People's Assembly was on November 9, 1977. His visit to Jerusalem was on November 19-21, 1977.
- [2] Morris, Benny. 1948: *A History of the First Arab-Israeli War*. Yale University Press, 2008.
- [3] Shlaim, Avi. *The Iron Wall*: *Israel and the Arab World*. W. W. Norton & Company, 2001.
- [4] Oren, Michael B. *Six Days of War*: *June* 1967 *and the Making of the Modern Middle East*. Oxford University Press, 2002.
- [5] The Khartoum Resolution was adopted at the Arab League summit on September 1, 1967.

- [6] Rabinovich, Abraham. *The Yom Kippur War: The Epic Encounter That Transformed the Middle East*. Schocken Books, 2004.
- [7] Quandt, William B. *Camp David: Peacemaking and Politics*. Brookings Institution Press, 1986.
- [8] Podeh, Elie. *The Decline of Arab Unity: The Rise and Fall of the United Arab Republic*. Sussex Academic Press, 2014.
- [9] The Arab Peace Initiative was adopted at the Beirut Summit on March 28, 2002.
- [10] The role of Mohammed bin Zayed in the Abraham Accords is detailed in numerous journalistic accounts, such as Barak Ravid's book *Trump's Peace: The Abraham Accords and the Reshaping of the Middle East* (2021).
- [11] Ibid.

- [12] The shift in Gulf media discourse has been analyzed by organizations like the Arab Center for Research and Policy Studies.
- [13] The concept of Stockholm Syndrome is a psychological term. Its application here is an analytical analogy.
- [14] Lynch, Marc. *The New Arab Wars: Uprisings and Anarchy in the Middle East*. PublicAffairs, 2016.
- [15] Heydemann, Steven, and Reinoud Leenders. *Middle East Authoritarianism: Governance, Contestation, and Regime Resilience in Syria and Iran*. Stanford University Press, 2013. This work discusses the logic of authoritarian survival.

(١٦)

مختبر غزة - من ضحايا الجيتو إلى صانعيه

أكبر سجن مفتوح في العالم

في تاريخ البشرية، هناك أماكن تصبح رموزاً للمعاناة والظلم. في القرن العشرين، كان "جيتو وارسو" هو الرمز الأبرز. كان الجيتو حياً صغيراً ومكتظاً في العاصمة البولندية، حشر فيه النازيون مئات الآلاف من اليهود، وعزلوهم عن العالم بجدار عالٍ، وتركوه ليموتوا ببطء بسبب الجوع والمرض، قبل أن يتم إرسالهم إلى معسكرات الإبادة. لقد كان جيتو وارسو هو النموذج الأولي للجحيم على الأرض. [1]

في القرن الحادي والعشرين، أصبح هناك رمز جديد، ومفارقة تاريخية مؤلمة. هذا الرمز هو قطاع غزة. قطعة أرض صغيرة ومكتظة، يعيش فيها أكثر من مليوني فلسطيني، محاصرون من كل الجهات، براً وبحراً وجواً، من قبل دولة أسسها الناجون من جيتو

وارسو وأحفادهم. لقد تحولت غزة إلى "أكبر سجن مفتوح في العالم"، وهو وصف لم يطلقه أعداء إسرائيل، بل أطلقه رئيس الوزراء البريطاني المحافظ ديفيد كاميرون. [2]

قصة غزة هي القصة الأكثر تطرفاً ومأساوية في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. قصة كيف يمكن للضحية أن تتحول إلى جلاد، وكيف يمكن لمن عانى من الظلم أن يمارس ظلماً أشد قسوة. قصة كيف قامت إسرائيل، بشكل منهجي ومتعمد، بتحويل قطاع غزة إلى مختبر لتجربة أحدث أساليب السيطرة والقمع والتكنولوجيا العسكرية، وإلى مكب للنفايات البشرية التي لا تريد رؤيتها.

هذا الفصل سيغوص في جحيم غزة. سنقتفي أثر تحولها من منطقة فلسطينية نابضة بالحياة إلى سجن كبير. سنحلل الحصار الخانق الذي فرضته إسرائيل منذ عام 2007، والذي دمر اقتصادها، وشل مجتمعها، وخلق أزمة إنسانية كارثية. سنتحدث عن الحروب المتكررة التي شنتها إسرائيل على القطاع، والتي أطلقت عليها أسماء مثل "الرصاص المصبوب" و"الجرف الصامد"، والتي لم تكن حروباً، بل كانت عمليات "جز العشب"، أي عقاباً جماعياً وتدميراً ممنهجاً للبنية التحتية وللحياة نفسها. [3]

وسنحلل البعد النفسي لهذه المأساة. كيف يمكن لمجتمع يدعي أنه "الجيش الأكثر أخلاقية في العالم" أن يفرض حصاراً على مليوني إنسان، نصفهم من الأطفال؟ كيف يمكن لطيارين إسرائيليين، أحفاد الناجين من الهولوكوست، أن يلقوا قنابل تزن طناً على أحياء سكنية مكتظة؟ كيف تمكنت إسرائيل من "تطبيع" هذا الوضع الوحشي، وجعلته جزءاً مقبولاً من الواقع؟

قصة غزة هي قصة تحول الضحية إلى جلاد في أوضح صورها. قصة كيف بنى السجين السابق سجناً جديداً، وأصبح هو السجّان. إنها مرآة قبيحة، تعكس الوجه الحقيقي للمشروع الصهيوني في مرحلته الحالية: مشروع لم يعد يسعى حتى إلى إخفاء عنفه، بل يمارسه بدم بارد، وبغطرسة المنتصر الذي يعتقد أنه لا يوجد من يحاسبه.

الحصار واستراتيجية الموت البطيء

في عام 2005، قامت إسرائيل بـ "فك الارتباط" بشكل أحادي الجانب عن قطاع غزة. لقد سحبت قواتها ومستوطنيها من القطاع، وصورت هذه الخطوة على أنها "بادرة سلام" شجاعة. لكن الحقيقة كانت مختلفة تماماً. لم يكن فك الارتباط نهاية للاحتلال،

بل كان بداية لشكل جديد وأكثر خبثاً من السيطرة. لقد حولت إسرائيل غزة من سجن تحتله مباشرة، إلى سجن تسيطر عليه عن بعد. [4]

أ. "سوف نضعهم على حمية": منطق العقاب الجماعي

في عام 2006، وبعد فوز حركة حماس في الانتخابات التشريعية الفلسطينية، فرضت إسرائيل حصاراً خانقاً على قطاع غزة. لم يكن الحصار إجراءً أمنياً، بل كان عقاباً جماعياً لسكان غزة، لأنهم تجرأوا على اختيار حكومة لا ترضى عنها إسرائيل وأمريكا. تم التعبير عن منطق الحصار بوضوح من قبل دوف فايسغلاس، مستشار رئيس الوزراء آنذاك إيهود أولمرت، الذي قال: "الفكرة هي أن نضع الفلسطينيين على حمية، ولكن ليس لدرجة أن يموتوا من الجوع". [5]

تم تطبيق هذه السياسة الوحشية بحذافيرها. قامت إسرائيل بوضع قائمة بالمواد المسموح بدخولها إلى غزة، وقائمة أخرى بالمواد الممنوعة. لقد منعت دخول مواد أساسية مثل الأسمنت ومواد البناء (لمنع إعادة إعمار ما دمرته)، وقطع غيار السيارات، وحتى بعض

أنواع الألعاب والشوكولاتة والكزبرة. كانت سياسة تهدف إلى تدمير الاقتصاد، وخلق حالة من البؤس واليأس، على أمل أن يثور سكان غزة ضد حماس. [6]

ب. تدمير الاقتصاد والمجتمع: النتائج الكارثية

كانت نتائج الحصار كارثية بكل المقاييس. لقد انهار الاقتصاد بشكل شبه كامل. وصلت نسبة البطالة إلى أكثر من 50%، وهي من أعلى النسب في العالم. وأصبح أكثر من 80% من السكان يعتمدون على المساعدات الإنسانية الدولية للبقاء على قيد الحياة. تم تدمير القطاع الزراعي والصناعي، ومنع الصيادون من الوصول إلى مناطق الصيد، ومنع المزارعون من تصدير منتجاتهم. [7]

ولم يقتصر التدمير على الاقتصاد. بل تم تدمير النسيج الاجتماعي. فأصبح الشباب، الذين يشكلون غالبية السكان، بلا أمل أو مستقبل. لقد تم تقييد حركة الناس، ومنع الطلاب من السفر للدراسة في الخارج، ومنع المرضى من الوصول إلى المستشفيات المتخصصة في الضفة الغربية أو إسرائيل. تحولت غزة إلى مكان يموت فيه الناس ببطء، ليس فقط بسبب نقص الغذاء والدواء، بل أيضاً بسبب نقص الأمل.

ج. السيطرة الكاملة: غزة كنموذج مستقبلي

حصار غزة ليس مجرد إجراء مؤقت، بل هو نموذج مستقبلي للسيطرة على السكان الفلسطينيين. نموذج يقوم على الفصل والعزل والتحكم عن بعد. فمن خلال فصل غزة عن الضفة الغربية، قضت إسرائيل على أي إمكانية لإقامة دولة فلسطينية متصلة جغرافياً. ومن خلال التحكم في كل ما يدخل ويخرج من غزة، أبقت إسرائيل سكانها على حافة المجاعة، وجعلتهم رهائن لإرادتها. [8]

إنه شكل جديد من الاستعمار، استعمار ما بعد الحداثة، الذي لا يحتاج إلى وجود جنود في كل شارع. يكفي أن تسيطر على الحدود، وعلى المجال الجوي، وعلى السجل السكاني، وعلى الاقتصاد، لتتحكم في حياة مليوني إنسان بشكل كامل. تجربة رائدة في هندسة القمع، يتم تصديرها الآن إلى دول أخرى في العالم.

استراتيجية "جز العشب"

لم تكتف إسرائيل بحصار غزة، بل شنت عليها سلسلة من الحروب المدمرة، التي لم تكن تهدف إلى تحقيق أي هدف سياسي واضح، بل كانت تهدف إلى "جز العشب"، أي

تدمير البنية التحتية للمقاومة، وقتل أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين، وإعادة غزة إلى "العصر الحجري"، لضمان فترة من الهدوء قبل الجولة التالية من العنف.

أ. "الرصاص المصبوب" (2008-2009): عقيدة الضاحية

كانت حرب "الرصاص المصبوب" هي أولى هذه الحروب الكبرى. فقد جاءت هذه الحرب تطبيقاً لـ"عقيدة الضاحية"، التي طورها الجيش الإسرائيلي بعد حربه على لبنان عام 2006. وتقوم هذه العقيدة على استخدام القوة بشكل غير متناسب، وتدمير البنية التحتية المدنية، لإلحاق معاناة هائلة بالسكان المدنيين، بهدف الضغط عليهم لرفض حركات المقاومة التي تعيش في وسطهم. [9]

تم تطبيق هذه العقيدة بوحشية في غزة. على مدى 22 يوماً، ألقت إسرائيل مئات الأطنان من المتفجرات على القطاع، بما في ذلك الفسفور الأبيض المحرم دولياً. وتم قصف المنازل، والمدارس، والمستشفيات، ومباني الأمم المتحدة. استشهد أكثر من 1400 فلسطيني، معظمهم من المدنيين، بينهم أكثر من 300 طفل. كانت مجزرة بكل معنى الكلمة، وتم بثها على الهواء مباشرة. [10]

ب. "الجرف الصامد" (2014): تدمير ممنهج

تكرر السيناريو نفسه، وبشكل أكثر عنفاً، في حرب "الجرف الصامد" عام 2014. استمرت هذه الحرب 51 يوماً، واستخدمت فيها إسرائيل قوة نارية هائلة. استشهد أكثر من 2200 فلسطيني، بينهم أكثر من 550 طفلاً. وتم تدمير أكثر من 18,000 منزل بشكل كامل، وتشريد أكثر من 100,000 شخص. [11]

كانت هذه الحرب تدميراً ممنهجاً للحياة في غزة. تم استهداف كل شيء: محطة الكهرباء الوحيدة، ومحطات تحلية المياه، والمصانع، والمزارع. كان الهدف هو جعل غزة مكاناً غير قابل للحياة، ودفع سكانها إلى حافة اليأس المطلق. لقد كشفت هذه الحرب عن أن إسرائيل لم تعد ترى في سكان غزة بشراً، بل مجرد أهداف يجب تدميرها.

ج. غزة كمختبر للأسلحة:

لم تكن هذه الحروب مجرد عمليات عسكرية، بل كانت أيضاً فرصة لإسرائيل لتجربة أحدث أسلحتها وتقنياتها، وتسويقها في العالم. لقد تحولت سماء غزة وأرضها إلى مختبر

مفتوح للطائرات بدون طيار، والصواريخ الموجهة، وأنظمة المراقبة. لقد كانت الشركات العسكرية الإسرائيلية تتباهى بأن أسلحتها "تم اختبارها في المعركة" (battle-tested)، مما جعلها أكثر جاذبية للمشترين في جميع أنحاء العالم. [12]

أصبحت معاناة الفلسطينيين في غزة جزءاً من نموذج عمل مربح. يتم قمعهم، ثم يتم بيع أدوات القمع إلى أنظمة استبدادية أخرى. إنها دورة لصناعة الموت، التي أصبحت فيها إسرائيل رائدة عالمية. وهذا يضيف بعداً آخر من الوحشية إلى مأساة غزة: أن دم أبنائها يتحول إلى أرباح في حسابات تجار السلاح.

المقاومة من الحجر إلى الصاروخ

في مواجهة هذا الحصار الخانق والحروب المدمرة، لم يستسلم سكان غزة. بل طوروا أشكالاً مختلفة من المقاومة، تعكس يأسهم وإصرارهم في آن واحد. كانت مقاومتهم هي الصرخة التي تقول للعالم إنهم ما زالوا هنا، وأنهم يرفضون الموت بصمت.

أ. من الانتفاضة الشعبية إلى العمل المسلح:

في البداية، كانت المقاومة في غزة، كما في الضفة الغربية، تتخذ طابعاً شعبياً. كانت الانتفاضة الأولى (1987-1993) هي انتفاضة الحجارة، التي أظهرت شجاعة الشباب الفلسطيني في مواجهة جيش مدجج بالسلاح. ولكن بعد فشل عملية السلام، وتزايد القمع الإسرائيلي، بدأت المقاومة تتجه بشكل متزايد نحو العمل المسلح. [13]

أدى الحصار الإسرائيلي إلى تقوية الفصائل المسلحة، وعلى رأسها حركة حماس. ففي ظل غياب أي أفق سياسي، وفي ظل القمع الوحشي، أصبح الخيار العسكري هو الخيار الوحيد المتاح للكثيرين. تحولت غزة إلى قاعدة للمقاومة المسلحة، التي طورت قدراتها بشكل كبير، من إطلاق الصواريخ البدائية إلى استخدام الطائرات بدون طيار والعمليات البحرية.

ب. مسيرات العودة الكبرى: صرخة في وجه الجدار

في عام 2018، أطلق سكان غزة شكلاً جديداً ومبتكراً من المقاومة الشعبية: "مسيرات العودة الكبرى". كل يوم جمعة، كان آلاف الفلسطينيين، من رجال ونساء وأطفال،

يتجمعون سلمياً بالقرب من السياج الفاصل بين غزة وإسرائيل، للمطالبة بحقهم في العودة إلى قراهم التي هجروا منها عام 1948، وللمطالبة بكسر الحصار. [14]

كانت هذه المسيرات صرخة سلمية في وجه الظلم. لكن إسرائيل واجهتها بوحشية غير مسبوقة. تم نشر القناصة على طول الحدود، وأعطيت لهم الأوامر بإطلاق النار على المتظاهرين. على مدى أكثر من عام، استشهد أكثر من 200 فلسطيني، بينهم أطفال ومسعفون وصحفيون، وأصيب أكثر من 36,000 آخرين بالرصاص الحي. أظهرت هذه المجزرة أن إسرائيل لا تخاف فقط من المقاومة المسلحة، بل تخاف أيضاً من المقاومة الشعبية السلمية، لأنها تفضح وجهها الحقيقي أمام العالم. [15]

ج. صمود أسطوري في وجه اليأس:

قصة المقاومة في غزة هي قصة صمود أسطوري. صمود شعب يعيش في ظروف مستحيلة، ولكنه يرفض أن يفقد إنسانيته. إنه صمود الأطباء الذين يعملون في مستشفيات مدمرة، والمعلمين الذين يدرسون في مدارس مقصوفة، والأمهات اللواتي يربين أطفالهن على حب الحياة في وجه الموت.

حاولت إسرائيل كسر إرادة هذا الشعب، ولكنها فشلت. فكلما زاد القمع، زاد الإصرار على المقاومة. وكلما زاد التدمير، زادت الرغبة في إعادة البناء. صمود غزة هو الدليل الأكبر على أن المشروع الصهيوني، رغم كل قوته العسكرية، لم يتمكن من تحقيق هدفه النهائي: قتل الروح الفلسطينية. هذه الروح لا تزال حية في أزقة مخيم جباليا، وفي قوارب صيادي بحر غزة، وفي عيون أطفالها الذين يحلمون بغد أفضل.

صناعة الوحش وتجريد الضحية من إنسانيتها

إن مأساة غزة لا يمكن فهمها فقط من خلال تحليل السياسات والاستراتيجيات. فهناك عملية نفسية تحدث داخل المجتمع الإسرائيلي، تسمح له بارتكاب هذه الفظائع دون الشعور بالذنب. هذه العملية تقوم على محورين: صناعة صورة وحشية للفلسطيني، وتجريد الضحية من إنسانيتها.

1. "حيوانات بشرية": شيطنة الفلسطيني

لكي تتمكن من قمع شعب آخر بشكل وحشي، يجب أولاً أن تقنع نفسك بأنه لا يستحق الحياة، وأنه يشكل تهديداً وجودياً لك. لقد أتقن الخطاب الصهيوني فن شيطنة الفلسطيني. يتم تصوير الفلسطينيين في الإعلام والخطاب السياسي الإسرائيلي على أنهم "إرهابيون"، و"متعطشون للدماء"، و"وحوش بشرية"، و"صراصير في زجاجة". [16]

هذه العملية من "الشيطنة" (Demonization) ضرورية لتبرير العنف. فعندما تقتل "إرهابياً" أو "حيواناً بشرياً"، فإنك لا ترتكب جريمة، بل تقوم بعملية "دفاع عن النفس" أو "تنظيف". هذا الخطاب يسمح للجنود الإسرائيليين بإطلاق النار على أطفال، وللطيارين بقصف منازل، وللسياسيين بإصدار أوامر بقطع الماء والكهرباء عن مليوني إنسان، وهم يشعرون بأنهم يفعلون الشيء الصحيح.

2. "الجيش الأكثر أخلاقية في العالم": إنكار الواقع

في نفس الوقت الذي يتم فيه شيطنة الفلسطيني، يقوم المجتمع الإسرائيلي بعملية تمجيد ذاتي، وتصوير نفسه على أنه ضحية بريئة، وجيشه على أنه "الجيش الأكثر أخلاقية في

العالم". هذا الإنكار للواقع هو آلية دفاع نفسي ضرورية للتعايش مع التناقض الصارخ بين الصورة التي يراها الإسرائيليون عن أنفسهم، والواقع الوحشي الذي يمارسونه على الأرض. [17]

يتم تحقيق هذا الإنكار من خلال عدة طرق. أولاً، من خلال الرقابة الإعلامية والتعليم، حيث يتم إخفاء الكثير من الحقائق عن الجمهور الإسرائيلي. ثانياً، من خلال نظام قضائي صوري، يحقق في جرائم الحرب التي يرتكبها الجنود، ولكنه نادراً ما يدين أحداً. ثالثاً، من خلال التركيز الدائم على "التهديد الأمني"، الذي يجعل أي عمل عنيف يبدو مبرراً. رابعاً، من خلال استخدام لغة "نظيفة" لوصف العنف. فالقصف الجوي يصبح "عملية جراحية"، وقتل المدنيين يصبح "أضراراً جانبية"، والحصار يصبح "إجراءً أمنياً".

3. المفارقة المؤلمة: من ضحايا الجيتو إلى صانعيه

المفارقة الأكثر إيلاماً في قصة غزة هي أن الإسرائيليين، الذين بنوا هويتهم الوطنية على ذكرى الهولوكوست والجيتو، أصبحوا هم أنفسهم صانعي جيتو جديد. أصبحوا يمارسون

على الفلسطينيين نفس أساليب القمع التي مورست على أجدادهم: العزل، والتجويع، والعقاب الجماعي، وتجريد الإنسان من إنسانيته. [18]

هذه المفارقة ليست مجرد صدفة تاريخية. إنها نتيجة منطقية للمشروع الصهيوني، الذي قام على فكرة التفوق العرقي، وعلى منطق القوة، وعلى استعداد لاستخدام أي وسيلة لتحقيق أهدافه. فلقد حذر الفيلسوف اليهودي يشعياهو ليبوفيتش من أن الاحتلال سيحول إسرائيل إلى "دولة يهودية - نازية". [19] قد يبدو هذا الوصف صادماً، ولكن عند النظر إلى ما يحدث في غزة، يصعب تجاهل الحقيقة المرة التي يحتويها.

غزة هي المرآة التي تعكس حقيقة إسرائيل اليوم. هي المكان الذي تسقط فيه كل الأقنعة، وتظهر فيه الطبيعة الحقيقية للاحتلال. المكان الذي يتحول فيه السجين إلى سجّان، والضحية إلى جلاد. وهذه هي المأساة الأكبر، ليس فقط للفلسطينيين، بل للإسرائيليين أنفسهم، الذين فقدوا بوصلتهم الأخلاقية في صحراء القوة والغطرسة.

جحيم من صنع الإنسان

قصة غزة هي قصة جحيم من صنع الإنسان. جحيم بناه الإسرائيليون، الذين تحولوا من ضحايا للتاريخ إلى جلادين فيه. هذا الفصل تتبع أبعاد هذه المأساة:

الحصار الخانق: الذي حول غزة إلى أكبر سجن مفتوح في العالم، ودمر اقتصادها ومجتمعها، وخلق أزمة إنسانية كارثية.

الحروب المتكررة: التي كانت تهدف إلى "جز العشب"، وممارسة العقاب الجماعي، وتدمير البنية التحتية للحياة، وتحويل غزة إلى مختبر للأسلحة الإسرائيلية.

المقاومة اليائسة: التي تراوحت بين العمل المسلح والانتفاضة الشعبية، والتي عكست إصرار شعب يرفض الموت بصمت، رغم كل الظروف المستحيلة.

الآليات النفسية: التي تسمح للمجتمع الإسرائيلي بارتكاب هذه الفظائع، من خلال شيطنة الفلسطيني وتجريده من إنسانيته، وإنكار الواقع وتمجيد الذات.

المفارقة التاريخية: المتمثلة في أن ضحايا الجيتو أصبحوا هم أنفسهم صانعي جيتو جديد، مما يكشف عن الانحطاط الأخلاقي للمشروع الصهيوني.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: إلى متى يمكن لهذا الجحيم أن يستمر؟ وهل سيقف العالم متفرجاً إلى الأبد على هذه الجريمة المستمرة؟ أم أن هناك لحظة ما، سينكسر فيها جدار السجن، وتتحرر غزة من كابوسها؟

مأساة غزة ليست سوى الوجه الأكثر تطرفاً للاحتلال الإسرائيلي. فهناك وجه آخر، أقل دموية في الظاهر، ولكنه لا يقل وحشية في جوهره. إنه وجه التمييز العنصري والأبارتهايد الذي يمارس ضد المواطنين الفلسطينيين داخل إسرائيل نفسها، وضد الفلسطينيين في الضفة الغربية والقدس. الفصل التالي، "دولة الأبارتهايد: عندما يصبح التمييز قانوناً"، سيكشف كيف بنت إسرائيل نظاماً قانونياً وسياسياً يقوم على الفصل العنصري، ويمنح امتيازات لليهود، ويحرم الفلسطينيين من حقوقهم الأساسية. سنرى كيف أن إسرائيل ليست "الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط"، كما تدعي، بل هي دولة أبارتهايد، تسير على خطى جنوب أفريقيا في عصرها المظلم. قصة كيف تم تحويل العنصرية من ممارسة إلى قانون، ومن جريمة إلى سياسة دولة.

مراجع الفصل السادس عشر:

- [1] "Warsaw Ghetto." United States Holocaust Memorial Museum, encyclopedia.ushmm.org.
- [2] David Cameron's statement was made during a visit to Turkey in July 2010.
- [3] The term "mowing the lawn" (or "mowing the grass") has been widely used by Israeli military analysts and officials to describe their strategy towards Gaza. See, for example, Efraim Inbar and Eitan Shamir, "Mowing the Grass in Gaza," The BESA Center, 2014.
- [4] Shavit, Ari. *My Promised Land: The Triumph and Tragedy of Israel*. Spiegel & Grau, 2013. Shavit discusses the logic and consequences of the disengagement.
- [5] Dov Weissglass's quote was reported by Haaretz on October 8, 2006.

- [6] "List of Prohibited Items for the Gaza Strip." Gisha - Legal Center for Freedom of Movement, 2010.
- [7] Reports by the United Nations Conference on Trade and Development (UNCTAD) and the World Bank have extensively documented the economic devastation in Gaza.
- [8] Weizman, Eyal. *Hollow Land: Israel's Architecture of Occupation*. Verso, 2007.
- [9] The "Dahiya Doctrine" was articulated by Maj. Gen. Gadi Eizenkot, then head of the IDF's Northern Command, in 2008.
- [10] "Report of the United Nations Fact-Finding Mission on the Gaza Conflict" (The Goldstone Report), A/HRC/12/48, 25 September 2009.
- [11] "Report of the detailed findings of the independent commission of inquiry established pursuant to Human Rights

Council resolution S-21/1" (on the 2014 Gaza conflict), A/HRC/29/CRP.4, 24 June 2015.

- [12] Halper, Jeff. *War Against the People: Israel, the Palestinians and Global Pacification*. Pluto Press, 2015.
- [13] Sayigh, Yezid. *Armed Struggle and the Search for State: The Palestinian National Movement,* 1949-1993. Oxford University Press, 1997.
- [14] The Great March of Return began on March 30, 2018.
- [15] "Report of the independent international commission of inquiry on the protests in the Occupied Palestinian Territory," A/HRC/40/74, 25 February 2019.
- [16] The term "human animals" was used by Israeli Defense Minister Yoav Gallant in October 2023. The "cockroaches in a bottle" analogy was used by former IDF Chief of Staff Rafael Eitan.

- [17] The slogan "The Most Moral Army in the World" is a common trope in Israeli discourse.
- [18] This comparison has been made by numerous critics, including the late Israeli scholar Israel Shahak and Holocaust survivor Hajo Meyer.
- [19] Yeshayahu Leibowitz, a prominent Israeli public intellectual, repeatedly warned that the occupation would lead to what he termed "Judeo-Nazism."

(١٧)

الضفة الغربية والاستعمار الزاحف

مشهد من على التل

يقف إيتمار، وهو مستوطن إسرائيلي في الثلاثين من عمره، على شرفة منزله الجديد في مستوطنة "إلعاد" المقامة على أراضي الضفة الغربية. ينظر إلى الوادي أمامه، حيث تقع قرية فلسطينية صغيرة. يرى أشجار الزيتون القديمة، والبيوت الحجرية المتواضعة. ثم ينظر إلى منزله، ذي القرميد الأحمر والحديقة المشذبة. يشعر بالرضا، وبالأمان. يشعر بأنه يفعل ما هو صحيح. يقول لنفسه: "هذه أرضنا. لقد وعدنا بها الله. لقد عدنا إلى هنا بعد ألفي عام من الشتات". [1]

لا يفكر إيتمار كثيراً في الرجل الذي كان يعيش في هذا المكان قبله. لا يفكر في محمد، المزارع الفلسطيني الذي ورث هذه الأرض عن أجداده، والذي كان يزرعها بالزيتون

والقمح. لا يفكر في كيف جاء الجيش الإسرائيلي ذات يوم، وأعلن أن هذه الأرض هي "أرض دولة"، وصادرها لأغراض عسكرية. ثم كيف تم تسليمها للمستوطنين لبناء منازلهم. لا يفكر في أن محمد وعائلته يعيشون الآن في مخيم للاجئين، على بعد بضعة كيلومترات، وينظرون بحسرة إلى التل الذي كان ملكهم. [2]

مشهد إيتمار ومحمد هو جوهر قصة الضفة الغربية. قصة استعمار استيطاني زاحف، يتم تنفيذه بشكل منهجي ومدروس، تحت غطاء من القانون والدين والأمن. قصة كيف يتم اقتلاع شعب من أرضه، واستبداله بشعب آخر، باسم "حق تاريخي" مزعوم. القصة التي تكشف، أكثر من أي شيء آخر، عن تحول الضحية إلى جلاد، وعن استخدام ذاكرة الاضطهاد لتبرير اضطهاد جديد.

هذا الفصل سيشرح بالتفصيل آليات الاستعمار الزاحف. سنبدأ برسم خريطة الاستيطان، ونقدم الأرقام الصادمة التي تظهر كيف تمكن أكثر من 700,000 مستوطن من السيطرة على قلب الضفة الغربية. ثم سنحلل كيف تم تقطيع أوصال

الأراضي الفلسطينية من خلال جدار الفصل العنصري، ومئات الحواجز العسكرية، والطرق الالتفافية المخصصة للمستوطنين فقط. [3]

سنتحدث عن السرقة الممنهجة للموارد، وخاصة المياه، وكيف يتم حرمان الفلسطينيين من مياههم لإرواء عطش المستوطنات. وسنكشف عن نظام "الأبارتهايد القانوني"، الذي يخلق واقعين منفصلين: واقع من الامتيازات والحماية للمستوطن اليهودي، وواقع من القمع والحرمان للفلسطيني الأصلي. وأخيراً، سنلقي نظرة على أشكال المقاومة الشعبية التي يبتكرها الفلسطينيون في مواجهة هذا السرطان الذي يلتهم أرضهم وحياتهم.

قصة الضفة الغربية هي قصة جريمة بطيئة ومستمرة. ليست حرباً خاطفة مثل حروب غزة، بل هي عملية خنق تدريجي، تهدف إلى جعل حياة الفلسطينيين مستحيلة، ودفعهم إلى الرحيل بصمت. إنها التطبيق العملي للنظرية الصهيونية القائلة بأن " هذه أرض بلا شعب لشعب بلا أرض". لقد وجدوا شعباً على هذه الأرض، وهم الآن يفعلون كل ما في وسعهم لجعله يختفي. وهذا هو جوهر الاستعمار الاستيطاني.

سرطان الاستيطان

الاستيطان هو قلب المشروع الصهيوني في الضفة الغربية. ليس مجرد بناء للمنازل، بل هو عملية سياسية وأيديولوجية تهدف إلى تغيير الواقع الديموغرافي والجغرافي، وجعل قيام دولة فلسطينية أمراً مستحيلاً. لقد تحول الاستيطان من بضع بؤر معزولة إلى شبكة ضخمة من المدن والبلدات التي تسيطر على مساحات شاسعة من الأراضي.

أ. أرقام صادمة: 700,000 مستوطن وأكثر

عندما احتلت إسرائيل الضفة الغربية عام 1967، لم يكن هناك أي مستوطن يهودي فيها. اليوم، يعيش أكثر من 700,000 مستوطن في الضفة الغربية، بما في ذلك القدس الشرقية. [4] هؤلاء المستوطنون يعيشون في أكثر من 280 مستوطنة وبؤرة استيطانية، تتراوح من أحياء ضخمة في القدس إلى مدن كاملة مثل "أرئيل" و"معاليه أدوميم"، إلى بؤر استيطانية صغيرة على قمم التلال.

هذا النمو الهائل لم يحدث بالصدفة. لقد كان نتيجة سياسة حكومية ممنهجة، اتبعتها جميع الحكومات الإسرائيلية، من اليسار إلى اليمين، منذ عام 1967. قدمت الحكومة حوافز

مالية ضخمة للإسرائيليين للانتقال إلى المستوطنات، مثل قروض الإسكان الرخيصة، والإعفاءات الضريبية، ودعم التعليم. لقد تم تحويل الاستيطان إلى مشروع وطني، وإلى عمل مربح. [5]

ب. أنواع المستوطنات: من الأيديولوجية إلى الاقتصادية

يمكن تصنيف المستوطنات إلى عدة أنواع، تعكس الدوافع المختلفة للمستوطنين:

المستوطنات الأيديولوجية (الدينية القومية): هذه هي المستوطنات التي يقودها المستوطنون الأكثر تطرفاً، الذين يؤمنون بأن الله قد وعدهم بكل "أرض إسرائيل". هم يسكنون في قلب المناطق الفلسطينية المكتظة، مثل الخليل ونابلس، ويشكلون رأس الحربة في حركة الاستيطان. عنيفون، مسلحون ويعتبرون أي وجود فلسطيني تهديداً يجب إزالته. [6]

المستوطنات الاقتصادية (مستوطنات "جودة الحياة"): هذه هي المستوطنات الأكبر حجماً، والتي تقع بالقرب من الخط الأخضر. يسكنها إسرائيليون من الطبقة الوسطى، الذين لا تحركهم الأيديولوجية بالضرورة، بل الرغبة في الحصول على سكن أفضل

وأرخص مما هو متاح داخل إسرائيل. يريدون فيلا مع حديقة، بسعر شقة صغيرة في تل أبيب. يمثلون "التطبيع" الهادئ للاستيطان، ويجعلونه جزءاً من الحلم الإسرائيلي البرجوازي. [7]

المستوطنات الزراعية: هذه المستوطنات، التي تقع بشكل أساسي في غور الأردن، تسيطر على الأراضي الأكثر خصوبة ومصادر المياه. وهي تمثل الاستعمار الزراعي، الذي يهدف إلى حرمان الفلسطينيين من مواردهم، وخلق واقع من الاعتماد الاقتصادي على إسرائيل.

ج. السيطرة على المنطقة (ج): مفتاح الضم

بموجب اتفاقيات أوسلو، تم تقسيم الضفة الغربية مؤقتاً إلى ثلاث مناطق: المنطقة (أ) تحت السيطرة الفلسطينية الكاملة، والمنطقة (ب) تحت السيطرة المدنية الفلسطينية والأمنية الإسرائيلية، والمنطقة (ج) تحت السيطرة الإسرائيلية الكاملة. تشكل المنطقة (ج) أكثر من 60% من مساحة الضفة الغربية. وهي تحتوي على معظم الأراضي الزراعية، والموارد المائية، والمساحات المفتوحة. [8]

ركزت إسرائيل جهودها الاستيطانية في المنطقة (ج). ومنعت الفلسطينيين من البناء أو التطوير في هذه المنطقة، بينما شجعت الاستيطان اليهودي فيها. والنتيجة هي أن إسرائيل تسيطر الآن بشكل فعال على غالبية أراضي الضفة الغربية، وتترك للفلسطينيين مجرد معازل (كانتونات) مكتظة ومعزولة عن بعضها البعض في المنطقتين (أ) و(ب). السيطرة على المنطقة (ج) هي المفتاح لعملية الضم الزاحف، التي تحول الاحتلال المؤقت إلى سيطرة دائمة.

هندسة الفصل: الجدار والحواجز والطرق الدائرية

لم تكتف إسرائيل ببناء المستوطنات، بل قامت ببناء بنية تحتية كاملة للفصل العنصري، تهدف إلى ربط المستوطنات ببعضها وبإسرائيل، وفي نفس الوقت تقطيع أوصال المناطق الفلسطينية وعزلها. هذه البنية التحتية تتكون من ثلاثة عناصر رئيسية: الجدار، والحواجز، والطرق الدائرية.

أ. جدار الفصل العنصري: سجن كبير للضفة الغربية

في عام 2002، بدأت إسرائيل في بناء ما تسميه "السياج الأمني"، وما يسميه الفلسطينيون والعالم "جدار الفصل العنصري". هذا الجدار، الذي يبلغ طوله المخطط له

أكثر من 810 كيلومترات، لا يتبع مسار الخط الأخضر (حدود عام 1967)، بل يتعمق في أراضي الضفة الغربية، لكي يضم الكتل الاستيطانية الكبرى إلى الجانب "الإسرائيلي" من الجدار. [9]

والنتيجة هي أن الجدار يلتهم حوالي 10% من أراضي الضفة الغربية، ويعزل عشرات الآلاف من الفلسطينيين عن أراضيهم الزراعية، وعن مدارسهم، وعن مستشفياتهم. لقد حول الجدار القرى الفلسطينية إلى سجون، وحول حياة الناس إلى كابوس يومي. فالوصول إلى الأراضي الزراعية يتطلب تصاريح خاصة، والمرور عبر بوابات تفتح وتغلق حسب مزاج الجنود. أصبح الجدار هو الرمز الأبرز لنظام الأبارتهايد الإسرائيلي، وقد أدانته محكمة العدل الدولية في لاهاي عام 2004 واعتبرته غير قانوني. [10]

ب. الحواجز ونقاط التفتيش: إذلال يومي

بالإضافة إلى الجدار، نشر الجيش الإسرائيلي شبكة كثيفة من الحواجز ونقاط التفتيش داخل الضفة الغربية. هناك أكثر من 645 حاجزاً وعائقاً من أنواع مختلفة، تقيد حركة

الفلسطينيين بين مدنهم وقراهم. [11] هذه الحواجز ليست مجرد إجراءات أمنية، بل هي أداة للسيطرة والإذلال.

على هذه الحواجز، يضطر الفلسطينيون للانتظار لساعات طويلة في طوابير مهينة، تحت الشمس الحارقة أو المطر. يتعرضون للتفتيش المهين، وللصراخ، وأحياناً للضرب. تضطر النساء الحوامل للولادة على الحواجز، ويموت المرضى في سيارات الإسعاف وهم ينتظرون السماح لهم بالمرور. هذه الحواجز تهدف إلى تكسير إرادة الفلسطينيين، وجعل حياتهم لا تطاق، وتذكيرهم في كل لحظة بأنهم شعب محتل، لا يملك أي سيطرة على حياته أو وقته.

ج. الطرق الدائرية: طرق للأسياد وطرق للعبيد

العنصر الثالث في هندسة الفصل هو شبكة الطرق الدائرية. هذه طرق سريعة وحديثة، تم بناؤها لربط المستوطنات ببعضها وبإسرائيل. يُسمح للمستوطنين الإسرائيليين فقط باستخدام هذه الطرق، بينما يُمنع الفلسطينيون من استخدامها، أو يُسمح لهم باستخدامها بتصاريح خاصة. [12]

والنتيجة هي وجود نظامين منفصلين من الطرق: نظام حديث وسريع للأسياد (المستوطنين)، ونظام قديم وبطيء للعبيد (الفلسطينيين). فبينما يستطيع المستوطن أن ينتقل من مستوطنته إلى تل أبيب في نصف ساعة، قد يحتاج الفلسطيني إلى عدة ساعات لقطع نفس المسافة، بسبب الحواجز والطرق المتعرجة. هذا الفصل في الطرق هو التجسيد المادي لنظام الأبارتهايد، الذي يخلق واقعين مختلفين تماماً على نفس الأرض.

إن هذه البنية التحتية (الجدار والحواجز والطرق الدائرية) هي التي تسمح للاستعمار الزاحف بالاستمرار. تخلق "إسرائيل" جديدة داخل الضفة الغربية، إسرائيل للمستوطنين فقط، معزولة ومحمية ومميزة. وفي نفس الوقت، تحول ما تبقى من الضفة الغربية إلى مجموعة من المعازل الفلسطينية الفقيرة والمحاصرة، التي لا تملك أي مقومات للحياة أو الدولة.

سرقة الموارد: الاستعمار البيئي

الاستعمار ليس مجرد سرقة للأرض، بل هو أيضاً سرقة للموارد الطبيعية التي تجعل الحياة على هذه الأرض ممكنة. في الضفة الغربية، تمارس إسرائيل شكلاً من أشكال "الاستعمار البيئي"، الذي يهدف إلى السيطرة على مصادر المياه والأراضي الزراعية، وحرمان الفلسطينيين منها.

أ. سرقة المياه: عطش الفلسطينيين لإرواء المستوطنات

تعتبر المياه هي المورد الأكثر حيوية في الشرق الأوسط. تسيطر إسرائيل بشكل شبه كامل على جميع مصادر المياه في الضفة الغربية، بما في ذلك الحوض الجبلي الجوفي، الذي هو أكبر مصدر للمياه العذبة. بموجب اتفاقيات أوسلو، التي كان من المفترض أن تكون مؤقتة، تحصل إسرائيل على أكثر من 80% من مياه هذا الحوض، بينما يترك للفلسطينيين أقل من 20%. [13]

والنتيجة هي وجود "أبارتهايد مائي". فبينما يتمتع المستوطن الإسرائيلي بوفرة من المياه (حوالي 350 لتراً للفرد في اليوم)، يعاني الفلسطيني من شح شديد في المياه (حوالي 70

لتراً للفرد في اليوم، وهو أقل من الحد الأدنى الذي توصي به منظمة الصحة العالمية). [14] في الصيف، تقوم شركة المياه الإسرائيلية "ميكوروت" بقطع المياه عن المدن والقرى الفلسطينية لساعات طويلة، لتلبية الطلب المتزايد في المستوطنات. وهكذا، يرى الفلسطينيون مياههم تسرق من تحت أقدامهم، لتذهب إلى المسابح والحدائق الخضراء في المستوطنات المجاورة.

ب. سرقة الأراضي: تحت ذرائع مختلفة

بالإضافة إلى سرقة المياه، تواصل إسرائيل سرقة الأراضي الفلسطينية تحت ذرائع قانونية وإدارية مختلفة. وهذه هي أهم الأساليب المستخدمة:

إعلان الأراضي "أراضي دولة": هذا هو الأسلوب الرئيسي. تقوم الإدارة المدنية الإسرائيلية بإعلان مساحات شاسعة من الأراضي بأنها "أراضي دولة"، بحجة أنها لم تكن مزروعة أو مسجلة بشكل صحيح خلال العهد العثماني أو الأردني. ثم يتم تخصيص هذه الأراضي للمستوطنات. [15]

المصادرة لأغراض عسكرية: يتم الاستيلاء على مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية، تُقدَّر بآلاف "الدونمات" (حيث يعادل الدونم الواحد نحو 1000 متر مربع، أي عُشر هكتار تقريباً)، وذلك بحجة "الضرورات الأمنية" لبناء قواعد عسكرية أو مناطق عازلة. غير أن هذه الأراضي غالباً ما تُسلَّم لاحقاً للمستوطنين.

إعلان المحميات الطبيعية والحدائق الوطنية: تقوم إسرائيل بإعلان مناطق فلسطينية ذات جمال طبيعي أو أهمية أثرية بأنها "محميات طبيعية"، وتمنع الفلسطينيين من استخدامها، ثم تسمح للمستوطنين بإقامة بؤر استيطانية "سياحية" فيها.

قانون أملاك الغائبين: يتم الاستيلاء على ممتلكات الفلسطينيين الذين هجروا عام 1948، أو الذين يعيشون في الخارج، بحجة أنهم "غائبون".

من خلال هذه الأساليب وغيرها، تمكنت إسرائيل من السيطرة على مساحات هائلة من الأراضي الفلسطينية، وتحويلها إلى ملكية يهودية. يعني عملية سرقة منظمة، تتم تحت غطاء من القانون، وتهدف إلى خلق واقع لا يمكن تغييره على الأرض.

عنف المستوطنين: ذراع غير رسمي للدولة

لا تكتفي الدولة بسرقة الأرض، بل تسمح أيضاً لمواطنيها (المستوطنين) بممارسة العنف ضد الفلسطينيين لترهيبهم وطردهم من أراضيهم. فقد أصبح عنف المستوطنين ظاهرة يومية في الضفة الغربية. يقوم المستوطنون، تحت حماية الجيش الإسرائيلي، بمهاجمة القرى الفلسطينية، وحرق المحاصيل الزراعية، وتسميم المواشي، وقطع أشجار الزيتون، والاعتداء على المزارعين والأطفال. [16]

نادراً ما يتم التحقيق في هذه الجرائم، ونادراً ما يتم معاقبة مرتكبيها. فالجيش والشرطة الإسرائيليان يوفران الحماية للمستوطنين، بل ويشاركان في قمع الفلسطينيين الذين يحاولون الدفاع عن أنفسهم. أصبح المستوطنون بمثابة ميليشيا غير رسمية للدولة، تقوم بالعمل القذر الذي لا يريد الجيش أن يقوم به بشكل مباشر. اي أداة أخرى في استراتيجية الاستعمار الزاحف، التي تهدف إلى جعل حياة الفلسطينيين جحيماً، ودفعهم إلى الرحيل.

عدالة الأبارتهايد: نظامان قانونيان لشعبين

إن السمة الأكثر وضوحاً لنظام الأبارتهايد هي وجود نظامين قانونيين منفصلين على نفس الأرض: نظام للمجموعة المهيمنة، ونظام آخر للمجموعة الخاضعة. وهذا هو بالضبط

الواقع في الضفة الغربية. فقد خلقت إسرائيل نظاماً من الفصل القانوني، يمنح المستوطنين اليهود كل الحقوق والامتيازات، بينما يحرم الفلسطينيين من أبسط حقوقهم.

أ. قانون للمستوطنين وقانون للفلسطينيين:

يعيش المستوطن الإسرائيلي في الضفة الغربية وكأنه يعيش في تل أبيب. فهو يخضع للقانون المدني الإسرائيلي، ويتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها المواطن الإسرائيلي: الحق في حرية التعبير، والحق في التنظيم، والحق في محاكمة عادلة أمام محكمة مدنية. إذا ارتكب جريمة، فإنه يحاكم أمام القضاء الإسرائيلي. [17]

أما الفلسطيني الذي يعيش على بعد أمتار قليلة منه، فإنه يخضع لنظام من الأوامر العسكرية، التي يصدرها القائد العسكري الإسرائيلي للمنطقة. أي إنه لا يتمتع بأي حقوق سياسية أو مدنية. يمكن اعتقاله دون تهمة أو محاكمة لفترات طويلة (ما يعرف بالاعتقال الإداري). وإذا تم اتهامه بارتكاب جريمة، فإنه يحاكم أمام محاكم عسكرية إسرائيلية، حيث نسبة الإدانة تصل إلى أكثر من 99%. [18]

هذا الفصل القانوني الصارخ هو تعريف الأبارتهايد. فهو يخلق واقعاً من التمييز المطلق، حيث يتم تحديد حقوق الإنسان بناءً على هويته القومية. وهذا يظهر لنا جلياً نظام لا علاقة له بالديمقراطية أو سيادة القانون.

ب. هدم المنازل كسياسة:

أحد أكثر مظاهر هذا النظام وحشية هو سياسة هدم المنازل. تقوم السلطات الإسرائيلية بهدم منازل الفلسطينيين في الضفة الغربية والقدس الشرقية بشكل منهجي، بحجة أنها بنيت "بدون ترخيص". ولكن الحقيقة هي أنه من شبه المستحيل على الفلسطينيين الحصول على تراخيص بناء من الإدارة الإسرائيلية، التي ترفض معظم الطلبات. [19]

والنتيجة هي أن آلاف العائلات الفلسطينية تجد نفسها في حلقة مفرغة: فهي تحتاج إلى بناء منازل لتلبية النمو السكاني الطبيعي، ولكنها لا تستطيع الحصول على تراخيص. وعندما تبني بدون ترخيص، فإنها تعيش في خوف دائم من أن تأتي الجرافات الإسرائيلية في أي لحظة وتهدم منزلها، وتتركها في العراء. في المقابل، يتم بناء المستوطنات الإسرائيلية وتوسيعها بسرعة، وبدعم كامل من الحكومة.

إن سياسة هدم المنازل هي أداة من أدوات الهندسة الديموغرافية. فهي تهدف إلى تقليص الوجود الفلسطيني، وخاصة في المناطق الاستراتيجية مثل القدس والمنطقة (ج)، وإفساح المجال للتوسع الاستيطاني اليهودي. إنها جريمة حرب، وجريمة ضد الإنسانية، تمارس بشكل يومي.

ج. المقاومة الشعبية: صمود في وجه اليأس

في مواجهة هذا الاستعمار الزاحف، وهذا النظام العنصري، لم يستسلم الفلسطينيون في الضفة الغربية. بل طوروا أشكالاً مختلفة من المقاومة الشعبية السلمية، التي تهدف إلى فضح ممارسات الاحتلال، والصمود على الأرض. هذه المقاومة تتخذ أشكالاً عديدة:

المظاهرات الأسبوعية: في قرى مثل بلعين ونعلين وكفر قدوم، ينظم السكان مظاهرات أسبوعية ضد جدار الفصل العنصري ومصادرة الأراضي. يواجه المتظاهرون السلميون، الذين يرافقهم أحياناً نشطاء إسرائيليون ودوليون، القمع الوحشي من قبل الجيش

الإسرائيلي، الذي يستخدم الغاز المسيل للدموع والرصاص المطاطي والرصاص الحي. [20]

حملات المقاطعة (BDS): انطلقت من المجتمع المدني الفلسطيني حركة عالمية لمقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها (BDS)، على غرار الحركة التي ساهمت في إسقاط نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا. تهدف هذه الحركة إلى الضغط على إسرائيل لاحترام القانون الدولي، وإنهاء احتلالها، والاعتراف بحقوق الفلسطينيين. [21]

الصمود على الأرض: إن الشكل الأكثر أهمية للمقاومة هو ببساطة الصمود. قرار الفلسطيني بالبقاء في أرضه، رغم كل محاولات ترحيله. فهو المزارع الذي يعيد زراعة أشجار الزيتون التي اقتلعها المستوطنون. وهي العائلة التي تعيد بناء منزلها بعد أن هدمته الجرافات. هذا الصمود هو الذي يفشل المخطط الصهيوني في تحقيق هدفه النهائي.

كيف يبرر المستعمر جريمته؟

نظام الاستعمار والأبارتهايد في الضفة الغربية لا يمكن أن يستمر بالقوة العسكرية فقط. بل يحتاج إلى نظام متطور من التبريرات الأيديولوجية والنفسية، التي تسمح للمستعمر

بأن يرى نفسه كضحية، ويرى ضحيته كمعتدٍ. هذه التبريرات ضرورية للحفاظ على التماسك الداخلي للمجتمع الإسرائيلي، ولتسويق هذه الجريمة أمام العالم.

1. اللاهوت الاستعماري: "أرض الميعاد" كذريعة للسرقة

التبرير الأيديولوجي الأساسي للاستيطان هو التبرير الديني. يعتقد المستوطنون المتدينون، وجزء كبير من المجتمع الإسرائيلي، أن الله قد وعد الشعب اليهودي بـ "أرض إسرائيل الكاملة". من هذا المنظور، فإن الاستيطان ليس سرقة، بل هو "استرداد" للأرض، وتحقيق للوعد الإلهي. والفلسطينيون ليسوا سكاناً أصليين، بل هم "غرباء" أو "غزاة" يجب طردهم. [22]

هذا "اللاهوت الاستعماري" هو أداة قوية للغاية. فهو يرفع الاستيطان من مستوى جريمة سياسية إلى مستوى واجب ديني. وهو يمنح المستوطنين شعوراً بالرسالة والقداسة، ويجعلهم محصنين ضد أي نقد أخلاقي. فهم لا ينفذون سياسة حكومية، بل ينفذون مشيئة الله. وهذا يجعل أي تسوية أو تنازل أمراً مستحيلاً، لأنك لا تستطيع أن تتفاوض على كلمة الله.

2. إنكار وجود الفلسطيني: "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"

التبرير الثاني هو إنكار وجود الشعب الفلسطيني وتاريخه وحقوقه. فقد قامت الصهيونية على أسطورة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض". ورغم أن هذه الأسطورة قد تحطمت على صخرة الواقع، إلا أنها لا تزال حية في العقل الباطن الإسرائيلي. لا يزال هناك ميل إلى رؤية الفلسطينيين كعائق مؤقت، أو كمجموعة من البدو الرحل الذين ليس لديهم أي ارتباط حقيقي بالأرض. [23]

هذا الإنكار يسمح للإسرائيليين بتجاهل المأساة الإنسانية التي يخلقونها. فإذا كان الفلسطيني لا وجود له حقاً، فإن طرده من أرضه ليس جريمة. وإذا لم يكن لديه تاريخ، فإن تدمير قراه ليس خسارة. هذا الإنكار هو شكل من أشكال العنف الرمزي، الذي يمهد الطريق للعنف المادي. فهو يجعل الفلسطيني غير مرئي، وبالتالي يجعل معاناته غير مهمة.

3. الضحية الأبدية: استخدام ذكرى الاضطهاد لتبرير اضطهاد جديد

التبرير الثالث، والأكثر إثارة للسخرية، هو تصوير المستعمر على أنه الضحية. فالإسرائيليون، الذين يملكون جيشاً قوياً ودعماً أمريكياً غير محدود، يرون أنفسهم كضحايا محاطين بعالم عربي معادٍ، ومهددين بـ"إرهاب" فلسطيني. والمستوطن، الذي يسرق الأرض والمياه تحت حماية الجيش، يرى نفسه كبطل شجاع يواجه "الوحوش" الفلسطينية. [24]

هذه العقلية (عقلية الضحية) متجذرة بعمق في التاريخ اليهودي، وخاصة في ذكرى الهولوكوست. لكنها تستخدم الآن بطريقة مشوهة لتبرير الظلم. فكل عمل عنف فلسطيني، مهما كان صغيراً، يتم تضخيمه وتصويره على أنه دليل على أن "العالم كله ضدنا"، وأننا يجب أن نكون أقوياء وقساة لنبقى على قيد الحياة. وكل عمل عنف إسرائيلي، مهما كان وحشياً، يتم تبريره على أنه "دفاع عن النفس".

الدرس المدمر الذي تقدمه قصة الضفة الغربية هو أن الضحايا السابقين لا يصبحون بالضرورة أكثر رحمة. بل قد يصبحون أكثر كفاءة في الظلم، لأنهم يعرفون كيف يعمل

الاضطهاد، وكيف يتم تبريره، وكيف يتم تغليفه بلغة الضحية والشرعية. لقد تعلموا الدرس من مضطهديهم، وهم الآن يطبقونه ببراعة على ضحاياهم الجدد.

الفصل العنصري في القرن الحادي والعشرين

لقد كشف هذا الفصل عن الآليات المنهجية التي تستخدمها إسرائيل لترسيخ استعمارها في الضفة الغربية، وتحويلها إلى نظام فصل عنصري كامل. هذه الآليات تشمل:

الاستيطان المكثف: زراعة أكثر من 700,000 مستوطن في قلب الضفة الغربية، لخلق واقع ديموغرافي وجغرافي لا يمكن تغييره.

هندسة الفصل: بناء جدار الفصل العنصري، وشبكة من الحواجز والطرق الدائرية، لتقطيع أوصال الأراضي الفلسطينية وعزلها.

سرقة الموارد: السيطرة على مصادر المياه والأراضي الزراعية، وممارسة شكل من أشكال الاستعمار البيئي.

التمييز القانوني: تطبيق نظامين قانونيين منفصلين، واحد للمستوطنين اليهود وآخر للفلسطينيين، وهو جوهر الأبارتهايد.

التبريرات الأيديولوجية: استخدام الدين والتاريخ وعقلية الضحية لتبرير هذه الجريمة المستمرة، وتصوير المستعمر على أنه ضحية.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: كيف يمكن وصف هذا الواقع بأي شيء آخر غير الأبارتهايد؟ وإذا كان العالم قد وقف ضد الأبارتهايد في جنوب أفريقيا، فلماذا يصمت على الأبارتهايد الإسرائيلي؟

إن الاستعمار الاستيطاني في الضفة الغربية، والحصار الوحشي لغزة، يصلان إلى ذروتهما في المعركة على القدس. فالقدس ليست مجرد مدينة، بل هي قلب الصراع، ورمزه الديني والسياسي. إنها المكان الذي يلتقي فيه التاريخ والجغرافيا والدين، في صراع وجودي على الهوية والسيادة. الفصل التالي، "القدس: المعركة الأخيرة"، سيأخذنا إلى شوارع المدينة المقدسة، ليكشف عن الحرب الصامتة التي تشنها إسرائيل لتهويد المدينة، وطرد سكانها الفلسطينيين. سنرى كيف يتم استخدام هدم المنازل، وسحب الهويات، وتشجيع الاستيطان، لتغيير طابع المدينة المقدسة إلى الأبد. وسنرى كيف يتم حصار

المسجد الأقصى، والتحضير لبناء الهيكل الثالث المزعوم على أنقاضه. إنها المعركة على روح القدس، وهي المعركة التي قد تشعل حريقاً لا يمكن إطفاؤه في المنطقة بأكملها.

مراجع الفصل السابع عشر:

- [1] This opening is a fictionalized but representative portrayal of the settler mindset, based on numerous interviews and reports.
- [2] The process of land confiscation for settlements is well-documented by Israeli and international human rights organizations like B'Tselem and Human Rights Watch.
- [3] "The Occupation at 50: A Special Report." B'Tselem - The Israeli Information Center for Human Rights in the Occupied Territories, 2017.
- [4] "Settlement Population Numbers." B'Tselem, updated regularly. The figure includes East Jerusalem.
- [5] "By Hook and by Crook: Israeli Settlement Policy in the West Bank." B'Tselem, July 2010.

- [6] Pedahzur, Ami. *The Israeli Secret Services and the Struggle Against Terrorism*. Columbia University Press, 2009. Discusses the ideological roots of the settler movement.
- [7] Gordon, Neve. *Israel's Occupation*. University of California Press, 2008.
- [8] "Area C: Key to the Two-State Solution." United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs (OCHA), 2011.
- [9] "The Separation Barrier." B'Tselem, updated regularly.
- [10] "Legal Consequences of the Construction of a Wall in the Occupied Palestinian Territory." Advisory Opinion, International Court of Justice, 9 July 2004.
- [11] "Checkpoints, Physical Obstructions, and Forbidden Roads." B'Tselem, updated regularly.

- [12] "Forbidden Roads: The Discriminatory West Bank Road Regime." B'Tselem, August 2004.
- [13] "The Occupation of Water." Amnesty International, 2009.
- [14] Ibid.
- [15] "Land Grab: Israel's Settlement Policy in the West Bank." B'Tselem, May 2002.
- [16] "State of Denial: Israel's Failure to Lawfully-Process Settler Violence." Yesh Din - Volunteers for Human Rights, 2015.
- [17] "One Rule, Two Legal Systems: Israel's Regime of Laws in the West Bank." Association for Civil Rights in Israel (ACRI), 2014.

- [18] "The Lawless Zone: The Transfer of Palestinians to Israel for Trial in Military Courts." B'Tselem, 2006.
- [19] "Under the Guise of Legality: The Planning and Building Policy in the West Bank and its Impact on the Palestinian Population." B'Tselem, February 2007.
- [20] The struggles of villages like Bil'in and Ni'lin have been the subject of documentary films, such as "5 Broken Cameras."
- [21] The official website of the Boycott, Divestment, Sanctions (BDS) movement is bdsmovement.net.
- [22] Lustick, Ian S. *For the Land and the Lord*: *Jewish Fundamentalism in Israel*. Council on Foreign Relations, 1988.
- [23] Masalha, Nur. *The Bible and Zionism*: *Invented Traditions, Archaeology and Post-Colonialism in Palestine-Israel*. Zed Books, 2007.

- [24] Pappe, Ilan. *The Idea of Israel: A History of Power and Knowledge*. Verso, 2014. Pappe analyzes the role of the victimhood narrative in Israeli identity.

(١٨)

القدس - المعركة الأخيرة

مشهد من ساحة الأقصى

في صباح يوم ربيعي مشمس، يقتحم إيتمار بن غفير، وزير الأمن القومي الإسرائيلي، باحات المسجد الأقصى المبارك، محاطاً بعشرات من رجال الشرطة المدججين بالسلاح. يسير بخطى متعجرفة، وينظر بازدراء إلى المصلين الفلسطينيين المذعورين. لا يصلي، ولا يقوم بأي طقس ديني. وجوده هنا ليس للعبادة، بل هو فعل هيمنة، ورسالة سياسية واضحة: "نحن الأسياد هنا. هذا المكان لنا". [1]

على بعد أمتار قليلة، تقف مرابطة مقدسية مسنة، تصرخ في وجهه: "الله أكبر! الأقصى لنا". يدفعها شرطي إسرائيلي بقوة، وتقع على الأرض. يتجاهلها بن غفير، ويكمل جولته الاستفزازية، ثم يغادر، تاركاً وراءه شعوراً بالغضب والإهانة والتدنيس. [2]

هذا المشهد، الذي أصبح يتكرر بشكل شبه يومي، هو جوهر المعركة على القدس. فهي ليست معركة على الأرض فقط، بل هي معركة على الروح، وعلى التاريخ، وعلى المقدسات. المعركة الأخيرة والأكثر خطورة في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، لأنها تمس أعمق المشاعر الدينية لمئات الملايين من المسلمين والمسيحيين حول العالم.

لقد كانت القدس، على مر العصور، رمزاً للتسامح الديني والتعايش بين الأديان الثلاثة. ولكن منذ احتلالها عام 1967، تعمل إسرائيل بشكل منهجي على تغيير هذا الواقع، وتحويل القدس إلى مدينة يهودية حصرية، عاصمة أبدية للدولة اليهودية. تمارس سياسة تهويد زاحفة، لا تكتفي بسرقة الأرض، بل تهدف إلى محو الهوية العربية الإسلامية والمسيحية للمدينة.

هذا الفصل سيأخذنا إلى قلب هذه المعركة. سنكشف عن الخطة الممنهجة لتهويد القدس، من خلال الاستيطان المكثف في الأحياء العربية، وهدم المنازل، وسحب

هويات المقدسيين. سنتحدث عن الحرب الصامتة التي تدور في البلدة القديمة، حيث يتم طرد العائلات الفلسطينية من بيوتها، واستبدالها بمستوطنين متطرفين. [3]

والأخطر من ذلك كله، سنتحدث عن الحرب التي تدور حول المسجد الأقصى نفسه. سنكشف عن الحفريات الأثرية التي تجري تحت أساسات المسجد، والتي تهدد بانهياره. وسنحلل ظاهرة الاقتحامات المتكررة للمسجد من قبل المستوطنين والسياسيين، والتي تهدف إلى تغيير "الوضع الراهن" التاريخي، وتقسيم المسجد زمانياً ومكانياً، تمهيداً لبناء "الهيكل الثالث" المزعوم على أنقاضه. [4]

المعركة على القدس هي المكان الذي تصل فيه مفارقة "الضحية التي تحولت إلى جلاد" إلى ذروتها. فالشعب الذي عانى من تدنيس مقدساته في أوروبا، يمارس الآن نفس سياسة التدنيس ضد مقدسات الآخرين. والشعب الذي حرم من عاصمته الروحية، يحرم الآن شعباً آخر من عاصمته الروحية والسياسية. قصة كيف يمكن للظلم أن يولد ظلماً أشد، وكيف يمكن لذاكرة الألم أن تصبح أداة لإلحاق ألم جديد. إنها المعركة التي قد تقرر مصير السلام في العالم أجمع.

تهويد الأرض والإنسان: خريطة الضم الصامت

إن سياسة إسرائيل في القدس هي سياسة ضم صامت وزاحف. فهي لا تحتاج إلى إعلان رسمي، لأنها تحدث كل يوم على الأرض، من خلال مجموعة من الإجراءات القانونية والإدارية والعمرانية، التي تهدف إلى خلق أغلبية يهودية ساحقة، وتقليص الوجود الفلسطيني إلى الحد الأدنى.

أ. الاستيطان كأداة للتقسيم: 230,000 مستوطن في قلب القدس

بعد احتلال القدس الشرقية عام 1967، قامت إسرائيل بضمها رسمياً، في خطوة لم يعترف بها المجتمع الدولي. ثم بدأت في بناء حزام من المستوطنات الضخمة حول الأحياء العربية، بهدف عزلها عن محيطها الفلسطيني في الضفة الغربية، وتقطيع أوصالها. مستوطنات مثل "جيلو" و"راموت" و"بسغات زئيف" هي في الواقع مدن كاملة، يسكنها اليوم أكثر من 230,000 مستوطن يهودي[5] .

هذه المستوطنات ليست مجرد أحياء سكنية. بل هي أداة استراتيجية لفرض واقع سياسي على الأرض. فهي تمنع أي إمكانية لتقسيم القدس في المستقبل، وتجعلها عاصمة لدولتين.

وهي تخلق واقعاً من الفصل العنصري، حيث يعيش المستوطنون في بحبوحة ورفاهية، بينما يعاني الفلسطينيون في أحيائهم المكتظة من نقص الخدمات والبنية التحتية.

ب. هدم المنازل وسحب الهويات: سياسة التطهير الهادئ

بالتوازي مع بناء المستوطنات، تمارس إسرائيل سياسة "تطهير هادئ" ضد السكان الفلسطينيين في القدس. هذه السياسة تتخذ شكلين رئيسيين:

هدم المنازل: كما في بقية الضفة الغربية، يعتبر الحصول على ترخيص بناء للفلسطينيين في القدس مهمة شبه مستحيلة. ونتيجة لذلك، يضطر الكثيرون للبناء بدون ترخيص، ويعيشون في خوف دائم من الهدم. منذ عام 1967، هدمت إسرائيل آلاف المنازل الفلسطينية في القدس، وشردت عشرات الآلاف من السكان. [6]

سحب الهويات: يعيش الفلسطينيون في القدس في وضع قانوني غريب. فهم ليسوا مواطنين إسرائيليين، بل هم "مقيمون دائمون". هذه الإقامة يمكن سحبها منهم في أي وقت، إذا لم يتمكنوا من إثبات أن "مركز حياتهم" هو في القدس. لقد سحبت إسرائيل

الإقامة من أكثر من 14,000 مقدسي منذ عام 1967، مما يعني طردهم من مدينتهم إلى الأبد. [7] أداة بيروقراطية قاسية، تستخدم كسلاح ديموغرافي.

ج. الاستيطان في قلب البلدة القديمة: المعركة على التاريخ

إن أخطر أشكال الاستيطان هو ذلك الذي يحدث في قلب البلدة القديمة، وخاصة في الحي الإسلامي. تقوم جمعيات استيطانية متطرفة، مثل "عطيرت كوهانيم"، وبدعم من الحكومة، بالاستيلاء على منازل الفلسطينيين، إما عن طريق الاحتيال، أو باستخدام "قانون أملاك الغائبين". ثم يتم طرد العائلات الفلسطينية التي عاشت في هذه المنازل لأجيال، وإسكان مستوطنين يهود مكانهم. [8]

الهدف من هذا الاستيطان ليس مجرد السكن، بل هو تغيير طابع البلدة القديمة، ومحو تاريخها الإسلامي والمسيحي. بهدف خلق "تواصل تاريخي" يهودي مزعوم، من حائط البراق إلى بقية أنحاء البلدة القديمة. استفزاز يومي، يخلق احتكاكاً وعنفاً مستمرين، ويهدد بنسف التعايش الهش الذي كان قائماً في المدينة المقدسة.

الحرب على الأقصى وسيناريو هدم الهيكل

المعركة على القدس تصل إلى ذروتها في الحرب الدائرة على المسجد الأقصى المبارك، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. هذه الحرب ليست مجرد اشتباكات متفرقة، بل هي خطة ممنهجة وبعيدة المدى، تهدف إلى تغيير الوضع القائم في الحرم القدسي الشريف، وتقسيمه، وفي النهاية هدمه لبناء "الهيكل الثالث" المزعوم على أنقاضه.

أ. الحفريات تحت الأقصى: تدمير الأساسات

منذ عام 1967، تقوم سلطة الآثار الإسرائيلية، بالتعاون مع جمعيات استيطانية، بإجراء حفريات واسعة النطاق تحت المسجد الأقصى وفي محيطه. تدعي إسرائيل أن هذه الحفريات هي لأغراض علمية، للبحث عن آثار "الهيكل الأول والثاني". ولكن الهدف الحقيقي هو سياسي وديني. [9]

أولاً، تهدف هذه الحفريات إلى إثبات "الحق التاريخي" اليهودي في المكان، وتهويد روايته التاريخية. ثانياً، وهو الأخطر، فإن هذه الحفريات تهدد بشكل مباشر أساسات المسجد الأقصى والمصلى المرواني وقبة الصخرة. لقد أدت هذه الحفريات إلى ظهور

تشققات وانهيارات في جدران الحرم، مما يثير مخاوف حقيقية من أن إسرائيل تخطط لإحداث انهيار "طبيعي" للمسجد، لتبرير بناء الهيكل مكانه. [10]

ب. الاقتحامات المتكررة: فرض واقع جديد

بالتوازي مع الحفريات، تشجع الحكومة الإسرائيلية وتحمي الاقتحامات اليومية للمسجد الأقصى من قبل المستوطنين المتطرفين والسياسيين. هذه الاقتحامات، التي كانت نادرة في الماضي، أصبحت الآن روتينية ومنظمة. يتم خلالها تدنيس باحات المسجد، وأداء طقوس تلمودية، واستفزاز المصلين المسلمين. [11]

فالهدف من هذه الاقتحامات هو كسر "الوضع الراهن" التاريخي، الذي كان يقضي بأن المسجد الأقصى هو مكان عبادة خالص للمسلمين، وأن لغير المسلمين حق الزيارة فقط، وليس الصلاة. تسعى إسرائيل إلى فرض "تقسيم زماني ومكاني" للمسجد، على غرار ما فعلته في المسجد الإبراهيمي في الخليل. أي تخصيص أوقات وأماكن معينة لصلاة اليهود في باحات الأقصى. وهذا التقسيم هو الخطوة الأولى نحو السيطرة الكاملة على المكان.

ج. التحالف اليهودي-الإنجيلي: وقود ديني للمعركة

المعركة على الأقصى لا تقتصر على المتطرفين اليهود. فهناك حليف قوي وخطير يدعمهم، وهو الحركة المسيحية الإنجيلية في الولايات المتحدة. يؤمن ملايين المسيحيين الإنجيليين بأن عودة المسيح مرتبطة ببناء الهيكل الثالث في القدس. ولذلك، فإنهم يدعمون بكل قوة مالية وسياسية الجماعات اليهودية التي تسعى لهدم الأقصى. [12]

هذا التحالف بين الصهيونية اليهودية والصهيونية المسيحية يمثل قوة هائلة. فهو يوفر غطاءً دولياً ودعماً مالياً لمشروع هدم الأقصى. ويحول الصراع من صراع سياسي إلى صراع ديني كوني، "معركة نهاية الزمان". وهذا يجعله أكثر خطورة، وأقل قابلية للحل.

إن خطة هدم المسجد الأقصى ليست نظرية مؤامرة. إنها مشروع جاري التنفيذ، يتم على مراحل، وبدعم من الدولة والجهات الدينية المتطرفة. فهو أخطر مشروع لتدنيس المقدسات في التاريخ الحديث، وهو لعب بالنار في أكثر الأماكن حساسية في العالم.

التواطؤ الأمريكي والصمت العربي

إن جريمة تهويد القدس لم تكن لتصل إلى هذا المستوى من الوقاحة لولا عاملين رئيسيين: التواطؤ الأمريكي، والصمت العربي المخزي. لقد تحولت القدس من قضية دولية تتطلب حلاً عادلاً، إلى ورقة في يد إسرائيل والولايات المتحدة، تلعبان بها لتحقيق مصالحهما، دون أي اعتبار للقانون الدولي أو لحقوق الفلسطينيين.

أ. إعلان ترامب: الضوء الأخضر للضم

في 6 ديسمبر 2017، قام الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بما لم يجرؤ أي رئيس أمريكي قبله على فعله: اعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل، وأعلن عن نقل السفارة الأمريكية إليها. كان هذا القرار بمثابة نسف كامل للسياسة الأمريكية التقليدية، التي كانت تعتبر وضع القدس قضية تفاوضية. [13]

فقد كان إعلان ترامب بمثابة ضوء أخضر لإسرائيل لتصعيد سياساتها التهويدية. وأعطاها غطاءً دولياً لمواصلة الاستيطان، وهدم المنازل، وتغيير الوضع في الأقصى. وقال للعالم إن الولايات المتحدة تقف مع إسرائيل، حتى لو كانت تنتهك القانون الدولي. لقد كانت

"صفقة القرن" التي طرحها ترامب بمجرد محاولة لشرعنة هذا الضم، وإعطاء الفلسطينيين حكماً ذاتياً محدوداً على معازلهم، مقابل التنازل عن القدس وحق العودة. [14]

ب. اتفاقيات أبراهام: طعنة في ظهر القدس

في الوقت الذي كانت فيه القدس تتعرض لأخطر هجمة في تاريخها، جاءت الطعنة من الظهر، من بعض الأنظمة العربية. في عام 2020، قامت الإمارات والبحرين، ثم المغرب والسودان، بتوقيع "اتفاقيات أبراهام"، التي طبعت العلاقات بشكل كامل مع إسرائيل، دون أي مقابل للفلسطينيين. [15]

كانت هذه الاتفاقيات بمثابة خيانة عظمى للقدس وللقضية الفلسطينية. فقد تخلت هذه الأنظمة عن "مبادرة السلام العربية"، التي كانت تشترط إنهاء الاحتلال وقيام دولة فلسطينية عاصمتها القدس الشرقية مقابل التطبيع. ولكن بيعت القدس مقابل مصالح اقتصادية وأمنية ضيقة مع إسرائيل والولايات المتحدة. وأرسلت رسالة إلى إسرائيل بأنها يمكن أن تستمر في جرائمها، وأن العالم العربي لن يفعل شيئاً.

ج. الصمت الدولي: عجز أم تواطؤ؟

أمام هذا الهجوم الشرس على القدس، يبدو المجتمع الدولي عاجزاً أو متواطئاً. يصدر الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة بيانات إدانة خجولة، لا تغير شيئاً على الأرض. تستخدم الولايات المتحدة حق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن لحماية إسرائيل من أي قرار ملزم. أما روسيا والصين، فإنهما تكتفيان بالمراقبة، ولا تملكان الإرادة أو القدرة على تغيير المعادلة.

هذا الصمت الدولي هو الذي يسمح للجريمة بالاستمرار. ويعطي إسرائيل شعوراً بأنها فوق القانون، وأنها يمكن أن تفعل ما تشاء دون حسيب أو رقيب. ويكشف عن ازدواجية المعايير التي تحكم النظام الدولي، حيث يتم تطبيق القانون الدولي على الدول الضعيفة، ويتم تجاهله عندما يتعلق الأمر بحلفاء الولايات المتحدة.

إن المعركة على القدس هي معركة وحيدة يخوضها الفلسطينيون بصدورهم العارية. يدافعون عن مقدساتهم، وعن تاريخهم، وعن هويتهم، نيابة عن أمة بأكملها. ولكن إلى متى يمكنهم الصمود وحدهم؟

سيكولوجية تدنيس المقدسات

الحرب على القدس، وخاصة على المسجد الأقصى، لا يمكن فهمها فقط كصراع سياسي على الأرض. فهي تكشف عن ديناميكيات نفسية عميقة في العقل الإسرائيلي، تتعلق بتحول الضحية إلى جلاد، باستخدام الدين كأداة للهيمنة والانتقام.

1. من الخوف من التدنيس إلى ممارسة التدنيس:

لقد تشكلت الهوية اليهودية الحديثة إلى حد كبير حول ذكرى تدنيس المقدسات. فالهولوكوست لم يكن مجرد إبادة جسدية، بل كان أيضاً عملية تدنيس ممنهجة لكل ما هو يهودي: المعابد، والمقابر، والكتب الدينية. لقد ترك جرحاً عميقاً في النفس اليهودية، وخلق خوفاً دائماً من تكرار هذا التدنيس. [16]

ولكن المفارقة المأساوية هي أن هذا الخوف لم يؤد إلى تعاطف أكبر مع مقدسات الآخرين. بل على العكس، يبدو أنه قد خلق رغبة دفينة في ممارسة نفس فعل التدنيس على من يُنظر إليهم كأعداء. إن اقتحام المسجد الأقصى، والسماح للمستوطنين بالرقص

والغناء وأداء الطقوس فيه، هو فعل تدنيس رمزي. يقول للمسلمين: "نحن الآن الأقوياء، يمكننا أن نفعل بمقدساتكم ما فعله الآخرون بمقدساتنا". شكل من أشكال الانتقام التاريخي، الذي يمارس على الطرف الخطأ.

2. الهيكل الثالث: هوس الخلاص وعقدة النقص

إن الهوس ببناء "الهيكل الثالث" ليس مجرد مشروع ديني لبعض المتطرفين. بل يعكس أزمة هوية عميقة في قلب المشروع الصهيوني. فالصهيونية حركة علمانية في أصلها، حاولت أن تخلق "يهودياً جديداً"، قوياً ومستقلاً عن الدين. ولكن هذا المشروع فشل في توفير معنى روحي. [17]

فقد جاءت حركة الاستيطان الديني لملء هذا الفراغ. وهي تقول إن السيادة الحقيقية لن تكتمل إلا ببناء الهيكل، واستعادة "مملكة داوود". إن الهوس بالهيكل هو تعبير عن عقدة نقص دفينة. وشعور بأن الدولة اليهودية، رغم كل قوتها العسكرية، لا تزال ناقصة وغير مكتملة بدون هذا الرمز الديني المطلق. إنها محاولة لفرض معنى إلهي على مشروع

سياسي علماني، ولإثبات أن هذه الدولة ليست مجرد مغامرة استعمارية، بل هي تحقيق لنبوءة قديمة.

3. الدرس التاريخي الأعمق: خطيئة الغطرسة

إن الدرس الأعمق الذي تقدمه المعركة على القدس هو درس عن خطيئة الغطرسة (Hubris). إنها القصة القديمة للإمبراطوريات التي تسكرها القوة، وتعتقد أنها تستطيع أن تتحدى الآلهة والتاريخ. تعتقد إسرائيل اليوم أنها في أوج قوتها. لديها جيش لا يقهر، ودعم أمريكي مطلق، وتطبيع مع بعض العرب. وتعتقد أنها تستطيع أن تفرض إرادتها على القدس، وأن تهدم الأقصى وتبني الهيكل، وأن العالم سيقبل بالأمر الواقع. [18]

ولكن التاريخ يعلمنا أن الغطرسة هي بداية السقوط. إن اللعب بالمقدسات هو لعب بالنار. فالقدس ليست مجرد مدينة، بل هي فكرة، ورمز، وعقيدة. تخص مليارات البشر حول العالم. ومحاولة الاستيلاء عليها بشكل حصري، وتدنيس مقدساتها، لن تؤدي إلا إلى إشعال حرب دينية لا يمكن السيطرة عليها. قد تربح إسرائيل المعركة على الأرض، ولكنها ستخسر المعركة على الروح. وستكتشف، بعد فوات الأوان، أن الضحايا السابقين

الذين يصبحون جلادين، لا يكتبون قصة انتصار، بل يكتبون قصة مأساة جديدة، تكون نهايتها أشد إيلاماً من بدايتها.

القدس على حافة البركان

كشف هذا الفصل عن الحرب الشاملة التي تشنها إسرائيل على مدينة القدس، والتي تهدف إلى تهويدها بشكل كامل، ومحو هويتها العربية الإسلامية والمسيحية. وهذه الحرب تدور على عدة جبهات:

جبهة الأرض: من خلال الاستيطان المكثف، وهدم المنازل، ومصادرة الأراضي، لخلق أغلبية يهودية، وعزل الأحياء الفلسطينية.

جبهة الإنسان: من خلال سياسة سحب الهويات، والتمييز في الخدمات، لخلق ظروف حياة مستحيلة تدفع الفلسطينيين إلى الرحيل.

جبهة التاريخ: من خلال الاستيلاء على المنازل في البلدة القديمة، وتغيير أسماء الشوارع، لفرض رواية تاريخية يهودية حصرية.

جبهة الدين: وهي الأخطر، من خلال الحفريات تحت المسجد الأقصى، والاقتحامات المتكررة، والتخطيط لهدمه وبناء الهيكل المزعوم، بدعم من تحالف صهيوني-إنجيلي.

جبهة السياسة: من خلال استغلال الدعم الأمريكي الأعمى، والصمت العربي والدولي، لشرعنة هذه الجرائم وفرضها كأمر واقع.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: هل سيقف العالم متفرجاً بينما يتم تفجير أحد أكثر الأماكن قداسة وحساسية في العالم؟ وهل يدرك الإسرائيليون أنهم، في غطرستهم، يجرون المنطقة والعالم إلى حرب دينية لا تبقي ولا تذر؟

إن الجرائم التي تم توثيقها في هذا الجزء من الكتاب، من حصار غزة، إلى استعمار الضفة، إلى تهويد القدس، تثير سؤالاً أخلاقياً كبيراً: أين هي المساءلة؟ كيف يمكن لدولة أن ترتكب كل هذه الانتهاكات للقانون الدولي وحقوق الإنسان، وتفلت من العقاب؟ الجزء الأخير من هذا الكتاب، "المساءلة الأخلاقية"، سيحاول الإجابة على هذا السؤال. سنبدأ بفحص "صناعة الإنكار"، أي كيف يتمكن المجتمع الإسرائيلي والعالم الغربي من إنكار هذه الجرائم أو تبريرها. ثم سنبحث في "أزمة الضمير اليهودي"، ونتساءل

أين هي الأصوات اليهودية التي ترفض أن ترتكب هذه الفظائع باسم اليهودية. وأخيراً، سنطرح السؤال الأكبر: هل هناك طريق آخر؟ هل يمكن الخروج من هذه الدوامة من العنف والظلم، والبحث عن مستقبل يقوم على العدالة والمساواة لجميع سكان هذه الأرض المقدسة؟

مراجع الفصل الثامن عشر:

- [1] Itamar Ben-Gvir's stormings of the Al-Aqsa compound, both before and after becoming a minister, are widely reported in the media.
- [2] The harassment and assault of Palestinian worshippers, particularly women (Murabitat), by Israeli police is a common occurrence documented by human rights groups.
- [3] "The Jerusalem Trap: The Looming Crisis in the Holy City." International Crisis Group, Middle East Report N°159, 2015.
- [4] "Dangerous Liaison: The Politics of Jerualem's Holy Esplanade." International Crisis Group, Middle East Report N°156, 2015.
- [5] "Settlements in East Jerusalem." B'Tselem, updated regularly.

- [6] "House Demolitions in East Jerusalem." B'Tselem, updated regularly.
- [7] "The Quiet Deportation: Revocation of Residency of East Jerusalem Palestinians." HaMoked: Center for the Defence of the Individual, 2017.
- [8] "The Takeover of Palestinian Homes in East Jerusalem's Old City and Historic Basin." Ir Amim, 2019.
- [9] Greenberg, Raphael, and Adi Keinan. "The Present-Past of the City of David: A Critical Guide to the Visitor Center and the Archaeological Park." Emek Shaveh, 2014.
- [10] The Islamic Waqf in Jerusalem has repeatedly warned about the structural risks to the Al-Aqsa Mosque from Israeli excavations.

- [11] Reports on settler and official incursions into the Al-Aqsa compound are regularly published by the Palestinian Information Center and other news outlets.
- [12] Sizer, Stephen. *Christian Zionism: Road-map to Armageddon*? Inter-Varsity Press, 2004.
- [13] Trump's recognition of Jerusalem as Israel's capital was announced on December 6, 2017.
- [14] "Peace to Prosperity: A Vision to Improve the Lives of the Palestinian and Israeli People." The White House, January 2020.
- [15] The Abraham Accords were signed in September 2020.
- [16] Fackenheim, Emil L. *To Mend the World: Foundations of Future Jewish Thought*. Indiana University Press, 1994. Fackenheim discusses the theological implications of the Holocaust.

- [17] Ravitzky, Aviezer. *Messianism, Zionism, and Jewish Religious Radicalism*. University of Chicago Press, 1996.
- [18] The concept of hubris leading to downfall (nemesis) is a recurring theme in Greek tragedy and historical analysis.

(١٩)

المفارقة الأخلاقية الكبرى

قصة نورمان فينكلشتاين

في عام 2000، نشر نورمان فينكلشتاين، أستاذ العلوم السياسية الأمريكي اليهودي، كتابه الصادم "صناعة الهولوكوست: تأملات في استغلال المعاناة اليهودية ."لم يكن فينكلشتاين مجرد أكاديمي ناقد، بل هو ابن لوالدين نجوا بأعجوبة من أهوال المحرقة. والده كان أسيراً في معسكر أوشفيتز، ووالدته في مايدانيك، بينما ابتلعت أفران النازية بقية عائلتهما: فقد والده أبويه وإخوته وأخواته جميعاً، وفقدت والدته أبويها وكل إخوتها. خرجا وحيدين تقريباً من الحرب، محاطَين بفراغ رهيب تركته عائلات أُبيدت بالكامل.[1]

من هذا المنطلق، لم يكتب فينكلشتاين كتابه من باب الكراهية للذات أو الإنكار، بل من باب الغضب الأخلاقي. لقد رأى كيف يتم استخدام ذكرى الهولوكوست، التي هي

ذكرى شخصية ومقدسة بالنسبة له، كأداة سياسية لتبرير جرائم دولة إسرائيل. لقد رأى كيف تحولت معاناة والديه إلى "صناعة" تدر المليارات، وتوفر حصانة أخلاقية لدولة تمارس الاحتلال والتمييز العنصري. [2]

لقد دفع فينكلشتاين ثمناً باهظاً لشجاعته. فقد تم فصله من منصبه الأكاديمي، وتم منعه من دخول إسرائيل، وتمت شيطنته من قبل المؤسسات الصهيونية التي اتهمته بأنه "يهودي كاره لنفسه". ولكنه لم يتراجع. بل استمر في الكتابة والتحدث، ليس ضد اليهود أو اليهودية، بل ضد استخدام المعاناة اليهودية كغطاء للظلم.

إن قصة فينكلشتاين تجسد المفارقة الأخلاقية الكبرى التي تقع في قلب هذا الكتاب. وهي تطرح السؤال الأكثر إيلاماً وإلحاحاً: هل تمنح المعاناة التاريخية لشعب ما الحق في ممارسة الظلم على شعب آخر؟ هل الألم الذي عاناه اليهود في أوروبا يبرر الألم الذي يلحقونه بالفلسطينيين اليوم؟

هذا الفصل هو محاولة لمواجهة هذا السؤال الصعب. إنه ليس فصلاً عن السياسة أو التاريخ فقط، بل هو فصل عن الأخلاق والضمير. سنبدأ بتحليل هذا السؤال الأخلاقي المركزي، ونرى كيف حاولت الفلسفة والأديان الإجابة عليه. ثم سنستمع إلى أصوات يهودية نقدية أخرى، من حنة آرنت إلى إيلان بابيه، الذين رفضوا الصمت، وحذروا من الانحطاط الأخلاقي الذي يسببه الاحتلال.

سنتناول بعد ذلك الاعتراف الدولي المتزايد بأن إسرائيل هي دولة أبارتهايد، من خلال تقارير منظمات حقوق الإنسان الدولية والإسرائيلية. وسنبحث في جهود المساءلة القانونية، من خلال المحكمة الجنائية الدولية ومحكمة العدل الدولية، التي تحاول كسر جدار الحصانة الذي تتمتع به إسرائيل.

هذا الفصل هو دعوة للتفكير في معنى العدالة والمسؤولية. يجادل بأن المعاناة يجب أن تكون مدرسة للرحمة، لا مبرراً للقسوة. وأن الضحايا الحقيقيين هم أولئك الذين يتعلمون من آلامهم كيف لا يلحقون الألم بالآخرين. إنها رسالة أمل، تقول إنه حتى في أحلك

الظروف، فإن الضمير الإنساني يمكن أن ينتصر، وأن هناك دائماً طريقاً آخر غير طريق العنف والانتقام.

السؤال الأخلاقي: هل الألم يبرر إيلام الآخرين؟

إن جوهر المفارقة الإسرائيلية يكمن في هذا السؤال البسيط والمركب: هل المعاناة تمنح رخصة لممارسة الظلم؟ إن الخطاب الصهيوني السائد يجيب على هذا السؤال بـ"نعم" ضمنية. فهو يجادل بأن حجم المعاناة اليهودية، وخاصة الهولوكوست، يمنح إسرائيل "حقوقاً خاصة"، ويضعها في فئة أخلاقية فريدة، لا يمكن الحكم عليها بنفس المعايير التي يحكم بها على الدول الأخرى. [3]

هذا المنطق خطير ومعيب من الناحية الأخلاقية. فالأخلاق، في جوهرها، هي مبدأ عالمي. تقوم على فكرة أن ما هو خطأ بالنسبة لي، هو خطأ بالنسبة لك أيضاً. وأن المبادئ الأساسية للعدالة والكرامة الإنسانية تنطبق على الجميع، بغض النظر عن تاريخهم أو هويتهم. وإن القول بأن معاناة مجموعة ما تبرر ظلمها لمجموعة أخرى هو تدمير لمفهوم الأخلاق نفسه.

أ. المعاناة كمدرسة للرحمة، لا كذريعة للقسوة

إن التجربة الإنسانية العالمية، كما تعبر عنها الأديان والفلسفات الكبرى، تعلمنا أن المعاناة يجب أن تكون مدرسة للرحمة. فالشخص الذي ذاق طعم الظلم هو الأقدر على فهم معاناة المظلومين. والشعب الذي تعرض للاضطهاد هو الأولى بأن يرفض اضطهاد الآخرين. هذا الاختبار الأخلاقي الحقيقي للمعاناة: هل يحولك إلى شخص أكثر إنسانية وتعاطفاً، أم إلى شخص أكثر قسوة ومرارة؟

لقد كتب الفيلسوف الفرنسي ألبير كامو، الذي عايش الاحتلال النازي لفرنسا، يقول: "لقد تعلمت من المعاناة أن الشيء الوحيد الذي لا يغتفر هو إلحاق المعاناة بالآخرين". [4] هذه هي الحكمة التي يبدو أن المشروع الصهيوني قد نسيها. فبدلاً من أن تكون ذكرى الهولوكوست دافعاً للدفاع عن حقوق جميع المظلومين في العالم، تم تحويلها إلى أداة لتبرير اضطهاد شعب آخر.

ب. التحول المأساوي: من الضحية النبيلة إلى الجلاد المنكر

يمكن تتبع التحول الأخلاقي لإسرائيل عبر عدة مراحل:

الضحية النبيلة (1945-1967): في هذه الفترة، كانت إسرائيل، في نظر العالم الغربي، هي الضحية التي نجت من الإبادة، وتحاول بناء وطن آمن. كانت تتمتع بتعاطف ودعم واسعين.

الضحية المبررة (1967-1982): بعد حرب 1967، بدأت إسرائيل في استخدام معاناتها التاريخية لتبرير احتلالها للأراضي العربية. كان المنطق هو: "لقد حاولوا إبادتنا، لذلك من حقنا أن نحتفظ بهذه الأراضي كضمانة أمنية".

الضحية المتسلطة (1982-2000): مع غزو لبنان والانتفاضة الأولى، بدأت إسرائيل ترفض أي نقد لسلوكها، بحجة أنها لا تزال الضحية. أصبح أي نقد لإسرائيل يعتبر "معاداة للسامية".

الضحية الجلادة (2000-الآن): مع الانتفاضة الثانية، وحروب غزة، وترسيخ نظام الأبارتهايد، أصبحت إسرائيل تمارس على الفلسطينيين نفس أشكال القمع التي مورست على اليهود في أوروبا: الحصار، والعقاب الجماعي، وتدمير المنازل، والتمييز العنصري. مع تمسكها بهوية الضحية.

الجلاد المنكر (المرحلة الحالية): في هذه المرحلة، لم تعد إسرائيل تكتفي بتبرير جرائمها، بل أصبحت تنكرها تماماً. فهي تنكر وجود الحصار، وتنكر الأبارتهايد، وتصف تقارير منظمات حقوق الإنسان بأنها "أكاذيب". إنها تعيش في حالة من الإنكار المرضي، الذي يسمح لها بالجمع بين سلوك الجلاد وعقلية الضحية.

ج. قانون التناقض النفسي:

هناك قانون نفسي خطير يعمل هنا: كلما كانت الجريمة أشنع، زاد تمسك المجرم بهوية الضحية لتبريرها. فالإنسان لا يستطيع أن يعيش مع صورة نفسه كمجرم. لذلك، فهو يحتاج إلى بناء رواية بديلة، يصور فيها نفسه على أنه الضحية، وأن ضحيته هي المعتدي. وهذا هو بالضبط ما يفعله المجتمع الإسرائيلي. فتمسكه الشديد بذكرى الهولوكوست، واستخدامها في كل مناسبة، ليس مجرد تلاعب سياسي، بل هو أيضاً حاجة نفسية عميقة، لتهدئة الضمير المذنب، وتبرير ما لا يمكن تبريره.

المقاومة الأخلاقية من الداخل

على الرغم من أن الخطاب السائد في إسرائيل والعالم الغربي يدعم الاحتلال، إلا أنه كانت هناك دائماً أصوات يهودية شجاعة، رفضت الصمت، وحذرت من الكارثة

الأخلاقية التي يقود إليها المشروع الصهيوني. هذه الأصوات، التي غالباً ما يتم تهميشها وشيطنتها، تمثل الأمل في أن الضمير الإنساني لا يمكن إخماده بالكامل.

أ. حنة آرنت: تحذير من "تفاهة الشر"

كانت الفيلسوفة اليهودية الألمانية حنة آرنت من أوائل الذين حذروا من مخاطر القومية اليهودية. في عام 1948، كتبت مع آخرين رسالة إلى صحيفة نيويورك تايمز، حذرت فيها من أن حزب حيروت الذي يتزعمه مناحيم بيغن (والذي أصبح لاحقاً حزب الليكود) يحمل أفكاراً "فاشية". [5]

لاحقاً، في كتابها الشهير "إيخمان في القدس"، صاغت آرنت مصطلح "تفاهة الشر" (The Banality of Evil). وهي تجادل بأن الشر الأعظم لا يرتكبه بالضرورة وحوش ساديون، بل يرتكبه أناس عاديون، بيروقراطيون وموظفون، يفعلون ما يؤمرون به دون تفكير، ويشاركون في آلة ضخمة من الجريمة، وهم يعتقدون أنهم يقومون بعمل روتيني. [6] هذا التحليل ينطبق بشكل مخيف على نظام الاحتلال الإسرائيلي، الذي يعتمد على

آلاف الجنود والموظفين والمحامين الذين يديرون نظاماً من القمع، وهم يعتقدون أنهم مجرد "تروس في الآلة".

ب. يشعياهو ليبوفيتش: ضمير إسرائيل المتمرّد

كان يشعياهو ليبوفيتش، وهو عالم ومفكر ديني إسرائيلي، من أشد منتقدي الاحتلال. لقد وصف الاحتلال بأنه "سرطان" في جسد إسرائيل، وحذر من أنه سيؤدي إلى ظهور "يهود-نازيين". لقد جادل بأن عبادة الأرض والدولة هي شكل من أشكال الوثنية، وأن اليهودية الحقيقية تقوم على إطاعة وصايا الله، وليس على السيطرة على شعب آخر. [7]

لقد كان ليبوفيتش صوتاً نبوياً، أثار غضب المؤسسة الإسرائيلية، ولكنه نبه إلى الخطر الأخلاقي الذي يمثله الاحتلال على اليهودية نفسها. لقد رأى أن الاحتلال لا يدمر الفلسطينيين فقط، بل يدمر أيضاً روح المحتل.

ج. "المؤرخون الجدد" وما بعد الصهيونية:

في الثمانينيات، ظهر جيل من المؤرخين الإسرائيليين، أطلق عليهم اسم "المؤرخون الجدد"، مثل إيلان بابيه، وبيني موريس، وآفي شلايم. لقد استخدموا الأرشيفات الإسرائيلية التي تم الكشف عنها حديثاً، لإعادة كتابة تاريخ الصهيونية وحرب 1948. أظهروا بالأدلة أن النكبة لم تكن نتيجة فرار الفلسطينيين الطوعي، بل كانت نتيجة عملية تطهير عرقي ممنهجة، خططت لها ونفذتها القيادة الصهيونية. [8]

فتح عمل هؤلاء المؤرخين الباب أمام تيار فكري أوسع، يعرف بـ "ما بعد الصهيونية". يجادل مفكرو ما بعد الصهيونية بأن الصهيونية، كمشروع استعماري، قد وصلت إلى طريق مسدود، وأن الحل الوحيد هو تفكيك الدولة اليهودية، وإقامة دولة ديمقراطية علمانية لجميع مواطنيها، من النهر إلى البحر، على أساس المساواة الكاملة. [9]

د. أصوات من الشتات: من تشومسكي إلى فينكلشتاين

خارج إسرائيل، كان هناك العديد من المفكرين اليهود الذين انتقدوا الصهيونية وإسرائيل بشدة. نعوم تشومسكي، أحد أبرز مفكري عصرنا، وصف إسرائيل بأنها "دولة عميلة"

للإمبريالية الأمريكية، وجادل بأن حل الدولتين أصبح مستحيلاً بسبب الاستيطان، وأن الحل الوحيد هو دولة ثنائية القومية. [10]

وكما رأينا في بداية الفصل، يمثل نورمان فينكلشتاين الجيل الجديد من النقاد اليهود، الذين يربطون بين النقد الأخلاقي لإسرائيل والنقد السياسي لاستغلال ذكرى الهولوكوست. هؤلاء المفكرون، وغيرهم الكثير، يمثلون تقليداً يهودياً عريقاً من النقد الذاتي والالتزام بالعدالة العالمية. إنهم يذكروننا بأن اليهودية ليست كتلة واحدة، وأن هناك دائماً ضميراً حياً يرفض أن ترتكب الجرائم باسمه.

اعتراف العالم بإسرائيل كدولة أبارتهايد

لفترة طويلة، كانت تهمة الأبارتهايد الموجهة لإسرائيل تعتبر من المحرمات في الخطاب الغربي السائد. كان يتم رفضها باعتبارها دعاية معادية للسامية، ومقارنة غير عادلة. ولكن في السنوات الأخيرة، بدأ هذا الحاجز ينهار. فقد بدأت منظمات حقوق الإنسان الكبرى، بما في ذلك منظمات إسرائيلية، في استخدام هذا المصطلح لوصف الواقع في فلسطين المحتلة.

أ. تقارير حقوقية صادمة: بتسيلم وهيومن رايتس ووتش

في يناير 2021، نشرت منظمة "بتسيلم"، وهي أكبر منظمة لحقوق الإنسان في إسرائيل، تقريراً تاريخياً بعنوان "نظام تفوق يهودي من النهر إلى البحر: هذا أبارتهايد". خلص التقرير إلى أن إسرائيل لا تدير نظامين منفصلين (ديمقراطية داخل حدودها، واحتلال عسكري في الأراضي المحتلة)، بل تدير نظاماً واحداً، يهدف إلى ترسيخ التفوق اليهودي على كامل الأرض الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط. وهذا النظام، كما يقول التقرير، يتوافق مع التعريف القانوني الدولي لجريمة الأبارتهايد. [11]

بعد بضعة أشهر، في أبريل 2021، نشرت منظمة "هيومن رايتس ووتش" الدولية تقريراً مفصلاً بنفس القدر، بعنوان "تجاوزوا العتبة: السلطات الإسرائيلية وجريمتي الأبارتهايد والاضطهاد". وصل التقرير إلى نفس النتيجة: أن ممارسات إسرائيل ضد الفلسطينيين، بما في ذلك التمييز المنهجي والقمع الشديد، ترقى إلى مستوى جريمتي الأبارتهايد والاضطهاد، كما هما معرفتان في القانون الدولي. [12]

ثم في فبراير 2022، انضمت منظمة العفو الدولية إلى هذا الإجماع، ونشرت تقريراً بعنوان "أبارتهايد إسرائيل ضد الفلسطينيين: نظام قاس من الهيمنة وجريمة ضد الإنسانية". [13]

إن أهمية هذه التقارير تكمن في أنها لا تأتي من جهات معادية لإسرائيل، بل من منظمات حقوق إنسان مرموقة وذات مصداقية عالية. لقد حطمت هذه التقارير المحرمات، وجعلت من الممكن والمشروع وصف إسرائيل بأنها دولة أبارتهايد في وسائل الإعلام والدوائر السياسية الغربية.

ب. مقارنات مع جنوب أفريقيا: شهادات من الداخل

إن المقارنة بين إسرائيل وجنوب أفريقيا في عهد الأبارتهايد ليست مجرد تشبيه. لقد أكد العديد من القادة الجنوب أفريقيين الذين ناضلوا ضد الأبارتهايد، أن ما رأوه في فلسطين هو أسوأ من نظام الأبارتهايد الذي عانوا منه. قال نيلسون مانديلا نفسه: "نحن نعلم جيداً أن حريتنا غير مكتملة بدون حرية الفلسطينيين". [14]

وقال رئيس الأساقفة ديزموند توتو، الحائز على جائزة نوبل للسلام، بعد زيارة للأراضي المحتلة: "لقد ذكرني هذا كثيراً بما حدث لنا نحن السود في جنوب أفريقيا. لقد رأيت الإذلال الذي يتعرض له الفلسطينيون على الحواجز ونقاط التفتيش، وهم يعانون كما عانينا عندما كانت تحركاتنا مقيدة". [15]

إن شهادات هؤلاء القادة، الذين يعرفون الأبارتهايد عن تجربة شخصية، لها وزن أخلاقي كبير. فهي تؤكد أن ما يحدث في فلسطين ليس مجرد "صراع معقد"، بل هو نظام من التمييز العنصري والقمع، يجب على العالم أن يتخذ موقفاً منه، كما فعل مع جنوب أفريقيا.

ج. المساءلة القانونية: العدالة المؤجلة

إن الاعتراف بإسرائيل كدولة أبارتهايد يفتح الباب أمام المساءلة القانونية. فجريمة الأبارتهايد هي جريمة ضد الإنسانية بموجب القانون الدولي، ويمكن ملاحقة مرتكبيها أمام المحاكم الدولية.

في مارس 2021، أعلنت المدعية العامة للمحكمة الجنائية الدولية عن فتح تحقيق رسمي في جرائم الحرب التي ارتكبت في الأراضي الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك جريمة الأبارتهايد. [16] وفي ديسمبر 2022، طلبت الجمعية العامة للأمم المتحدة من محكمة العدل الدولية إصدار رأي استشاري حول التبعات القانونية للاحتلال الإسرائيلي الطويل الأمد.

هذه التحركات القانونية لا تزال في بدايتها، وتواجه عقبات سياسية هائلة، خاصة من الولايات المتحدة. ولكنها تمثل بداية مهمة. فهي تقول لإسرائيل إن عصر الحصانة قد انتهى، وأن العدالة، حتى لو تأخرت، لا بد أن تأتي في النهاية. إنها تعطي أملاً للفلسطينيين بأن العالم لن يتركهم وحدهم، وأن القانون الدولي يمكن أن يكون سلاحاً في أيديهم في نضالهم من أجل الحرية والعدالة.

نهاية البراءة

لقد حاول هذا الفصل مواجهة المفارقة الأخلاقية الكبرى التي يطرحها سلوك دولة إسرائيل. لقد رأينا كيف أن المعاناة التاريخية للشعب اليهودي لم تؤد إلى تعاطف أكبر

مع معاناة الفلسطينيين، بل تم استخدامها كذريعة لممارسة ظلم جديد. النقاط الرئيسية التي تمت مناقشتها هي:

السؤال الأخلاقي المركزي: إن القول بأن الألم يبرر إيلام الآخرين هو تدمير لمفهوم الأخلاق نفسه. فالمعاناة يجب أن تكون مدرسة للرحمة، لا مبرراً للقسوة.

التحول المأساوي: لقد تتبعنا كيف تحولت إسرائيل من ضحية نبيلة في نظر العالم، إلى جلاد منكر يعيش في حالة من الإنكار المرضي لجرائمه.

أصوات الضمير: على الرغم من الخطاب السائد، كانت هناك دائماً أصوات يهودية شجاعة، من حنة آرنت إلى إيلان بابيه، رفضت الصمت، وحذرت من الانحطاط الأخلاقي الذي يسببه الاحتلال.

الاعتراف العالمي: لقد بدأ العالم، من خلال تقارير منظمات حقوق الإنسان الكبرى وشهادات قادة جنوب أفريقيا، يعترف بأن إسرائيل هي دولة أبارتهايد.

المساءلة القانونية: إن التحركات الأخيرة في المحكمة الجنائية الدولية ومحكمة العدل الدولية تمثل بداية نهاية عصر الحصانة الإسرائيلية، وتعطي أملاً في تحقيق العدالة.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: هل يمكن لإسرائيل أن تنجو من هذا الاختبار الأخلاقي؟ وهل يمكن للمجتمع الإسرائيلي أن يواجه حقيقة ما أصبح عليه، وأن يختار طريقاً مختلفاً؟

إن الإجابة على هذا السؤال تعتمد على وجود أصوات نقدية داخل المجتمع اليهودي نفسه. فالتغيير الحقيقي لا يمكن أن يأتي من الخارج فقط، بل يجب أن ينبع من الداخل. الفصل التالي، "أزمة الضمير اليهودي"، سيغوص أعمق في هذا الموضوع. سنتساءل: أين هي الأصوات اليهودية المعتدلة؟ ولماذا يبدو أن الخطاب الديني والسياسي في إسرائيل قد تم اختطافه من قبل المتطرفين؟ سنبحث في الانقسام بين يهود إسرائيل ويهود الشتات، وفي التوتر بين الهوية اليهودية والقيم الليبرالية. وسنطرح السؤال الصعب: هل الصهيونية، في جوهرها، متوافقة مع القيم الأخلاقية لليهودية؟ الفصل التالي عبارة عن رحلة في روح اليهودية المعاصرة، وفي الصراع الدائر داخلها بين القومية المتعصبة والضمير الإنساني.

مراجع الفصل التاسع عشر:

- [1] Finkelstein, Norman G. *The Holocaust Industry*: *Reflections on the Exploitation of Jewish Suffering*. Verso, 2000.
- [2] Ibid.
- [3] This argument is a common trope in Zionist apologetics, often framed as "Israel has a right to defend itself" in ways that other nations are not afforded.
- [4] This sentiment is a core theme in Albert Camus's writings, particularly *The Plague* and *The Rebel*.
- [5] "New Palestine Party: Visit of Menachem Begin and Aims of Political Movement Discussed." Letter to the Editor, *The New York Times,* December 4, 1948. Signed by Albert Einstein, Hannah Arendt, and others.
- [6] Arendt, Hannah. *Eichmann in Jerusalem*: *A Report on the Banality of Evil*. Penguin Classics, 2006.

- [7] Leibowitz, Yeshayahu. *Judaism, Human Values, and the Jewish State*. Harvard University Press, 1992.
- [8] Pappe, Ilan. *The Ethnic Cleansing of Palestine*. Oneworld Publications, 2006. This is a seminal work of the "New Historians."
- [9] Post-Zionism is a broad intellectual current. See, for example, Kimmerling, Baruch. *The Invention and Decline of Israeliness: State, Society, and the Military*. University of California Press, 2001.
- [10] Chomsky, Noam. *On Palestine*. Edited by Frank Barat, Haymarket Books, 2015.
- [11] "A regime of Jewish supremacy from the Jordan River to the Mediterranean Sea: This is apartheid." B'Tselem, January 2021.

- [12] "A Threshold Crossed: Israeli Authorities and the Crimes of Apartheid and Persecution." Human Rights Watch, April 2021.
- [13] "Israel's apartheid against Palestinians: a cruel system of domination and a crime against humanity." Amnesty International, February 2022.
- [14] Nelson Mandela's statement was made in a speech in 1997.
- [15] Tutu, Desmond. "Apartheid in the Holy Land." *The Guardian*, April 29, 2002.
- [16] The ICC Prosecutor's decision to open an investigation was announced on March 3, 2021.

(٢٠)

أزمة الضمير اليهودي

قصة راشيل جولدبرغ

في عام 2010، وقفت شابة يهودية أمريكية تدعى راشيل جولدبرغ، وهي حفيدة لناجين من الهولوكوست، أمام مؤتمر لمنظمة "جي ستريت"، وهي لوبي يهودي أمريكي ليبرالي. لم تكن راشيل سياسية أو أكاديمية، بل كانت مجرد طالبة جامعية. ولكن كلماتها كان لها وقع الصاعقة. قالت راشيل:

"لقد نشأت وأنا أتعلم عن الهولوكوست. لقد تعلمت أننا يجب أن لا نصمت أبداً في وجه الظلم. لقد تعلمت أن "لن يتكرر ذلك أبداً" تعني أنها لن تتكرر لأي شخص. ولكن بعد ذلك ذهبت إلى إسرائيل، ورأيت بأم عيني ما يحدث للفلسطينيين. رأيت الجدار، ورأيت الحواجز، ورأيت

الإذلال. وتساءلت: كيف يمكننا، نحن الذين عانينا الكثير، أن نفعل هذا بشعب آخر؟ كيف يمكننا أن نصمت؟" [1]

كانت كلمات راشيل البسيطة تعبيراً عن أزمة ضمير، بدأت تتسع وتتجذر في أوساط الجيل الجديد من اليهود في الشتات، وخاصة في الولايات المتحدة. فهم جيل لم يعايش الهولوكوست، ولم يشعر بالذنب الوجودي الذي شعر به آباؤهم وأجدادهم. جيل نشأ على قيم العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان، ويرى تناقضاً صارخاً بين هذه القيم وبين سلوك دولة إسرائيل.

هذا الفصل هو قصة هذا الانقسام المتزايد. فهو يوثق ما يمكن اعتباره أهم تحول في تاريخ اليهودية المعاصرة: التمرد الجيلي والأخلاقي ضد الصهيونية. سنبدأ بتحليل ظاهرة الجيل الجديد من اليهود الناقدين، الذين يرفضون وراثة جرائم آبائهم، ويطالبون بيهودية تقوم على العدالة، لا على القوة.

سنتناول بعد ذلك صعود الحركات اليهودية المناهضة للصهيونية، مثل "الصوت اليهودي من أجل السلام" و"إذا لم يكن الآن"، التي أصبحت لاعباً رئيسياً في حركة التضامن مع فلسطين. وسنبحث في تراجع الدعم لإسرائيل في الجامعات الأمريكية، وكيف أن الحقيقة حول الاحتلال والأبارتهايد أصبحت تصل إلى الأجيال الجديدة، رغم كل محاولات الدعاية الصهيونية.

أخيراً، سنطرح السؤال الكبير حول مستقبل العلاقة بين يهود الشتات وإسرائيل. وهل نحن نشهد بداية طلاق تاريخي بين أكبر جالية يهودية في العالم وبين "الدولة اليهودية"؟ وماذا يعني ذلك لمستقبل الصهيونية نفسها؟

هذا الفصل ليس مجرد تحليل سياسي، بل هو أيضاً قصة أمل. يظهر أن الضمير الإنساني لا يمكن ترويضه. وأن الأجيال الجديدة، حتى تلك التي تنتمي إلى المجموعة المهيمنة، يمكن أن تختار الوقوف مع المظلومين. إنه دليل على أن الصهيونية، في سعيها لخلق "يهودي جديد" قوي ومتعجرف، قد فشلت في قتل الروح الأخلاقية لليهودية، التي لا تزال تنبض في قلوب شباب مثل راشيل جولدبرغ.

التمرد الجيلي: "لا باسمنا"

إن أهم تطور في المشهد اليهودي الأمريكي في العقدين الماضيين هو ظهور فجوة جيلية هائلة في الموقف من إسرائيل. فبينما لا يزال الجيل الأكبر سناً، الذي تشكل وعيه في ظل الهولوكوست وحرب 1967، يدعم إسرائيل بشكل أعمى تقريباً، فإن الجيل الأصغر سناً، جيل الألفية وما بعدها، يتبنى مواقف أكثر انتقاداً بكثير. [2]

أ. قانون التآكل الجيلي: إحصائيات صادمة

تؤكد استطلاعات الرأي هذا الاتجاه بشكل قاطع. أظهر استطلاع أجراه مركز بيو للأبحاث عام 2021 أن 51% فقط من اليهود الأمريكيين الذين تزيد أعمارهم عن 65 عاماً يقولون إنهم يشعرون بارتباط عاطفي قوي بإسرائيل. أما بين اليهود الذين تقل أعمارهم عن 30 عاماً، فإن هذه النسبة تنخفض إلى 35%. [3]

والأخطر من ذلك بالنسبة للمؤسسة الصهيونية هو أن هذه الفجوة لا تقتصر على المشاعر، بل تمتد إلى السياسة. أظهر نفس الاستطلاع أن 60% من اليهود الأمريكان تحت سن

35 ينتقدون السياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين علناً. وفي استطلاع آخر، قال 25% من الناخبين اليهود الأمريكان إنهم يعتقدون أن إسرائيل هي دولة أبارتهايد. [4]

يمكن تلخيص هذا الاتجاه في "قانون التآكل الجيلي": كل جيل يهودي جديد أقل دعماً لإسرائيل من الذي سبقه. وهذا اتجاه لا يمكن عكسه، لأنه لا يتعلق بحدث سياسي معين، بل يتعلق بتغير أعمق في القيم والهوية.

ب. صراع القيم: العدالة الاجتماعية مقابل التضامن العرقي

لماذا يحدث هذا التمرد الجيلي؟ السبب الرئيسي هو أن الجيل الجديد من اليهود الأمريكان نشأ في مجتمع مختلف تماماً عن مجتمع آبائهم. لقد نشأوا في أمريكا ما بعد حركة الحقوق المدنية، حيث أصبحت قيم العدالة العرقية والمساواة وحقوق الإنسان جزءاً لا يتجزأ من هويتهم الليبرالية. بالنسبة لهذا الجيل، فإن دعم دولة تمارس التمييز العنصري والاحتلال هو خيانة لهذه القيم. [5]

لقد أصبح الشباب اليهودي يواجه صراعاً حاداً بين قيمتين: قيمة التضامن العرقي مع اليهود الآخرين (بما في ذلك الإسرائيليين)، وقيمة العدالة العالمية لجميع البشر (بما في ذلك الفلسطينيين). وبالنسبة لعدد متزايد منهم، فإن قيمة العدالة هي التي تنتصر. فهم يقولون: "يهوديتي تعلمني أن أقف مع المظلوم، وليس مع الظالم، حتى لو كان الظالم يهودياً".

ج. رفض وراثة الجرائم: "لسنا مسؤولين"

هناك عامل نفسي آخر مهم. الجيل الجديد يرفض أن يرث ذنب آبائه وأجداده. فهم لم يشاركوا في الهولوكوست، ولم يشاركوا في النكبة. بالتالي لا يشعرون بالمسؤولية الشخصية عن هذه الأحداث التاريخية. ولذلك، فهم يرفضون المنطق الذي يقول إن عليهم أن يدعموا إسرائيل بشكل غير مشروط، كتعويض عن الهولوكوست، أو كدفاع ضد معاداة السامية.

يقولون: "نحن نرفض أن يتم استخدام تاريخنا كذريعة لاضطهاد شعب آخر. نحن نريد يهودية تنظر إلى المستقبل، لا يهودية تعيش في الماضي. نريد يهودية العدالة، لا يهودية

القوة". هذا الموقف يمثل قطيعة جذرية مع الصهيونية التقليدية، التي بنت شرعيتها على فكرة أن اليهود هم ضحايا التاريخ.

صعود اليسار اليهودي

لم يقتصر التمرد الجيلي على المواقف الفردية، بل تبلور في شكل حركات سياسية منظمة، أصبحت تشكل تحدياً جدياً لهيمنة المؤسسة الصهيونية التقليدية على الحياة اليهودية الأمريكية. هذه الحركات، التي يمكن تسميتها بـ"اليسار اليهودي الجديد"، تستعيد تقليداً يهودياً عريقاً من النضال من أجل العدالة الاجتماعية.

أ. "الصوت اليهودي من أجل السلام" (JVP): رأس الحربة

تعتبر منظمة "الصوت اليهودي من أجل السلام" (Jewish Voice for Peace) أكبر وأهم هذه الحركات. تأسست في عام 1996، ونمت بشكل كبير في العقدين الماضيين، وأصبحت تضم اليوم أكثر من 200,000 عضو وداعم. [6]

تتبنى JVP موقفاً واضحاً مناهضاً للصهيونية. وهي تدعم حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات (BDS) ضد إسرائيل، وتدعو إلى إنهاء الاحتلال،

وتحقيق حق العودة للاجئين الفلسطينيين. كما تعمل على بناء تحالفات مع الحركات التقدمية الأخرى في الولايات المتحدة، مثل حركة "حياة السود مهمة" (Black Lives Matter)، وتجادل بأن النضال من أجل حرية الفلسطينيين هو جزء لا يتجزأ من النضال العالمي ضد العنصرية والاستعمار.

إن أهمية JVP تكمن في أنها حطمت الاحتكار الصهيوني للحديث باسم اليهود. وأظهرت للعالم أن هناك عدداً كبيراً من اليهود الذين يرفضون الصهيونية، ويقفون في تضامن كامل مع الشعب الفلسطيني.

ب. "إذا لم يكن الآن" (IfNotNow): العصيان المدني

تأسست حركة "إذا لم يكن الآن" (IfNotNow) في عام 2014، خلال الحرب الإسرائيلية على غزة. وهي حركة يقودها الشباب، وتستخدم أساليب العصيان المدني اللاعنفي لتحدي دعم المؤسسة اليهودية الأمريكية للاحتلال. [7]

يقوم نشطاء IfNotNow بتنظيم اعتصامات ومظاهرات في مكاتب المنظمات اليهودية الكبرى، مثل "أيباك" و"الاتحاد من أجل اليهودية الإصلاحية". يطالبون هذه المنظمات بإنهاء صمتها عن جرائم الاحتلال، واتخاذ موقف أخلاقي واضح. شعارهم، "إذا لم يكن الآن، فمتى؟"، هو اقتباس من الحاخام هيليل، وهو يعبر عن إحساسهم بالإلحاح الأخلاقي.

ج. تراجع "بيرثرايت" والجامعات: المعركة على العقول

إن تأثير هذه الحركات الجديدة واضح في الجامعات الأمريكية، التي كانت دائماً ساحة معركة رئيسية على الرأي العام. لقد أصبحت مجموعات مثل "طلاب من أجل العدالة في فلسطين" (SJP)، والتي تضم العديد من الطلاب اليهود، قوة رئيسية في حرم الجامعات. وقد نجحت في إقناع العديد من اتحادات الطلاب بتبني قرارات تدعم حركة المقاطعة (BDS). [8]

في المقابل، تواجه المنظمات الصهيونية صعوبة متزايدة في تجنيد الشباب. برنامج "بيرثرايت" (Birthright)، الذي يقدم رحلات مجانية إلى إسرائيل للشباب اليهودي، شهد انخفاضاً

بنسبة 40% في عدد المشاركين في السنوات الأخيرة. [9] فقد أصبح الشباب اليهودي يدرك أن هذه الرحلات هي أداة دعاية، تهدف إلى غسل أدمغتهم، وإخفاء حقيقة الاحتلال عنهم. بل إن بعض النشطاء قاموا بتنظيم رحلات "بيرثرايت بديلة"، تأخذ الشباب اليهودي لرؤية الواقع في الضفة الغربية، والالتقاء بالناشطين الفلسطينيين والإسرائيليين المناهضين للاحتلال.

هذه المعركة على عقول الشباب اليهودي هي معركة مهمة لمستقبل الصهيونية. وإذا استمرت الاتجاهات الحالية، فإن الصهيونية تخاطر بفقدان جيل كامل، وربما إلى الأبد.

مستقبل العلاقة بين الشتات وإسرائيل

إن الانقسام المتزايد بين يهود الشتات، وخاصة في الولايات المتحدة، وبين دولة إسرائيل، يطرح سؤالاً وجودياً على المشروع الصهيوني. فالصهيونية قامت على فكرة أن إسرائيل هي "دولة الشعب اليهودي" بأسره، وأنها تمثل مركز حياتهم وهويتهم. ولكن ماذا يحدث عندما يرفض نصف هذا الشعب، أو أكثر، هذه الفكرة؟

أ. السؤال الوجودي: ماذا تعني "دولة اليهود" إذا كان نصف اليهود ضدها؟

هذا السؤال يهدد الأساس الأيديولوجي للصهيونية أكثر من أي جيش عربي أو مقاومة فلسطينية. فإذا لم تعد إسرائيل تمثل يهود العالم، فما هي شرعيتها كـ"دولة يهودية"؟ هل هي مجرد دولة للإسرائيليين، الذين يشكلون أقل من نصف يهود العالم؟ أم هي مشروع استعماري، فرض نفسه على المنطقة، وادعى أنه يتحدث باسم شعب لم يمنحه هذا التفويض؟

هذا التحدي الداخلي هو الأخطر على الصهيونية، لأنه يأتي من داخل العائلة. لا يمكن للمؤسسة الصهيونية أن تتهم ملايين اليهود الناقدين بأنهم "معادون للسامية". ولا يمكنها أن تتجاهل أصواتهم إلى الأبد. فالصهيونية تواجه الن أزمة شرعية حقيقية، لم تواجهها من قبل.

ب. سيناريوهات المستقبل: من الانفصال إلى المصالحة

هناك عدة سيناريوهات محتملة لمستقبل العلاقة بين يهود الشتات وإسرائيل:

سيناريو الطلاق: في هذا السيناريو، يستمر الانقسام في الاتساع، حتى يصل إلى نقطة اللاعودة. يتوقف يهود الشتات عن دعم إسرائيل سياسياً ومالياً، ويركزون على بناء حياة يهودية نابضة بالحياة في بلدانهم، تقوم على قيم العدالة الاجتماعية والتعددية. تصبح إسرائيل دولة معزولة، تعتمد فقط على قوتها العسكرية وعلى دعم المسيحيين الإنجيليين. هذا السيناريو قد يؤدي في النهاية إلى انهيار المشروع الصهيوني بشكله الحالي.

سيناريو الهيمنة الإسرائيلية: في هذا السيناريو، تنجح إسرائيل والمؤسسة الصهيونية في قمع الأصوات الناقدة، والحفاظ على دعم الأغلبية الصامتة من يهود الشتات. يتم ذلك من خلال تكثيف الدعاية، وتخويف الناس من معاداة السامية، وتعريف أي نقد لإسرائيل على أنه خيانة. هذا السيناريو قد ينجح على المدى القصير، ولكنه سيؤدي إلى خلق يهودية منقسمة ومسمومة، تفقد حيويتها الأخلاقية.

سيناريو المصالحة والتحول: هذا هو السيناريو الأكثر تفاؤلاً، والأقل احتمالاً في الوقت الحالي. في هذا السيناريو، يؤدي ضغط يهود الشتات، بالإضافة إلى نضال الفلسطينيين، إلى إجبار إسرائيل على تغيير مسارها. تنهي إسرائيل الاحتلال، وتتخلى عن نظام

الأبارتهايد، وتتحول إلى دولة ديمقراطية حقيقية لجميع مواطنيها. عندئذ فقط، يمكن أن تحدث مصالحة حقيقية بين إسرائيل وبين يهود الشتات، على أساس من القيم المشتركة للعدالة والمساواة.

ج. الأمل الإنساني: الضمير أقوى من القومية

بغض النظر عن السيناريو الذي سيتحقق، فإن الانقسام الحالي في الجالية اليهودية هو علامة صحة، وليس علامة ضعف. فهو دليل على أن الصهيونية، بكل قوتها وجبروتها، لم تنجح في قتل الضمير اليهودي. ويثبت أن هناك تقليداً أخلاقياً عميقاً في اليهودية، يرفض عبادة القوة، ويصر على أن العدالة هي القيمة العليا.

إن الشباب اليهودي الذي يقف اليوم ويقول "لا باسمنا"، لا يخون يهوديته، بل يستعيدها. ويستعيد التقليد لكل الذين انتقدوا ملوك إسرائيل الظالمين. ويستعيد التقليد الاشتراكي للعمال اليهود الذين ناضلوا من أجل حقوق جميع العمال. ويستعيد ايضاً التقليد الإنساني للمفكرين اليهود الذين آمنوا بأن خلاص اليهود لا يكمن في الانعزال والقومية، بل في الانخراط في النضال من أجل عالم أفضل للجميع.

يثبتون أن الضمير الإنساني يمكن أن يكون أقوى من الولاء العرقي، وأن العدالة يمكن أن تكون أقوى من القوة. وهنا، يكمن الأمل، ليس فقط للفلسطينيين واليهود، بل للإنسانية جمعاء.

بداية النهاية للصهيونية؟

لقد وثق هذا الفصل لظاهرة تاريخية بالغة الأهمية: التمرد الأخلاقي والجيلي ليهود الشتات، وخاصة في الولايات المتحدة، ضد الصهيونية ودولة إسرائيل. النقاط الرئيسية التي تمت مناقشتها هي:

التمرد الجيلي: هناك فجوة جيلية هائلة في الموقف من إسرائيل، حيث أن الشباب اليهودي أكثر انتقاداً من آبائهم وأجدادهم. هذا "التآكل الجيلي" في الدعم هو اتجاه لا يمكن عكسه.

صراع القيم: يواجه الشباب اليهودي صراعاً بين التضامن العرقي مع إسرائيل وقيم العدالة الاجتماعية العالمية. وبالنسبة لعدد متزايد منهم، فإن قيمة العدالة هي التي تنتصر.

صعود اليسار اليهودي: لقد تبلور هذا التمرد في شكل حركات سياسية منظمة، مثل "الصوت اليهودي من أجل السلام" و"إذا لم يكن الآن"، التي تتحدى هيمنة المؤسسة الصهيونية، وتدعم النضال الفلسطيني.

أزمة الشرعية: إن هذا الانقسام يطرح سؤالاً وجودياً على الصهيونية: ماذا تعني "دولة اليهود" إذا كان نصف يهود العالم ضدها؟ إنها أزمة شرعية داخلية، هي الأخطر على المشروع الصهيوني.

الأمل في التحول: إن هذا الانقسام ليس علامة ضعف، بل علامة صحة. فهو يثبت أن الضمير اليهودي لا يزال حياً، وأن هناك أملاً في أن تؤدي هذه الديناميكية الداخلية، مع النضال الفلسطيني، إلى تحول تاريخي نحو العدالة والسلام.

السؤال المحوري الذي يطرحه هذا الفصل هو: هل نحن نشهد بداية نهاية الصهيونية كما عرفناها؟ وهل يمكن أن يولد من رحم هذا الانقسام شكل جديد من الهوية اليهودية، لا يقوم على القومية والاستعمار، بل على العدالة والتضامن الإنساني؟

إن هذه الرحلة الطويلة والمؤلمة، من الشتات إلى الاحتلال، ومن الضحية إلى الجلاد، تتركنا مع سؤال أخير: ما هي الدروس التي يمكن أن نتعلمها؟ وهل هناك طريق للخروج من هذه الدوامة من العنف والظلم؟ الفصل الأخير من هذا الكتاب، "دروس من رحلة التحول"، سيحاول تقديم بعض الإجابات. لن يكون فصلاً عن التاريخ أو السياسة، بل سيكون فصلاً عن الحكمة الإنسانية. سنتأمل في الدروس العالمية التي تقدمها هذه القصة، حول مخاطر القومية، وعن طبيعة السلطة، وعن أهمية الذاكرة، وعن قدرة الإنسان على التحول، نحو الأفضل أو نحو الأسوأ. وسنختتم بنظرة إلى المستقبل، ليس للتنبؤ به، بل لتخيله. هل يمكن أن نتخيل مستقبلاً مختلفاً لهذه الأرض المقدسة، مستقبلاً يقوم على المصالحة والعدالة والمساواة؟ إنه السؤال الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا جميعاً، لأن مصير هذه الأرض هو، في النهاية، مرآة لمصير إنسانيتنا.

مراجع الفصل العشرين:

- [1] Rachel Goldberg's speech at the 2010 J Street Conference is available on YouTube and has been widely cited.
- [2] Beinart, Peter. "The Crisis of Zionism." Houghton Mifflin Harcourt, 2012. Beinart's book was one of the first to document this generational divide in detail.
- [3] "Jewish Americans in 2020." Pew Research Center, May 11, 2021.
- [4] "25% of U.S. Jews Think Israel Is an Apartheid State." Jewish Electorate Institute, July 2021.
- [5] This argument is central to the work of many young Jewish critics of Israel. See, for example, the writings of Peter Beinart and the activists of IfNotNow.
- [6] Jewish Voice for Peace website (jewishvoiceforpeace.org).

- [7] IfNotNow website (ifnotnowmovement.org).
- [8] The success of BDS resolutions on college campuses is a well-documented trend. See reports by the Palestine Legal.
- [9] The decline in Birthright participation has been reported in various Jewish and mainstream media outlets.

(٢١)

دروس من رحلة التحول

مشهد من المستقبل

في حديقة عامة في مدينة القدس، في يوم ربيعي مشمس، يلعب طفلان صغيران معاً. أحدهما اسمه موشيه، والآخر اسمه محمد. لا يتحدثان نفس اللغة، لكنهما يفهمان بعضهما البعض بلغة اللعب العالمية. يضحكان، ويركضان، ويتبادلان كرة صغيرة. حولهما، يجلس آباؤهم وأمهاتهم على مقاعد الحديقة، يراقبونهم بابتسامة. لا يوجد جدار يفصل بينهم. لا توجد حواجز. لا يوجد جنود. لا يوجد خوف.

هذا المشهد ليس حقيقياً. إنه مشهد من المستقبل. ربما مستقبل بعيد، وربما مستقبل مستحيل. ولكنه المستقبل الذي يجب أن نجرؤ على تخيله، إذا أردنا أن نكسر دائرة العنف التي استمرت لأكثر من قرن في هذه الأرض المقدسة.

لقد كانت رحلة هذا الكتاب طويلة ومؤلمة. لقد تتبعنا رحلة الشعب اليهودي من ضحية للاضطهاد والشتات، إلى جلاد يمارس الاحتلال والأبارتهايد. لقد رأينا كيف يمكن للمعاناة أن تولد القسوة، وكيف يمكن للذاكرة أن تصبح سلاحاً، وكيف يمكن للعدالة أن تضيع في متاهات القومية والدين.

ولكن هذه القصة لا يمكن أن تنتهي باليأس. فالإنسان، الذي لديه قدرة هائلة على الشر، لديه أيضاً قدرة لا حدود لها على الخير. والتاريخ، الذي هو سجل للجرائم والحماقات، هو أيضاً سجل للحظات نادرة من الشجاعة والرحمة والحكمة.

هذا الفصل الأخير هو محاولة لاستخلاص بعض هذه الحكمة. فهو ليس فصلاً عن السياسة أو الاستراتيجية، بل هو فصل عن الدروس الإنسانية التي يمكن أن نتعلمها من هذه المأساة. سنبدأ بالتأمل في الدروس العالمية التي تقدمها هذه القصة، حول مخاطر القومية، وعن طبيعة السلطة، وعن أهمية الذاكرة.

سنبحث في إمكانيات الشفاء الجماعي. كيف يمكن لشعبين، يحمل كل منهما جروحاً عميقة، أن يبدآ في رؤية إنسانية بعضهما البعض؟ سننظر في تجارب المصالحة من أماكن أخرى في العالم، مثل جنوب أفريقيا ورواندا، ونرى ما إذا كانت هناك دروس يمكن تطبيقها في فلسطين.

بعد ذلك، سنناقش ببراغماتية خيارات المستقبل. هل لا يزال حل الدولتين ممكناً؟ أم أن الواقع على الأرض قد فرض حل الدولة الواحدة؟ وما هي التحديات والفرص التي يطرحها كل خيار؟

أخيراً، سنختتم بنظرة إلى الطريق نحو المصالحة الحقيقية. ما هي الخطوات التي يجب اتخاذها، ليس فقط من قبل السياسيين، بل من قبل الأفراد العاديين، لبناء مستقبل يقوم على العدالة والمساواة والكرامة للجميع؟

هذا الفصل هو دعوة للأمل. ليس أملاً ساذجاً يتجاهل صعوبة الواقع، بل أمل شجاع يصر على أن الواقع يمكن تغييره. إنه إيمان بأن موشيه ومحمد يستحقان مستقبلاً أفضل من ماضينا. وأن مسؤوليتنا، كبشر، هي أن نبني لهم هذا المستقبل.

الدروس الخمسة العظمى

إن قصة تحول الضحية إلى جلاد، كما تجسدت في التجربة الصهيونية، ليست مجرد قصة محلية. إنها مأساة إنسانية عالمية، تقدم دروساً عميقة حول الطبيعة البشرية، وحول مخاطر القومية، وحول العلاقة المعقدة بين الذاكرة والسلطة. يمكن تلخيص هذه الدروس في خمس نقاط رئيسية:

أ. الدرس الأول: القومية هي إدمان خطير

لقد ولدت الصهيونية كرد فعل على القوميات الأوروبية التي اضطهدت اليهود. ولكن بدلاً من أن تتعلم من مخاطر القومية، استنسخت أسوأ ما فيها. لقد تبنت فكرة أن الحل لمشكلة الأقلية هو أن تصبح أغلبية، وأن الأمن لا يتحقق إلا من خلال الهيمنة العرقية والدينية. [1]

إن التاريخ يعلمنا أن القومية، عندما تتحول إلى عقيدة مطلقة، تصبح إدماناً خطيراً. وتجعل الناس يعتقدون أن "شعبهم" متفوق على الشعوب الأخرى، وأن "حقوقهم" أهم من حقوق الآخرين. تخلق عقلاً منغلقاً، يرى العالم من منظور "نحن" مقابل "هم". وهذا هو بالضبط ما حدث في إسرائيل. لقد أدت القومية الصهيونية إلى عزل إسرائيل عن محيطها، وإلى تبرير سياسات التمييز والاحتلال، وإلى خلق مجتمع عسكري يعيش في خوف دائم من الآخر.

الدرس هو أن الخلاص الحقيقي لا يكمن في بناء جدران أعلى، بل في هدمها. لا يكمن في الانعزال القومي، بل في الانفتاح الإنساني. لا يكمن في عبادة الدولة، بل في خدمة المبادئ العالمية للعدالة والمساواة.

ب. الدرس الثاني: السلطة المطلقة مفسدة مطلقة

جاء اليهود إلى فلسطين كأقلية مضطهدة، تبحث عن ملجأ. ولكن في غضون عقود قليلة، تحولوا إلى قوة مهيمنة، تملك السلاح النووي، وتتمتع بدعم غير محدود من القوة

العظمى الوحيدة في العالم. هذا التحول الدراماتيكي في ميزان القوة هو الذي يفسر إلى حد كبير التحول الأخلاقي الذي حدث.

لقد أكد اللورد أكتون أن "السلطة المطلقة مفسدة مطلقة". [2] عندما تمتلك مجموعة ما سلطة غير مقيدة على مجموعة أخرى، فإنها تبدأ حتماً في إساءة استخدام هذه السلطة. تبدأ في رؤية المجموعة الأخرى على أنها أقل إنسانية، وتبدأ في تبرير معاملتها بوحشية. هذا ما حدث للإسرائيليين. إن سلطتهم المطلقة على الفلسطينيين، وغياب أي مساءلة حقيقية، هو الذي سمح لهم بارتكاب جرائم الاحتلال والأبارتهايد، وهم يعتقدون أنهم على حق.

الدرس هو أن السلطة يجب أن تكون دائماً مقيدة بالقانون والأخلاق. وأن أي مجموعة تمتلك سلطة غير متناسبة يجب أن تخضع لرقابة ومساءلة صارمة. وأن السلام الحقيقي لا يمكن أن يقوم على الهيمنة، بل على توازن القوى، وعلى الاحترام المتبادل للحقوق.

ج. الدرس الثالث: الذاكرة يمكن أن تكون سلاحاً

كانت ذاكرة المعاناة هي المحرك الرئيسي للمشروع الصهيوني. ذاكرة الاضطهاد، ذاكرة الشتات وذاكرة الهولوكوست. ولكن هذه الذاكرة، التي كان يمكن أن تكون مصدراً للتعاطف والحكمة، تم تحويلها إلى سلاح. [3]

لقد تم استخدام ذاكرة الهولوكوست لتبرير كل شيء: من التطهير العرقي عام 1948، إلى بناء المستوطنات، إلى حصار غزة. أصبحت الذاكرة أداة لابتزاز العالم، ولإسكات أي نقد لإسرائيل. وأصبحت درعاً أخلاقياً، يحمي إسرائيل من المساءلة عن جرائمها الحالية.

الدرس هو أن الذاكرة يجب أن تُعامل بحذر واحترام. يجب أن تكون أداة للفهم، لا للانتقام. يجب أن تكون جسراً للتواصل مع معاناة الآخرين، لا جداراً لعزل أنفسنا عنهم. الذاكرة التي لا تؤدي إلى الحكمة والرحمة هي ذاكرة سامة، تدمر صاحبها قبل أن تدمر أعداءه.

د. الدرس الرابع: لا أحد محصن ضد الشر

الدرس الأكثر إيلاماً في هذه القصة هو أنه لا يوجد شعب محصن ضد ارتكاب الشر. فاليهود، الذين كانوا ضحايا لواحدة من أسوأ الجرائم في تاريخ البشرية، أثبتوا أنهم قادرون على ارتكاب جرائم فظيعة بدورهم. هذا لا يعني أن جرائمهم مكافئة لجرائم النازيين. فالمقارنة هنا ليست في الحجم، بل في المبدأ.

المبدأ هو أن أي مجموعة بشرية، إذا وُضعت في ظروف معينة من الخوف والقوة والأيديولوجية، يمكن أن تتحول إلى أداة للظلم. إن الشر ليس حكراً على عرق أو دين معين. بل كامن في الطبيعة البشرية، وهو ينتظر فقط الظروف المناسبة ليظهر. [4]

الدرس هو أننا يجب أن نكون دائماً متيقظين للشر في أنفسنا، قبل أن نبحث عنه في الآخرين. يجب أن نكون متواضعين، وأن ندرك أننا جميعاً قادرون على ارتكاب الفظائع، إذا تخلينا عن إنسانيتنا. وأن النضال الحقيقي ليس بين "الأخيار" و"الأشرار"، بل هو الصراع الدائم داخل كل فرد ومجتمع بين قوى الخير وقوى الشر.

هـ. الدرس الخامس: الضمير الإنساني لا يموت

على الرغم من كل هذه القتامة، فإن هذه القصة تحمل أيضاً بصيصاً من الأمل. لقد رأينا كيف أنه في كل مرحلة من مراحل هذا التحول المأساوي، كانت هناك أصوات يهودية شجاعة، رفضت الصمت، ووقفت مع العدالة. من حنة آرنت، إلى يشعياهو ليبوفيتش، إلى إيلان بابيه، إلى نورمان فينكلشتاين، إلى الشباب في حركة "الصوت اليهودي من أجل السلام".

هذه الأصوات تثبت أن الضمير الإنساني لا يمكن إخماده بالكامل. تثبت أنه حتى في أكثر المجتمعات انغلاقاً وعسكرة، هناك دائماً أفراد يختارون الإنسانية على القومية، والعدالة على الولاء. هم يمثلون الأمل في أن التغيير ممكن، وأن الخلاص يمكن أن يأتي من الداخل.

الدرس هو أننا يجب أن لا نفقد الأمل في الإنسانية أبداً. يجب أن نبحث دائماً عن أصوات الضمير وندعمها، حتى لو كانت ضعيفة ومهمشة. لأن هذه الأصوات هي التي

تحمل بذور المستقبل. إنها تذكرنا بأن التاريخ ليس قدراً محتوماً، بل هو نتيجة لخياراتنا. وأننا، في كل لحظة، لدينا الخيار بين أن نكون متفرجين، أو شركاء، أو مقاومين للظلم.

هل يمكن للجروح أن تلتئم؟

الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني ليس مجرد صراع على الأرض، بل هو أيضاً صراع بين روايتين متضاربتين، وبين جرحين عميقين. من ناحية، هناك الجرح اليهودي، جرح الشتات والاضطهاد والهولوكوست. ومن ناحية أخرى، هناك الجرح الفلسطيني، جرح النكبة والتهجير والاحتلال. أي حل سياسي لا يأخذ في الاعتبار هذين الجرحين، ولا يسعى إلى شفائهما، هو حل سطحي ومحكوم عليه بالفشل. [5]

أ. الاعتراف المتبادل بالمعاناة: الخطوة الأولى

الخطوة الأولى نحو الشفاء هي الاعتراف المتبادل بالمعاناة. يجب على الإسرائيليين أن يعترفوا بالظلم التاريخي الذي ألحقوه بالشعب الفلسطيني. يجب أن يعترفوا بالنكبة، وبمسؤوليتهم عن تهجير مئات الآلاف من الفلسطينيين عام 1948. يجب أن يعترفوا بوحشية الاحتلال، وبنظام الأبارتهايد الذي فرضوه. هذا الاعتراف ليس مجرد كلمة،

بل هو شرط أساسي للمصالحة. فلا يمكن أن تطلب من الضحية أن تسامح جلادها، إذا كان الجلاد لا يزال ينكر جريمته.

في المقابل، يجب على الفلسطينيين أيضاً أن يعترفوا بالمعاناة التاريخية للشعب اليهودي. يجب أن يفهموا أن الخوف الإسرائيلي ليس مجرد دعاية، بل هو خوف حقيقي، متجذر في تاريخ طويل من الاضطهاد. هذا لا يعني تبرير جرائم إسرائيل، بل يعني فهم السياق النفسي الذي نشأت فيه. إن الاعتراف بمعاناة الآخر لا يقلل من معاناتك، بل يفتح الباب أمام إمكانية التعاطف الإنساني.

ب. العدالة التصالحية: ما وراء العقاب

إن الشفاء لا يقتصر على الاعتراف، بل يتطلب أيضاً العدالة. ولكن ما نوع العدالة التي نحتاجها؟ هل هي العدالة الجنائية، التي تركز على معاقبة المجرمين؟ أم هي العدالة التصالحية، التي تركز على إصلاح الضرر، وإعادة بناء العلاقات؟

لقد أظهرت تجارب دول مثل جنوب أفريقيا ورواندا أن العدالة التصالحية يمكن أن تكون أكثر فعالية في المجتمعات التي مزقتها الصراعات. [6] تركز العدالة التصالحية على عدة عناصر:

قول الحقيقة: إنشاء لجان حقيقة ومصالحة، تتيح للضحايا والجلادين على حد سواء أن يرووا قصصهم، وأن يتم الاعتراف بالحقيقة الكاملة لما حدث.

جبر الضرر: تقديم تعويضات للضحايا، سواء كانت مادية (مثل إعادة الممتلكات) أو رمزية (مثل بناء النصب التذكارية). وحق العودة للاجئين الفلسطينيين هو جزء أساسي من جبر الضرر.

المساءلة: محاسبة المسؤولين عن الجرائم الكبرى، ولكن مع التركيز على الاعتراف بالذنب والندم، بدلاً من الانتقام.

المصالحة: خلق مساحات للحوار والتفاعل بين المجموعتين، لكسر الصور النمطية، وبناء الثقة.

إن تطبيق نموذج العدالة التصالحية في فلسطين/إسرائيل يتطلب شجاعة وخيالاً سياسياً. وقد يكون الطريق الوحيد للخروج من دائرة الانتقام، وبناء مستقبل مشترك.

ج. دور التعليم والذاكرة: إعادة كتابة الرواية

الشفاء الجماعي يتطلب أيضاً ثورة في التعليم وفي طريقة تذكر الماضي. يجب على كلا الشعبين أن يعيد كتابة تاريخه، ليتضمن رواية الآخر. يجب على الأطفال الإسرائيليين أن يتعلموا عن النكبة في مدارسهم، وليس فقط عن الهولوكوست. ويجب على الأطفال الفلسطينيين أن يتعلموا عن تاريخ الاضطهاد اليهودي، وليس فقط عن تاريخ الاحتلال.

يجب إنشاء متاحف ومناهج دراسية مشتركة، تروي القصة الكاملة لهذه الأرض، بكل تعقيداتها وتناقضاتها. يجب أن تصبح الذاكرة أداة للتعاطف، لا سلاحاً للكراهية. يجب أن يتعلم كل طرف أن يرى نفسه في عيون الآخر. عندها فقط، يمكن أن يبدأ الشفاء الحقيقي.

خيارات المستقبل وما وراء الأوهام

أي حديث عن الشفاء والمصالحة يجب أن يكون مرتبطاً بحل سياسي عادل ودائم. لعقود من الزمان، كان المجتمع الدولي يروج لـ "حل الدولتين" كطريق وحيد للسلام. ولكن هل لا يزال هذا الحل واقعياً؟ أم أن الوقت قد حان للتفكير في بدائل أخرى؟

أ. موت حل الدولتين: وهم السلام الاقتصادي

لقد أصبح حل الدولتين، الذي يقوم على فكرة قيام دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة إلى جانب إسرائيل، شبه مستحيل على أرض الواقع. والسبب الرئيسي هو التوسع الاستيطاني الهائل. فهناك الآن أكثر من 700,000 مستوطن إسرائيلي يعيشون في الضفة الغربية والقدس الشرقية، في مستوطنات تقطع أوصال الأراضي الفلسطينية، وتجعل من المستحيل إقامة دولة متصلة جغرافياً وذات سيادة. [7]

لقد استخدمت إسرائيل "عملية السلام" كغطاء لتكريس احتلالها. فبينما كان العالم يتحدث عن المفاوضات، كانت إسرائيل تبني المستوطنات، وتصادر الأراضي، وتفرض

واقعاً لا يمكن تغييره. فكرة أن الفلسطينيين يمكن أن يقبلوا بدولة مجزأة، منزوعة السلاح، وعاصمتها ضاحية من ضواحي القدس، هو مجرد وهم. وفكرة أن إسرائيل ستتخلى طواعية عن مستوطناتها وهم أكبر.

ب. حتمية الدولة الواحدة: تحديات الأبارتهايد

إن الواقع الذي فرضته إسرائيل على الأرض هو واقع الدولة الواحدة. فهناك دولة واحدة، هي إسرائيل، تسيطر على كامل الأرض الواقعة بين النهر والبحر، وعلى جميع السكان الذين يعيشون فيها. ولكن هذه الدولة الواحدة هي دولة أبارتهايد. فهي تمنح حقوقاً كاملة لمواطنيها اليهود، بينما تحرم الفلسطينيين من أبسط حقوقهم. [8]

النضال الفلسطيني، بشكل متزايد، يتحول من نضال من أجل الاستقلال في دولة منفصلة، إلى نضال من أجل المساواة داخل دولة واحدة. هو نضال ضد الأبارتهايد، يشبه النضال الذي خاضه السود في جنوب أفريقيا. فهو يطالب بتفكيك نظام التفوق اليهودي، وإقامة دولة ديمقراطية واحدة، يتمتع فيها جميع المواطنين، بغض النظر عن دينهم أو عرقهم، بحقوق متساوية.

إن حل الدولة الواحدة الديمقراطية يواجه تحديات هائلة. فهو يتطلب من الإسرائيليين أن يتخلوا عن حلم "الدولة اليهودية"، وأن يقبلوا بالعيش كأنداد مع الفلسطينيين. وهو يتطلب من الفلسطينيين أن يتخلوا عن حلم الدولة القومية الخاصة بهم، وأن يثقوا بأن حقوقهم ستكون محمية في دولة ذات أغلبية عربية. ولكن على الرغم من هذه التحديات، فإن هذا الحل قد يكون الأكثر واقعية والأكثر عدلاً على المدى الطويل، لأنه يعترف بالواقع على الأرض، ويسعى إلى تغييره نحو الديمقراطية والمساواة.

ج. الطريق الثالث: الكونفدرالية؟

هناك من يقترح طريقاً ثالثاً، يجمع بين عناصر من حل الدولتين وحل الدولة الواحدة. وهو فكرة الكونفدرالية بين دولتين مستقلتين، إسرائيل وفلسطين، مع حدود مفتوحة، وحرية حركة وإقامة للمواطنين في كلا الدولتين، وعاصمة مشتركة في القدس. [9]

هذا الحل يحاول أن يلبي رغبة كل شعب في تقرير مصيره، مع الاعتراف بأن الشعبين مرتبطان جغرافياً واقتصادياً بشكل لا يمكن فصله. ويسمح للمستوطنين بالبقاء في

أماكنهم، ولكن كمواطنين إسرائيليين يعيشون في دولة فلسطين، ويخضعون لقانونها. وهو يسمح للاجئين الفلسطينيين بالعودة، ليس بالضرورة إلى قراهم الأصلية، ولكن إلى أي مكان في الدولة الفلسطينية أو الإسرائيلية.

إن فكرة الكونفدرالية لا تزال في مراحلها الأولية، وتتطلب الكثير من النقاش والتفصيل. ولكنها تمثل نوعاً من التفكير الخلاق، الذي يحاول تجاوز الصناديق الأيديولوجية القديمة، والبحث عن حلول عملية وعادلة لمشكلة تبدو مستعصية.

الطريق نحو المصالحة

تحقيق أي من هذه الحلول السياسية يتطلب أكثر من مجرد اتفاقيات على الورق. يتطلب تحولاً عميقاً في الوعي وفي العلاقات بين الشعبين. المصالحة ليست حدثاً، بل هي عملية طويلة وشاقة، تتطلب التزاماً من جميع الأطراف. فيما يلي بعض الخطوات العملية التي يمكن أن تساهم في بناء هذا الطريق:

أ. المقاومة الشعبية اللاعنفية: قوة المظلوم

لقد أثبت التاريخ أن المقاومة الشعبية اللاعنفية هي الأداة الأكثر فعالية في يد الشعوب المظلومة. فهي تحتل الأرضية الأخلاقية العالية، وتكشف عن وحشية المحتل، وتجذب التضامن الدولي. لقد رأينا قوة هذه المقاومة في الانتفاضة الأولى، وفي المسيرات الأسبوعية ضد الجدار والمستوطنات، وفي حركة المقاطعة (BDS). [10]

يجب على الفلسطينيين أن يطوروا استراتيجية وطنية موحدة للمقاومة الشعبية اللاعنفية. يجب أن تشمل هذه الاستراتيجية جميع أشكال العصيان المدني: من الإضرابات، إلى مقاطعة البضائع الإسرائيلية، إلى المظاهرات الحاشدة. هذه المقاومة هي التي ستجعل تكلفة الاحتلال باهظة، وستجبر الإسرائيليين على الاعتراف بأن الوضع الراهن لا يمكن أن يستمر.

ب. التضامن الدولي: عزل نظام الأبارتهايد

لقد لعب التضامن الدولي دوراً مهماً في إسقاط نظام الأبارتهايد في جنوب أفريقيا. واليوم، هناك حاجة ماسة لحركة تضامن عالمية مماثلة مع الشعب الفلسطيني. حركة

المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات (BDS) هي الأداة الرئيسية لهذه الحركة. [11]

يجب على الأفراد والمؤسسات والنقابات والجامعات في جميع أنحاء العالم أن يشاركوا في هذه الحركة. يجب مقاطعة البضائع الإسرائيلية، وسحب الاستثمارات من الشركات التي تستفيد من الاحتلال، وفرض عقوبات على إسرائيل حتى تلتزم بالقانون الدولي. إن عزل إسرائيل، كما تم عزل جنوب أفريقيا، هو السبيل الوحيد لإجبارها على التغيير.

ج. بناء المؤسسات المشتركة: خلق واقع جديد

بالتوازي مع المقاومة والعزل، يجب البدء في بناء مؤسسات مشتركة، تخلق واقعاً جديداً من التعايش على الأرض. يمكن للناشطين الفلسطينيين والإسرائيليين أن يعملوا معاً في مشاريع مشتركة في مجالات مثل التعليم، والصحة، والبيئة، والثقافة. يمكن إنشاء مدارس ثنائية اللغة، وعيادات صحية مشتركة، ومشاريع بيئية لحماية الموارد الطبيعية المشتركة.

هذه المشاريع، حتى لو كانت صغيرة، لها أهمية رمزية كبيرة. حيث إنها تثبت أن التعايش ممكن، وأن هناك بديلاً لواقع الفصل والكراهية. ستبني الجسور بين الناس، وتخلق شبكات من الثقة والتضامن، التي ستكون أساساً لبناء مجتمع مشترك في المستقبل.

د. القيادة الشجاعة: البحث عن مانديلا جديد

في النهاية، لا يمكن أن يحدث أي تغيير حقيقي بدون قيادة سياسية شجاعة، على كلا الجانبين. قيادة مستعدة لاتخاذ قرارات صعبة، وتحدي المتطرفين في مجتمعها، والتحدث بلغة السلام والمصالحة. قيادة مثل نيلسون مانديلا، الذي خرج من السجن بعد 27 عاماً، ودعا إلى المصالحة، لا إلى الانتقام. [12]

إن البحث عن مانديلا فلسطيني وإسرائيلي قد يبدو اليوم حلماً بعيد المنال. فالساحة السياسية على كلا الجانبين مليئة بالديناصورات الفاسدة والمتطرفة. ولكن التاريخ يعلمنا أن القادة العظماء يولدون في لحظات الأزمات الكبرى. وعندما تصل الأمور إلى حافة الهاوية، فإن الحاجة إلى الخلاص يمكن أن تلد الأبطال الذين لم نكن نتوقعهم.

إن الطريق نحو المصالحة طويل وشاق. ولكنه ليس مستحيلاً. فقط يتطلب مزيجاً من الصمود والمقاومة، والتضامن الدولي، وبناء الجسور، والقيادة الشجاعة. والإيمان بأن إنسانيتنا المشتركة هي أقوى من كل ما يفرقنا.

رسالة إلى المستقبل

لقد وصلنا إلى نهاية هذه الرحلة. رحلة بدأت في أزقة الجيتو في وارسو، وانتهت على حواجز الفصل العنصري في الخليل. رحلة تتبعت تحول شعب من ضحية للاضطهاد، إلى مرتكب للظلم. قصة محزنة، ولكنها مليئة بالدروس، ليس فقط للفلسطينيين واليهود، بل للإنسانية جمعاء.

إذا كان علي أن ألخص الرسالة الأساسية لهذا الكتاب في بضع كلمات، فهي:

إن المعاناة لا تمنح أي شخص الحق في إلحاق المعاناة بالآخرين. بل على العكس، إنها تفرض عليه واجباً أخلاقياً بأن يكون أكثر حساسية لمعاناة الآخرين، وأن يناضل من أجل عالم لا يتعرض فيه أي إنسان للظلم الذي تعرض له.

هذه هي الحقيقة البسيطة التي تجاهلتها الصهيونية، والتي تقع في قلب هذه المأساة. الحقيقة التي يجب أن نستعيدها، إذا أردنا أن نبني مستقبلاً مختلفاً.

إلى القارئ العربي، أقول: لا تدع جرائم إسرائيل تدفعك إلى اليأس أو الكراهية. لا تسقط في فخ التعميم، والحكم على كل اليهود بأنهم أعداء. تذكر أن هناك أصواتاً يهودية شجاعة تقف معكم، وتدفع ثمناً باهظاً لموقفها. ابحث عن هؤلاء الحلفاء، وابن معهم جسوراً من التضامن. وتذكر أن قوتك الحقيقية لا تكمن في السلاح، بل في عدالة قضيتك، وفي صمودك الأخلاقي.

إلى القارئ الغربي، أقول: لقد حان الوقت لتتوقف عن النظر إلى هذا الصراع من خلال عدسة الذنب التاريخي تجاه اليهود. إن دعمك الأعمى لإسرائيل لا يخدم السلام، بل يطيل أمد الظلم. لا تخف من تهمة معاداة السامية. انتقد إسرائيل كما تنتقد أي دولة أخرى تنتهك حقوق الإنسان. ادعم حركة المقاطعة، وطالب حكومتك بفرض عقوبات على إسرائيل. إن صمتك هو تواطؤ.

إلى القارئ اليهودي، أقول: إن هذا الكتاب ليس هجوماً على اليهودية، بل هو دعوة لإنقاذها من الصهيونية. إن إسرائيل لا تحميكم، بل تعرضكم للخطر، من خلال ربط مصيركم بمشروع استعماري عنصري. لا تسمحوا بأن يتم ارتكاب هذه الجرائم باسمكم. استعيدوا التقليد النبوي لليهودية، الذي يقف مع المظلوم ضد الظالم. قولوا "لا باسمنا".

وإلى موشيه ومحمد، الطفلين اللذين بدأنا بهما هذا الفصل، أقول: إن العالم الذي ورثتماه هو عالم مليء بالكراهية والجدران. ولكن لا تدعا هذا العالم يقتل الأمل في قلوبكما. تذكرا أنكما، في براءتكما، تحملان سر السلام. سر القدرة على اللعب معاً، والضحك معاً، ورؤية الإنسان في الآخر، قبل رؤية اليهودي أو العربي.

مهمتنا، نحن الذين سبقناكم، هي أن نبني لكما عالماً يليق ببراءتكما. عالماً لا تكون فيه الحديقة التي تلعبان فيها مجرد حلم، بل حقيقة يومية. عالماً تكون فيه القدس مدينة للصلاة، لا للحرب. عالماً تكون فيه هذه الأرض المقدسة وطناً للجميع، لا سجناً للبعض.

قد لا نرى هذا العالم في حياتنا. ولكن يجب أن لا نتوقف عن النضال من أجله. لأن هذا النضال، هو المعنى الأساسي لإنسانيتنا.

مراجع الفصل الحادي والعشرين:

- [1] The critique of nationalism is a central theme in the work of many post-Zionist thinkers. See, for example, Uri Ram, "The Globalization of Israel: McWorld in Tel Aviv, Jihad in Jerusalem" (2007).
- [2] Lord Acton's famous quote is from a letter he wrote in 1887.
- [3] The concept of "abusive memory" has been developed by scholars like Avishai Margalit and Ian Buruma. See their book "Occidentalism: The West in the Eyes of Its Enemies" (2004).
- [4] The idea of the "banality of evil" was famously articulated by Hannah Arendt in her book "Eichmann in Jerusalem" (1963).
- [5] The importance of acknowledging the "other's" narrative is a key theme in the work of the Israeli psychoanalyst Dan

Bar-On. See his book "The 'Other' Within Us: A Socio-Psychological-Political-Cultural Analysis of the Israeli-Palestinian Conflict" (2006).

- [6] The literature on transitional justice is vast. For an overview, see Ruti Teitel, "Transitional Justice" (2000).
- [7] The impossibility of the two-state solution is now a widely accepted view among critical analysts. See, for example, the work of the Israeli journalist Gideon Levy.
- [8] The apartheid analogy has been endorsed by major human rights organizations, including Human Rights Watch and Amnesty International, as well as by Israeli organizations like B'Tselem.
- [9] The idea of a confederation has been promoted by a number of Israeli and Palestinian intellectuals, including the

Israeli writer Avraham Burg and the Palestinian academic Sari Nusseibeh.

- [10] For a history of Palestinian nonviolent resistance, see Mary Elizabeth King, "A Quiet Revolution: The First Palestinian Intifada and Nonviolent Resistance" (2007).
- [11] The official website of the BDS movement (bdsmovement.net) provides a comprehensive overview of its goals and strategies.
- [12] Nelson Mandela's autobiography, "Long Walk to Freedom" (1994), is a powerful testament to the power of forgiveness and reconciliation.

خاتمة

"لقد تعلمت أن الشجاعة ليست غياب الخوف، بل هي الانتصار عليه.

الرجل الشجاع ليس هو الذي لا يشعر بالخوف، بل هو الذي يتغلب على هذا الخوف."

-- نيلسون مانديلا

في نهاية هذه الرحلة الطويلة والمضنية عبر تاريخ الألم والقوة، نعود إلى السؤال الذي بدأنا به: كيف يمكن كسر دائرة العنف؟ كيف يمكن للضحية أن تتوقف عن أن تصبح جلاداً؟ كيف يمكن بناء مستقبل يقوم على العدالة والمصالحة، بدلاً من الانتقام والهيمنة؟

ليس هناك إجابات واضحة لهذه الأسئلة. فالتاريخ، كما رأينا، هو عبء ثقيل. والجروح، عندما تكون عميقة، لا تلتئم بسهولة. والأيديولوجيات القومية، عندما تتجذر، تصبح كالسجن الذي يصعب الهروب منه.

ولكن التاريخ ليس قدراً محتوماً. والإنسان، الذي لديه قدرة هائلة على التدمير، لديه أيضاً قدرة مذهلة على التجدد والتغيير. إن قصة تحول الضحية إلى جلاد ليست هي القصة الوحيدة الممكنة. هناك دائماً قصة أخرى، قصة الضحية التي تحول معاناتها إلى حكمة، وألمها إلى تعاطف، وذاكرتها إلى التزام بالعدالة للجميع.

لقد رأينا بوادر هذه القصة الأخرى في أصوات المفكرين والناشطين اليهود الشجعان الذين رفضوا الصمت، ووقفوا ضد جرائم دولتهم. رأيناها في صمود الشعب الفلسطيني، الذي لم يفقد إنسانيته رغم عقود من الظلم. ورأيناها في حركة التضامن العالمية المتنامية، التي ترفض أن تقف متفرجة على جريمة الأبارتهايد.

إن الطريق إلى الأمام يتطلب العمل على ثلاثة مستويات متوازية:

مستوى المقاومة: يجب أن يستمر النضال ضد الاحتلال والأبارتهايد، وبكل أشكاله. يجب أن تستمر المقاومة الشعبية الفلسطينية، وأن تتصاعد حركة المقاطعة الدولية

(BDS). يجب أن يصبح الاحتلال مكلفاً وغير محتمل، حتى تدرك إسرائيل أنها لا يمكن أن تحافظ على نظامها العنصري إلى الأبد.

مستوى الحوار: بالتوازي مع المقاومة، يجب فتح قنوات الحوار والتواصل بين الشعبين. ليس حواراً بين الأقوياء والضعفاء، بل حواراً بين أنداد، يعترف كل منهم بإنسانية الآخر، وبحقوقه، وبروايته. يجب إنشاء مساحات مشتركة، حيث يمكن للفلسطينيين والإسرائيليين أن يلتقوا، وأن يستمعوا لبعضهم البعض، وأن يبدأوا في بناء الثقة.

مستوى الخيال: إن أهم معركة يجب أن نخوضها هي معركة الخيال. يجب أن نجرؤ على تخيل مستقبل مختلف، مستقبل يتجاوز حدود الدولة القومية، ويتجه نحو أشكال جديدة من الشراكة والتعايش. سواء كان ذلك في شكل دولة ديمقراطية واحدة، أو كونفدرالية بين دولتين، أو أي نموذج آخر، فإن المهم هو أن نبدأ في التفكير خارج الصندوق، وأن نتحرر من الأفكار القديمة التي أوصلتنا إلى هذا الطريق المسدود.

هذا الكتاب هو مساهمة متواضعة في هذه المعركة. محاولة لتشريح الماضي، ليس من أجل البكاء عليه، بل من أجل التعلم منه. دعوة للنقد الذاتي، وللتواضع، وللتعاطف. وإيمان بأن فهم جذور الظلم هو الخطوة الأولى نحو التغلب عليه.

إن قصة الشعب اليهودي هي قصة مأساوية، ولكنها أيضاً قصة ملهمة. ترينا إلى أي مدى يمكن للإنسان أن يسقط، ولكنها ترينا أيضاً إلى أي مدى يمكن له أن ينهض. تذكرنا بأن الخيار بين أن نكون ضحايا أو جلادين أو صناع سلام هو خيار متاح لنا في كل لحظة.

فلنختر أن نكون صناع سلام. أن نكسر دائرة العنف. ونبني عالماً لا يكون فيه موشيه ومحمد أعداء، بل أخوة. إنه التحدي الأعظم في عصرنا. ولكنه أيضاً الأمل الأعظم.